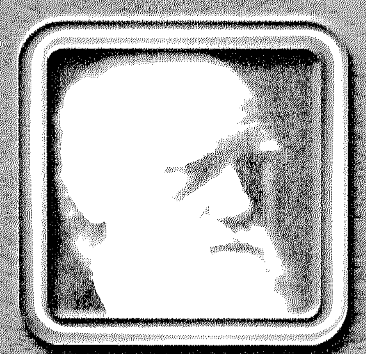
يوسف ميخائيل أسعد

العبقرية والجنون














دار غريب
للطباعة والنشر والتوزيع
القاهرة



العَبقريّةُ والجُنونُ

تأليف
يوسف ميخائيل أسعد



الـكـتـاب : العبقرية والجنون

المؤلـف : يوسف ميخائيل أسعد

رقم الإيداع : ٢٦٠٠

تاريخ النشر : ٢٠٠١

الترقيم الدولي : I.S.B.N. 977-7075-09

الـنـاشـر : دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
شركة ذات مسئولية محدودة

الإدارة والمطابع : ١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)

ت : ٧٩٤٢٠٧٩ فاكس ٧٩٥٤٣٢٤

الـتـوزيـع : دار غريب ٣،١ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة

ت ٥٩٠٢١٠٧ - ٥٩١٧٩٥٩

إدارة التسويق والمعرض الدائم : ١٢٨ شارع مصطفى النحاس مدينة نصر - الدور الأول
ت ٢٧٣٨١٤٢ - ٢٧٣٨١٤٣

مقدمة

نسمع تعليقات من آن وآخر حول شذوذ العباقرة، ولكأن الذكاء المفرط مصحوب دائمًا بشىء من الجنون ، وأن العبقرية لا تعدو أن تكون ضمن الأمراض العقلية التى ينبغى إخضاعها للعلاج .

من هذه الفكرة بدأ هذا الكتاب . فتساءلنا : ولم لا نبحث فى الآراء التى قيلت حول هذا الموضوع ؟ ولماذا لا نخضع هذا الزعم القائل بأن العبقرى شخص مجنون للدراسة العلمية بدلاً من الاكتفاء بالتعليقات العشوائية التى لا تستند إلى فكر واضح ، وإلى آراء علمية مدروسة ؟

وبالفعل بدأنا بدراسة معنى العبقرية . وكان من الطبيعى أن نبدأ بالمعاجم والتراث العربى، ثم نتناول بعد ذلك التراث الغربى لنقف على معنى العبقرية كما بدأ ثم كما تطور . ولم نكتف بذلك بل قلبنا هذا المعنى على أوجهه المختلفة فنظرنا إليه من الزوايا المتباينة التى استطعنا أن ننظر إليه منها . فنظرنا إليه من الزاوية الميتافيزيقية ، ومرة ثانية من الزاوية السيكولوجية وثالثة من الزاوية الفسيولوجية ورابعة من الزاوية الاجتماعية .

وبعد أن انتهينا من التعريف بمعنى العبقرية ، أخذنا فى التعريف بمعنى الجنون فبحثنا العلاقة بين الجنون والجن، ثم أخذنا فى بحث تطور معنى الجنون، ثم عرضنا لتصنيف الأمراض العقلية، وقدمنا ثلاثة أنماط هامة للجنون لها صلة وثيقة غالبا بما يبدو لدى العباقرة من اعوجاج في الشخصية .

وتناولنا بالدراسة بعد ذلك سيكلوجية العبقرى، وعرضنا لبعض الجوانب الهامة كموضوع نصيب المرأة من العبقرية ودور الإلهام والحدس فى حياة العبقرى .

ولم يعزب عن بالنا أن نقدم أمثلة متعددة عن حياة العباقرة الذين ظهر فى تصرفاتهم ما ينم على الانحراف العقلى أو الشذوذ النفسى . فعرضنا لأمثلة

استقيناها من مصادر موثوق بها . وقد قمنا بتسجيل المراجع التى أستقينا منها الأمثلة المختلفة .

ثم عرضنا بعد ذلك للحضارة والعبقرية ، فزعمنا أن العباقرة هم صناع الحضارة ، كما تناولنا دور العباقرة فى تقدم التكنولوجيا ، ثم عرضنا لهندسة الوراثة والعبقرية ، ووقت الفراغ والعبقرية ، والتحديات الحضارية والعبقرية .

وأخيرًا اختتمنا هذه الدراسة بسؤال كثيرا ما يتردد على الألسنة والأقلام وهو: كيف نحافظ على العباقرة من الجنون ؟ ثم أجبنا على هذا السؤال بسبع إجابات هى : الكشف المبكر عن العبقرية ، ثم مراعاة الفروق الفردية فى تربية العباقرة ، ثم توفير فرص النمو والتعبير عن الذات ، ثم الرعاية النفسية والتوجيه الفردى ، ثم توفير الوعى الكافى لدى أسرة العبقرى ، ثم توفير جهود العبقرى للأهم وللجديد ، وأخيرًا الاهتمام بإعداد معلم العباقرة .

يوسف ميخائيل أسعد

الفصل الأول

معنى العبقرية

فى التراث العربى :

لقد اهتمت الشعوب على اختلافها بالعبقرية والعباقرة ، وأخذت تتناقل أخبارهم وتسجل ما تتضمنه من غرائب ، والتندر بما تتضمنه أخلاقهم من انحرافات عن السلوك المألوف . ولقد أخذ الناس يربطون بين سلوك العبقرى وبين التلبس بالجن أحيانا ، وبينه وبين الجنون أحيانًا أخرى ، وبينه وبين الشذوذ فى التكوين الجسمى أحيانًا ثالثة .

ولم يكن العرب أقل من غيرهم فى تناقل أخبار العباقرة والربط بين العبقرية والجن أو الجنون . فلقد ذكر ابن منظور الأفريقى المصرى فى لسان العرب [1] أن «عبقر موضع بالبادية كثير الجن . ويقال فى المثل: كأنهم جن عبقر ... ثم نسب العرب إلى ذلك الموضع كل شئ تعجبوا من حذقه أو جودة صنعه وقوته فقالوا : عبقرى ، وهو واحد وجمع ، والأنثى عبقرية . يقال ثياب عبقرية » .

وقال ابن الأثير : « عبقر قرية تسكنها الجن فيما زعموا ، فكلما رأوا شيئا فائقا غريبًا ممًا يصعب عمله ويدق ، أو شيئا عظيما فى نفسه نسبوه إليها فقالوا : عبقرى ، ثم اتسع فيه حتى سمى به السيد والكبير . وفى الحديث : إنه كان يسجد على عبقرى ، وهى هذه البسط التى فيها الأصباغ والنقوش ، حتى قالوا ظلم عبقرى ، وهذا عبقرى قوم، للرجل القوى ، ثم خاطبهم الله تعالى بما تعارفوه : فقال « عبقرى حسان » .

---

(١) لسان العرب لابن منظور الإفريقى المصرى – المجلد الرابع – دار صادر بيروت – ١٩٥٥ . ص ٥٣٤ – ٥٣٦ .

وقال ابن سيده : « والعبقرى والعباقرة ضرب من البسط ، الواحدة عبقرية . قال : وعبقر قرية باليمن توشى فيها الثياب والبسط ، فثيابها أجود ثياب فصارت مثلا لكل منسوب إلى شىء رفيع ، فكلما بالغوا فى نعت شىء متناه نسبوه إليه . وقيل : إنما ينسب إلى عبقر الذى هو موضع الجن ، وقال أبو عبيد : ما وجدنا أحدا يدرى أين هذه البلاد ولا متى كانت ، ويقال: ظلم عبقرى ومال عبقرى ورجل عبقرى كامل قال، الأصمعى : سألت أبا عمرو بن العلاء عن العبقرى ، فقال : يقال هذا عبقرى قوم كقولك هذا سيد قوم وكبيرهم وشديدهم وقويهم ونحو ذلك .

قال زهير :

بخيل عليها جنة عبقرية جديرون يومًا أن ينالوا فيستعلوا

وقال : أصل العبقرى ، صفة لكل ما بولغ فى وصفه ، وأصله أن عبقر بلد فيه البسط وغيرها .

وقيل: العبقرى الذي ليس فوقه شىء ، والعبقرى الشديد . والعبقرى السيد من الرجال . وهو الفاخر من الحيوان .

والعبقر والعبقرة من النساء : المرأة الجميلة ، قال :

تبدل حصن بأزواجه عشارا ، وعبقرة عبقرا

وعبقرة من أسماء النساء . وفى حديث عصام : عين الظبية العبقرة ، يقال جارية عبقرة أى ناصعة اللون . ويجوز أن تكون واحدة العبقر ، وهو النرجس تشبه به العين والعبقرى البساط المنقش . والعبقرى الكذب البحت . كذب عبقرى أى خالص لا يشوبه صدق . قال الليث : والعبقر أول ما ينبت من أصول القصب ونحوه، وهو غض رخص قبل أن يظهر من الأرض ، الواحدة عبقرة ، قال الحجاج : كعبقرات الحائر المسحور .

والتراث العربى ملىء بالقصص الخاصة بحياة العباقرة وما فى سلوكهم من شذوذ أو خروج عن المألوف . من هذا ما ذكر عن بشار بن برد (٦٩ - ١٦٨ هـ) أنه كان سيئ الخلق ، سريع الغضب ، سريع الهجاء ، متجاهرًا بالسكر ، مفتخرًا بالزنا، وكان من خلقه محبة اللذات والتنعم ، وقد عرفه الناس بذلك .

وكان قوى الرد على من خالفه ، كثير المحادثة ، كثير فلتات اللسان ، وكان بذىء اللسان ، شديد الأذى .

قال الخطيب فى تاريخ بغداد عن أبي عبيدة : كان بشار يقول الشعر وهو صغير ، وكان لا يزال قوم يشكونه إلى أبيه ، فيضربه ، حتى رق عليه من كثرة ما يضربه .

ويظهر من أخباره أنه كان شجاع القلب ، قليل الاكتراث بالمخاطر ، قويًا فى الثبات على رأيه ، وكان نزاعا إلى العصيان والثورة.

قال فى الأغانى : كان يفسد موالى العرب عليهم ، ويدعوهم إلى الانتقام منهم، ويرغبهم فى الرجوع إلى أصولهم وترك الولاء .

وقد ذكروا من شعره قوله يريد نفسه أو يخاطب بعض الموالى :

أصبحت مولى ذى الجلال وبعضهم ... مولى الغريب فخذ بفضلك وافخر

مولاك أكرم من تميم كلها ... أهل الفعال ومن قريب المشعر

فارجع إلى مولاك غير مدافع ... سبحان مولاك العلى الأكبر

وكان إذا أراد أن ينشد شعرا صفق بيديه ، وتنحنح وبصق عن يمينه وعن شماله ثم ينشد . قال الجرجانى فى كتاب الكنايات عن أبى عبيدة : كان بشار إذا أراد الشعر نفث (بصق) . وقال أبان بن عبد الحميد : حضرت بشارا يوما فى دهليز كأنه جبل نفخ فيه الروح . ووصف بشار لحية نفسه ، فقال على لسان جارية :

الصق بى لحية خشنت ... ذات سواد كأنها الإبر

ويقول بشار عن نفسه :

عميت جنينًا والذكاء من العمى ... فجئت عجيب الظن للعلم موئلا

وغاص ضياء العين للعلم رافدا ... بقلب إذا ما ضيع الناس حصلا[1]

ومن شذوذ بشار خروجه على الناس بالغريب من القول كتصويبه إبليس فى تقديم النار على الطين[2] . فيقول :

(١) ديوان بشار بن برد : الجزء الأول – تقديم محمد الطاهر بن عاشور مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ١٩٦٧ ص ١٢ .

(٢) البيان والتبيين : لأبى عمرو بن بحر الجاحظ – الجزء الأول – القاهرة ١٣٣٢هـ – ص ١٠ .

الأرض مظلمة والنار مشرقة   والنار معبودة مذ كانت النار

أما أبو الطيب المتنبى الذي قتل فى عام ٣٥٤ هجرية ، فقد لمعت عبقريته فى الشعر أيضا مثل بشار ، وكان المتنبي حاد الذكاء ، صريحًا ، لا يستطيع أن يخفى ما فى نفسه ، وقد توالت عليه أوقات شدة ورخاء، وتتابعت ساعات أمن وساعات قلق . وكان مضطربًا بين الرضا والغضب والبؤس والنعيم .

ولقد نشأ المتنبى طموحًا إلى أقصى حد الطموح ، يعتد بنفسه كل الاعتداد ولا يرى فى الوجود ندا ولا مثيلا له . قال فى صباه :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه   فما أحد فوقى ولا أحد مثلى

وقال أيضا :

أى محل أرتقى   أى عظيم أتقى
وكل ما خلـ   ـق الله وما لم يخلق
محتقر فى همتى   كشعرة فى مفرقى (١)

ويقول لنا العقاد فى عبقرية خالد عارضا لجوانب الغرابة في سلوك ذلك القائد العبقرى :

« فمن أوصاف أبناء الوليد عامة ينكشف لنا « قلق عصبى » فى هذه الأسرة قد تطرف حد التطرف فى أفراد منها ، واعتدل بعض الاعتدال فى آخرين ..

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد أنه كان يتفزع فى نومه . فذاك أثر من آثار « أعصاب الأسرة » كلها على ما هو واضح من جملة المشاهدات فى أبنائها ، وإن كان يجمح بهم فى حين ، ويكبح فى حين .

وقد كان خالد يغضب فينتقع لونه ، كما جاء فى كتب الفتوح من حديث المغاضبة بينه وبين أبى عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة أهلها . وقد كانت علة المغاضبة أن أبا عبيدة يحسب التسليم صلحا وخالدا يحسبه غلبا يحق فيه على المغلوب جزاء السبى والاغتنام والقصاص .

---

(١) فيض الخاطر – الجزء الرابع ، أحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية – ١٩٥٦ صفحة ٨٤ .

وكانت فى خالد حدة يملكها أو تملكه آونة . وفي القليل الذى بلغنا إشارة إلى الكثير الذى لم يبلغنا . فقد غاضب أبا عبيدة وغاضب عبد الرحمن بن عوف وغاضب عمار بن ياسر وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه: « لقد هممت الا أكلمك أبدًا »

ولقد جمع خالد بين حب الحرب وحب النساء . وفى هذا يقول العقاد : « وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غير عامد حين قال : « ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب . أو أبشر بغلام أحب إلى من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم: العدو فعليكم بالجهاد ».

فالحرب عنده اشتهاء ، والعروس عنده غاية المتاع .

والحرب فى رأيه حسناء تشتهى أبدًا، ولا تشيب ، كصاحبة الزبيدي تكون فى مبدئها « فتية تسعى بزينتها لكل جهول » ثم تصبح :

شمطاء جزت شعرها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

ويقول العقاد : « فهذه الأسرة الغريبة تكثر فيها عوارض الاختلاف عن جملة الناس فى تركيب الأعصاب خاصة ، ويشاهد فيها فرد أو أفراد تتجمع فيهم عللها وتمعن بهم مخالفاتها وعناصر شذوذها حتى تسلمهم إلى الاختلال والاضطراب كأنهم ضحايا الأسرة كلها فى سبيل إنجاب العبقرية منها .

وتلك فى جملتها شواهد العوارض التى يقرر النفسيون المحدثون أنها سمات العبقرية فى منابتها ، ومنابتها هى الأسر التى تنجبها وتبذل أثمانها قبل أن تنعم بمجدها وفخارها [١]

المعني التاريخي للعبقرية :

من المعروف أن الألفاظ كالكائنات الحية من حيث تطور معانيها عبر العصور. فاللفظ الواحد يتلبس بمعان متباينة ، بل ومتباعدة بفعل التطور الحضارى ، وبما

(١) عبقرية خالد : عباس محمود العقاد - الهيئة العامة للمطابع الأميرية - القاهرة - ١٩٧٢ ص ٢٩٧ ، ٥١.

يستجد من حاجات اجتماعية تتطلب استخدام نفس اللفظ لأغراض جديدة غير الأغراض التى دأب الناس على استخدامه فيها .

وكلمة genius التى تعبر اليوم فى اللغة الإنجليزية عن معنى العبقرية أو العبقرى هي أصلا كلمة لاتينية استخدمت عند الرومان للتعبير عن معنى دينى هو روح أبى الأسرة أو أم الأسرة ، وقد كانوا يعبدونها . ولم يكن المقصود بروح أبى أو أم الا سرة الزوجين الموجودين على قيد الحياة أو المتوفيين . فواضح من الوثائق القديمة أنها لا تذكر روح أى شخص ميت . ولم تكن ثمة عبادة تقدم إلى روح أى فرد من الأسرة. والمحتمل أن يكون المقصود بروح الأب وروح الأم تلك الأشكال الذكرية والأنثية لقوة الأسرة أو العشيرة خلال الفترة الحالية ، ثم هى تخرج من نطاقهم عند الموت للتلبس بأبنائهم وبناتهم (١)

فالجينياس كان فى الديانة الرومانية القديمة قوة عليا تخلق الحياة وتحافظ عليها ، وتساعد على إنجاب ورعاية كل شخص ، وتحدد صفاته الأخلاقية ، وتوثر فى مصيره وتظل مصاحبة له خلال حياته كلها كملاك حارس له ، وبينما كانت كلمة genius تطلق على الروح الحارسة للذكر ، فإن كلمة iuno كانت تطلق على الروح الحارسة للمرأة (٢) .

ولم يكن أمر الجينياس والإيونو مقتصرًا على الناس فقط فى الديانة الرومانية القديمة ، بل كانا بمثابة الروح الواقية التي تتلبس بها جميع الكائنات الحية ، ولكن اقتصر إطلاقهما منذ عهد أوغسطس بإزاء بنى الإنسان . فاقتصر استخدام لفظ جينياس على معنى الروح الحارس للرجل . فكل رجل رومانى كان يعتقد أن له جينياسه الحارس . وكذلك الحال بالنسبة لكل امرأة رومانية . فكان يعتقد أن لها إيونو حارسا يصاحبها طوال حياتها (٣)

ولقد كان يعبر عن الجينياس والإيونو فى الديانة الرومانية القديمة بشكل

---

(١) Encyclopaedia Britanica Vol. 10, 1972, P. 103.

(٢) The American Peoples Encyclopedia, New York, 1910, Vol. 8, P. 441 .

(٣) Encyclopedia Americana New York, 1965, Vol . 12, P. 401 .

حية ، أو بشكل شاب مشغول فى تقديم ذبيحة ، وكان هناك أيضًا الجينياس القومى (الروح الحارسة للشعب الرومانى) ، وقد أقيم تمثال يعبر عنه بالقرب من الساحة العامة لمدينة روما ، وكان على هيئة رجل بلحية على رأسه تاج ، ويشبه هذا التمثال الرسم الذى يشاهد على النقود التي يرجع تاريخها إلى أيام هارديان Hardian وتراجان Trajan .

وكان للأقاليم الرومانية أيضًا أرواحها الحارسة الخاصة بكل إقليم أو بلدة ، وكان يعبر عنها بشكل حيات غالبًا . ولقد استحدث الفلاسفة فكرة أن للرجل جينياسين : أحدهما خيِّر والثانى شرير . فالجينياس الخيِّر لم يكن يختلف عن الجينياس الشرير إلا من حيث النوايا التى يكنها بإزاء الشخص الذى يتعلق به . ولكن الفكرة العامة لدى الشعب كانت تعتبر الجينياس روحًا عطوفة ومحسنة . ولقد صار لفظ الجينياس الشرير يستخدم فى الأزمنة الحديثة بصدد الشخص الذى يمارس تأثيرًا رديئًا فى سلوك أو شخصية شخص آخر[1] .

وفى التراث الشعبى الشرقى ، وبخاصة التراث العربي انتشرت فكرة الأرواح المصاحبة للرجل والمرأة ، وهي كائنات فى مرتبة روحانية أقل من مرتبة الملائكة ، ولديها قدرات سحرية. وكلمة « جنى » فى العربية مرتبطة لفظًا ومعنى بالجينياس عند الرومان . ويشيع استخدام لفظ جنى ومؤنثه جنية بألف ليلة وليلة . ويدل على كائن روحى فى خدمة الإنسان أو يتربص به الدوائر .

والجن بالتراث الشعبى العربى عكس الإنس، وهو جمع جنى. ويعتقد أن الجن قد جبلوا من النار ، ولكن لديهم القدرة على الظهور سواء فى أشكال آدمية أم أشكال حيوانية ، وعندما يكون الجنى طيبًا ، فإنه يظهر فى صورة جميلة ، وعلى العكس ، فإنه إذا كا جنيًا شريرًا فإنه يظهر فى شكل دميم . والاعتقاد السائد أن لدى الجن قدرة على إحداث تأثير علوى ، إما أن يكون حسنًا ، وإما أن يكون رديئًا . وعلى الرغم من الاعتقاد بأن تلك الكائنات هى كائنات علوية ، فالمعتقد أيضًا أنها خاضعة للحياة والتناسل والموت كسائر البشر ، ولكن حياتهم أطول من حياة

(١) Encyclopaedia Britanica, Vol. 10, 1972. P. 103 .

الآدميين . أما مقرهم فهو جبل قاف ، وحكامهم ملوك يطلق على كل منهم اسم سليمان ، ويعتقد أن واحداً منهم قد تعاون مع باقى الجن فى بناء الأهرامات . وعلى الرغم من التشابه اللفظى بين الجينياس والجن فليس من المؤكد أن يكون لفظ جن مشتقا من الأصل الرومانى أو العكس .

وكان الشائع لدى الرومان القسم بجينياس الشخص الذى ينال الاحترام العميق لديهم . ومن ثم فليس عجيباً أن يشكل جينياس أوغسطس وخلفاؤه موضوعات للعبادة والتقديس الشعبيين . بيد أن عبادة جينياس أوغسطس لم تكن معارضة لعبادة أى إمبراطور حى ، وهي العبادة التى ظلت قوية نوعًا فى إيطاليا ، وذلك لأن الناس كانوا يعتبرون آنذاك أن جميع الجينياس آلهة ، وتستحق العبادة .

وبالتوسع فى معني الجينياس ، فقد صار يشار إليه بأنه الخصائص التى يتفرد بها عصر من العصور ، أو شعب من الشعوب ، أو إحدى المناطق الجغرافية .

فمثلا صار استخدام اللفظ بمعنى واسع للدلالة على روح إحدى الأمم ، كما يقول سالفادور دى مادارياجا Salvador de Madariage عندما أراد التعبير عن روح أسبانيا بقوله « جينياس أسبانيا [1] » .

وهكذا نرى أن الجينياس قد تطور في معناه لدى الرومان . ونفس الشىء حدث على أيدى اليونان ، إذ كان ينظر إلى الأرواح باعتبار أنها الملائكة الحارسة للأماكن والمبانى والمؤسسات من كافة الأنواع ، ابتداء من الدولة حتى المجموعات الصغيرة من الجنود ، أو نقابات العمال ونحو ذلك . ومن الطريف أن نذكر أن اليونان قد امتدوا بمعنى الجينياس حتى لقد اعتقدوا أن جوبيتر Jupitor الإله نفسه متلبس بجينياس ، واعتقدوا كذلك أن الآلهات لهن ملائكة حارسة (إيونوات والمفرد إيونو Iuno) [2] .

وبانتشار النزعة الفردية ، وأيضًا مع سيادة الأفكار اليونانية المتعلقة بالملاك الحارس أو الجنى الحارس ، فقد الجينياس معناه الأصلى ، وصار نوعا من تجسيد

---

(١) Encyclopedia Americana New Yorkk, 1965, Vol. 12., P. 401.

(٢) Encyclopaedia Britanica, Vol. 10, 1972, P. 103 .

الرغبات الطبيعية لدى الفرد وميوله الفطرية . وهكذا صار استخدام لفظ genius ومشتقاته يعنى الجرى وراء الهوى فى الحياة . بيد أن تطور هذا اللفظ لم يقف عند هذا الحد ، بل صار يعنى نوعا من الملاك الحارس ، أو ذاتًا عليا ، كما كان يحدث بالنسبة للروح الحارسة لدى اليونان إذ كانت تعبّر عن نفسها أحيانًا فى أخلاق الشخص أو مزاجه، وبهذه المناسبة نذكر ما ذكره هوراس Horace فى إحدى رسائله من أن الجينياس وحده هو الذى يجعل الشخص مختلفًا عن سواه ، مضيفًا إلى ذلك أن ثمة إلها أو ملاكا حارسًا يولد مع كل واحد منا ويموت معه . وهذا الملاك الحارس الفردى كان يعبد من جانب كل شخص وبخاصة فى عيد ميلاده . وثمة قليل من الوثائق تذكر شيئا عن جينياس أحد الأشخاص المتوفين ، خلافا لما يكتب أحيانا على قبور المسيحيين بصدد الملاك الحارس للشخص الميت (١) .

وتطور معنى لفظ جينياس فى العصر الحديث لكى يعبّر عن روح إلهية تسود لدى ميلاد الشخص وهى متأثرة بالاستعداد للإحساس بالموهبة . ويعنى هذا اللفظ أيضًا الروح أو الجنى الذيى يتحكم فى مصير كل شخص، وصار هذا اللفظ يعنى أيضًا الشخصية أو الظرف الذى يؤثر فى مصير شخص ما . فيقال مثلا إن حب العظمة قد خلق جينياسا رديئا عند لويس السادس عشر .

ويقال أيضًا بطريقة مجازية إن شيئًا معنويًا يسيطر على الشخص كأن يقال مثلا عبقرية (جينياس) الفنون ، وعبقرية الموسيقى ، وعبقرية الحرية ، وعبقرية الجمال . ويقال نفس الشىء بإزاء القسوة كأن يقال عبقرية سجن الباستيل (٢) .

وهنا نجد تشابها شديدًا بين التراث الغربى وبين التراث العربي فى التطور باستخدام لفظ عبقرية . وهنا نذكر ما سبق أن قلناه بالفقرة السابقة عن الظلم العبقرى ، والجمال العبقرى، وعن العبقريات المعنوية، مما ورد بلسان العرب وغيره من معاجم عربية عريقة .

---

(١) Ibid, P. 103

(٢) Larousse de XXe Siècle, Paris,1930, Tome Troisième, P. 753 .

ويستخدم اللفظ « عبقرى » فى العصر الحديث أيضًا للدلالة على الموهبة أو الاستعداد أو الذوق الفطرى لشىء ما . فيقال إن الشخص يسير وفق عبقريته . وشخص لديه عبقرية للموسيقى ، أو لديه عبقرية للشعر أو لديه عبقرية في التخطيط للمكائد ، أو لديه عبقرية فى اللعب . والعبقرية أيضًا هى القدرة على الإبداع فى نوع ما من المناشط أيا كان . فيقال رجل عبقرى وامرأة عبقرية . والعبقرية والمواهب العظيمة نادرة فى الغالب . يقول كريستيان برنار « يجب أن يحصل الشخص على مواهب كثيرة ، ولكن يكفيه قليل من العبقرية » .

وتطلق العبقرية أيضًا على القدرة الإبداعية فى الفنون الجميلة . يقول شاتوبريان: « إذا كان الشخص مفطورا على العبقرية ، فإن تذوقه هو الذى يحفظها له » . ويعرف شينى M.J. Chénies العبقرية بأنها العقل فى أعلى مراتبه . أما فيكتور هيجور فإنه يعرفها بأنها العقل الكبير ، أما لابروييرLa Bruyère فإنه يعرف العبقرية بأنها الإلهام . فالعبقرى يصدر عن عبقريته بغير إعداد . وتعرف العبقرية أيضًا بأنها أخلاق متميزة ، وبأنها طبيعة خالصة نقية .

ويقال أيضًا عبقرية أحد الأجناس أو أحد الشعوب ، وعبقرية لغتنا تتمثل فى عذوبتها وقوتها كما تتبدى فى ألفاظها . يقول فولتير: إن عبقرية لغتنا (اللغة الفرنسية) تتمثل فى رشاقة نطقها ، ويقال أيضًا إن المسيحية قد عملت على تغيير عبقرية التصوير. ويقول ستندهال Stendhal « إنى أجد عبقرية اللغة لدى الكتاب القدامى » ويقول فونتينيل Fontenelle « إن العبقريات العظيمة هى التى خلقت الرسوم الرائعة » .

ويقال أحيانًا : العبقرية المدنية، بمعنى الفنون المتعلقة بالتكوينات أو تشكيل الهيئات الشعبية مثل تشكيل جماعة المهندسين . فهؤلاء المهندسون مسئولون عن ذلك التشكيل . ويقال أحيانًا عبقرية الريف genie rural ويقصد بها النظم المتبعة فى الرى والزراعة واستخدام الكهرباء فى شتى النواحى المتعلقة بكهربة الريف [١] .

---

(١) Ibid, P. 441.

ولكن الاستخدام الشائع للفظ العبقرية - وهو الاستخدام الذى سننحو إليه فى هذا الكتاب - يعنى الموهبة الفذة ، الخارقة للعادة فى ناحية ما من نواحى الحياة.

المعني الميتافيزيقي :

يتضح مما سبق أن العبقرية ترتبط فى أذهان الكثيرين بمعان غامضة لا صلة لها بالواقع العملى من قريب أو من بعيد . وقد حدا بالناس على مر العصور إلى أن ينظروا إلى العبقرية من زاوية غيبية ميتافيزيقية . ذلك التناقض المتفشى فى حياة العباقرة بين عدم انتظامهم وفشلهم فى الدراسة وبين ما أبدعوه من عبقرية ، أو بين عدم توافقهم وتخلفهم فى إقامة علاقات سوية بينهم وبين الآخرين وبين ما يبزون فيه جميع الناس . ناهيك عما يظهر من سلوكهم فى سمات غريبة تجعل الكثيرين يتهمونهم بالجنون ، أو بإقامة علاقات بينهم وبين الجن ، أو بتمرسهم بالسحر أو بغير ذلك من أسباب لا تتصل بهم مباشرة ، بل تتصل بكائنات غريبة عنهم وبعيدة عن نطاقهم الإنسانى .

ولتناول ما يعتقد فيه الناس من وجود علاقة بين العبقرية وبين الجن واستعانة العبقرى بالسحر للوصول إلى مراميه وتحقيق أهدافه . والواقع أن علاقة العبقرية بالسحر علاقة قديمة فى تاريخ الحضارات البشرية . فلقد كان العباقرة القدامى يعتمدون بالفعل فى عبقريتهم على السحر والاتصال بالقوى الغيبية . خذ مثالا لذلك قدماء المصريين . لقد كانت هناك صلة وثيقة بين الملوك والكهنة والحكماء والأطباء وبين الدين والسحر . ويقال إن المشرعين البابليين كانوا يتلقون الشرائع عن أحد الآلهة ، وبذا فإن مخالفة أى من تلك الشرائع كان خطيئة لا تغتفر. ولعل أقدم شريعة قانونية معروفة لنا حتى اليوم هى شريعة هامورابى (ملك بابل حوالى ٢١٠٠ ق م). إن هذا الملك يؤكد أنه تلقى قوانينه من الإله ماردوك Mar-duk مباشرة[1] . ولقد ظلت العلاقة بين السحر والدين والأخلاق والسلوك

---

(١) RUSSELL, B., History of Western Philosophy; London George Allen and Uniwn , 3rd imp . 1948, P. 23

الاجتماعى فى ارتباط وثيق بالحضارات القديمة . ومن ثم فإن المشرعين والعباقرة بوجه عام كانوا يستمدون عبقريتهم وعظمتهم فى أنظار الناس من السحر ومن الاتصال بالقوى الغيبية على اختلاف مستوياتها .

وإنا لنجد فى بابل بوجه خاص أن الصلة بين العلم والسحر صلة وثيقة للغاية. لقد كان اهتمام الديانة البابلية بالأرضيات على عكس الديانة المصرية القديمة . ولذا فقد كانت تستهدف الحصول على الخيرات الأرضية وضمان الرخاء وزيادته . وكانت ذريعة البابليين الأولى لتحقيق هذا هى التمرس بالسحر والتمكن من فنونه المتباينة . أضف إلى هذا اهتمامهم بالتنبؤ عن طريق التنجيم . وكان المنجمون يحتلون فى حضارة بابل مكان الصدارة بين الحكماء. يقول برتراند رسل: إنه من بابل نزلت إلينا بعض الأشياء التى ترتبط حتى اليوم بالعلم : من ذلك مثلا تقسيم اليوم إلى أربع وعشرين ساعة ، وتقسيم الدائرة إلى٣٦٠ درجة ، وأيضًا أكتشاف دورة زمنية يسير وفقها كسوف الشمس وخسوف القمر .. مما يجعل من الممكن التنبؤ بالخسوف بصفة مؤكدة ، والتنبؤ بالكسوف بشىء من الاحتمال . ولقد نقل هذه المعرفة البابلية الفيلسوف طاليس إلى اليونان (١) .

والواقع أن العباقرة القدامى قد ارتبطوا فى أذهان الناس بالسحر أو بالدين أو بالسحر والدين معًا . خذ مثالا لذلك فيثاغورس الفيلسوف اليونانى (القرن السادس قبل الميلاد) . لقد أنشأ ببلاد اليونان جمعية من تلاميذه ، كان لها تأثير واضح لفترة من الزمن فى الفكر اليونانى . ولكن فى النهاية فإن الأهالى قاموا ضده، وتحول إلى جنوب إيطاليا حيث مات . ولكن ذكرى فيثاغورس فى أذهان الناس صارت أسطورية ، وقد نسب إليه الإتيان بالمعجزات والاستعانة بقوى سحرية خارقة ، إلى جانب كونه مؤسسًا لمدرسة تعتمد على الرياضيات بصفة أساسية .

ونفس الشىء يقال عن أمبادقليس (٤٩٥ - ٤٣٥ ق م) وهو من فلاسفة اليونان أيضًا . فلقد ارتبط اسم أمبادقليس بأساطير كثيرة . فقيل عنه إنه أتى

---

(١) I bid., P 24

بمعجزات كثيرة خطيرة ، أو ما يبدو أنه معجزات . وكان فى عبقريته يعتمد أحيانًا على السحر وأحيانًا أخرى على المعرفة العلمية . فكان بمقدوره أن يتحكم فى الرياح كما تذكر القصص عنه . وقيل عنه أيضًا إنه استطاع أن يعيد امرأة كانت قد ماتت منذ ثلاثين يومًا (أو إنه بدا أنها ماتت) إلى قيد الحياة ، وكان هدف أمبادقليس اكتشاف القوى التى تتحكم فى العالم الطبيعى ، وأن يخضعها لخدمته وخدمة أتباعه. والواقع أن شخصية إمبادقليس شبيهة بشخصية فاوست ، ولا يمكن فهمه فهما جيدا إلا بالوقوف على ما كان يسعى إليه من محاولة دائمة للربط بين رغبته الشديدة فى البحث العلمى ، وبين طموحه الشديد للارتفاع بنفسه فوق مستوى الطبيعة . فالمسألة بالنسبة إليه لم تكن مجرد الوقوف على ما فى الطبيعة من حقائق . بل التحكم أيضًا فيها ، فهو يشبه إلى حد بعيد صانعى المعجزات والسحرة، من حيث إن كثيرًا من الأعمال الباهرة التى تعلو مستوى القدرة البشرية تعزى إليه ، ولقد شهد بذلك تلميذه جورجياس الذى عاين سحره بنفسه . يقال إنه مات بأن زحف داخلا فى فوهة بركان إتنا ليبرهن على أنه من الآلهة التى لا تموت بالنار [١] .

والواقع أن المحاولات العلمية لربط العبقرية بأسباب مباشرة تتعلق بالشخص نفسه كالوراثة أو التربية، إنما هى محاولات حديثة حداثة العلم الطبيعى نفسه الذى يؤرخ له برتراند رسل كعامل مؤثر فى حياة الناس منذ عهد جاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) [٢] . ولكن الشخصيات العبقرية قبل ذلك كانت تعتمد فى عبقريتها على عاملين أساسيين : الدين والسحر أو على أحدهما . ولعلنا نذكر بهذه المناسبة قصة موسى وهارون والسحرة المصريين . إن عبقرية موسى وهارون كانت تعتمد أساسا على الدين ، أما عبقرية السحرة فكانت تعتمد على السحر [٣] . ويعتقد رسل بأن هناك فترة مرت بحياة اليونان لم يكونوا خلالها متأثرين بالغيبيات ، وذلك قبل اتصالهم بالبابليين والكلدانيين . ولكن بعد أن تم الاتصال بهم ، فإنهم أثروا إلى حد

(١) EDUARD ZELLER; Outline of History of Greek philosophy Kegan Paul, London, 1931, p. 54 - 55 .

(٢) RUSSELL, B., The Scientific Outlookk London, George Allen Unwin, 2 nd imp.,1934, P . 22 .

(٣) انظر : سفر الخروج من الكتاب المقدس أصحاح ٤، وسورة الأعراف بالقرآن الكريم .

بعيد فى خيالهم ، وصار عباقرة اليونان يرتبطون فى أذهان العامة بالقوى الغيبية، ومن ثم فإن تفسير العبقرية ، كان مرتبطا فى وجدانهم وفكرهم بالدين والسحر ، ولم يعزوا العبقرية إلى جبلة العبقرى نفسه ، بل كانوا يعزونها إلى قوى خارقة خارجة عن نطاقه ، بل وخارجة عن قدراته البشرية المحدودة .

ومن المعتقدات السائدة أيضًا ، والتى ظلت تعتمل فى عقول الناس عبر العصور هو أن العبقرى شخص مجنون . إنه ليس كالأشخاص العاديين . إنه مخلوق غريب عن باقى المخلوقات وعن سائر الأقران . والجنون فى أذهان الناس حالة غريبة أو شاذة أيا كان هذا الشذوذ . والشذوذ أو الجنون قد يكون مرتبطا فى أحيان أخرى - وهى حالات نادرة - بالتفوق الشديد . ولقد عرف الناس بعض العباقرة أطلقوا عليهم اسم البلهاء الحكماء Idiots- Savants من ذلك مثلا ما ذكر عن أحد البلهاء أنه كان يجيد العزف على الناى ، لدرجة أنه عقد رهانا مع بعض المتندرين عليه أن يمنعوا مجموعة من الإبل من شرب الماء ثلاثة أيام متتالية ، ثم يقدموا إليها الماء فتفضل الاستماع إلى عزفه على إرواء ظمئها . وبالفعل كسب الرهان وفضلت الإبل الاستماع إلى الناى على شرب الماء المقدم إليها بعد ذلك الظمأ الطويل .

ولكن دهشة الناس وربطهم بين العبقرية والجنون أو الخروج على المألوف لا تكون دائمًا مرتبطة بالإحساس بالتهكم أو الاحتقار أو التفكه ، بل إنها قد ترتبط بالتعظيم والإكبار . من ذلك مثلا ما وقع لسقراط (٤٧٠ - ٣٩٩ ق م) ففى ذات صباح كان سقراط منهمكا فى تفكير عميق حول أمر ما : وكان من عادة سقراط أنه إذا ما انخرط فى التفكير ينصرف تماما بكل شعوره إلى الموضوع الذى يفكر فيه بغير أن يأتى بحركة وبغير أن يكون بمستطاعه أن يسمع أو أن يحس بما يجرى حوله. وفى أحد الأيام كانت المسألة التي يفكر فيها مستعصية عليه ، وكلما زاد أستعصاؤه على فكره زاد إمعانه في التفكير واشتد ، واستمر مستغرقا فى التفكير منذ صباح ذلك اليوم حتى الظهيرة . وكان واقفا فى صمت وسكون وكأنه تمثال منحوت مستغرقا فى تفكيره ، وعند الظهر استرعى طول وقوفه أنظار العامة إليه وانتشر خبره إلى سائر الأنحاء ، وذاع بين الأهالى فما فتئوا يتجمعون حوله عندما علموا أنه ما يزال واقفا يفكر فى شىء ما منذ صباح ذلك اليوم . وأخيرا تجمع بعض الأيونيين فى المساء بعد العشاء - وكان الوقت صيفا - وقد حملوا معهم

حصرهم ، ورقدوا عليها فى العراء حتى يتسنى لهم ملاحظة ما يقوم به سقراط من تأمل ، ويروا ما إذا كان سيظل واقفا هكذا طوال الليل . وبالفعل ظل سقراط على هذا الحال حتى صبيحة اليوم التالى ، وبعودة النور قام بتقديم صلاة إلى الشمس وانصرف إلى طريقه [1] .

والواقع أن ما كان يهم العامة من أمر سقراط هو ما كان يجذب انتباههم وما كان يدهشهم فى سلوكه ، وليس سبرا لأغوار فكره والوقوف على أعماق فلسفته . إنهم كانوا يهتمون بالقشرة الخارجية من العبقرية وليس ذاتها ، ومن ثم فإن الدهشة كانت تأخذ بهم كل مأخذ ، كما كانوا يعزون العبقرية إلى ذلك السلوك الشاذ ، حتى لقد كان يقلده بعضهم كأن فى ذلك التقليد وصولا إلى العبقرية .

ولم يقتصر أمر تأمل الناس للعباقرة عند حد الدهشة ، بل تعدى ذلك إلى تفسير عبقرية العباقرة . فذهب البعض منهم إلى التفسير بالجن ، بينما ذهب البعض الآخر إلى التفسير بالجنون ، والبعض الثالث إلى التفسير بجولان الروح إلى جهات بعيدة عن الجسم، فثمة اعتقاد ما يزال سائدا فى بعض الأوساط يذهب إلى أن الروح يمكن أن تفارق الجسم فى بعض الأحيان لمدة من الزمن تقصر أو تطول، بحيث يتسنى لها أن تتصل بالعالم العلوى وتقف على أسرار الحكمة التى لا تتسنى للباقين من الناس وهم فى نطاق أجسادهم، ويعتقد بعض الناس أيضًا أن من الممكن أن يحدث هذا بالنسبة لبعض الناس من أمثال سقراط فى تأملهم اللدنى العميق . ففى مثل تلك الحالات يكون الشخص حيا ، وهو ليس بحى إلا بجسمه . أما روحه فإنها تكون سابحة فى آفاق عليا بعيدة عن آفاق المحسوسات المادية .

والواقع أن تصور العبقرى فى ضوء جولان الروح إلى عوالم أخرى غير عالم المحسوسات يذكرنا بما يقول به الدينيون المسيحيون والإسلاميون وغيرهم من إمكان اتصال الروح فى حالات اليقظة والمنام بعالم فوقانى بعيد لم يكن ليتسنى لها الاتصال به لولا الزهد والتدرب على الصعود على معارج القدسيات . وبهذه المناسبة نذكر ما ذهب إليه السهروردى من أنه « إذا كان العالم فى جملته قد برز من إشراق الله وفيضه ، فالنفس تصل كذلك إلى بهجتها بواسطة الفيض والإشراق . فإذا ما

(١) RUSSELL, B, History of Western Philosophy, London, George Allen and Unwin , 3rd imp., 1948, P. 109 110

تجردنا عن الملذات الجسمية تجلى علينا نور إلهى لا ينقطع مدده عنا . وهذا النور صادر عن كائن منزلته منا كمنزلة الأب والسيد الأعظم للنوع الإنسانى ، وهو الواهب لجميع الصور ومصدر النفوس على اختلافها ... ومتى ارتبطنا به أدركنا المعلومات المختلفة ، واتصلت أرواحنا بالنفوس السماوية التى تعيننا على كشف الغيب فى حالة اليقظة والنوم . » ويقول السهروردى أيضًا « فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية وضعف سلطان القوى البدنية بتقليل الطعام وتكثير السهر ، تتخلص أحيانا إلى عالم القدس ، وتتصل بأبيها المقدس وتتلقى منه المعارف ، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها ، وتتلقى منها المغيبات فى نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابلة ذى نقش » [1] .

ولعل الأحلام هى الأخرى درجة من درجات العبقرية الروحية - إن صح التعبير - ففرعون فى حلمه الشهير الذى حار فى تفسيره المنجمون ، ولم يهتد إلى تفسيره إلا يوسف ، شاهد على أن الإنسان فى الحلم يستطيع أحيانا أن يتصل بعالم الحقيقة ولو بطريقة رمزية غير مباشرة . وفى هذه الرؤيا أو الحلم كان فرعون من الملهمين والقادرين على سبر أغوار ما بعد الحاضر [2] .

ولا يجد البعض فارقًا بين العبقرية فى إلهامها بتأملاتها وأحلامها وبين المتصوفة أو الزهاد أو غيرهم من أصحاب القوى الروحية الخارقة للعادة ، وهم أولئك الذين يسبحون بأرواحهم وبأعماق عقولهم إلى أغوار الحقائق اللدنية .

وترتبط العبقرية كذلك فى أذهان بعض الناس بتعاطى المخدرات أو بإدمان الخمر، إنك لتسمع من وقت لآخر ، أن بعض العباقرة الموسقيين والمغنين لا يبدأون فى التلحين أو الغناء إلا بعد أن يتعاطوا بعض المخدرات أو بعد شرب كمية كبيرة من من الخمر . وفى بلاد اليونان كانت هناك فرقة دينية تسمى بالنحلة الأورفية ، كان

---

(١) فى الفلسفة الإسلامية - الدكتور إبراهيم مدكور، دار احياء الكتب العربية - عيسى الحلبى - ١٩٤٧ - ٦ - ٦١ .

(٢) انظر : سفر التكوين من العهد القديم إصحاح ٤١ وسورة يوسف بالقرآن الكريم ٤٢ .....

أفرادها يتناولون كميات كبيرة من النبيذ حتى ينتشوا ويتسنى لهم بذلك الاتحاد بالإله . وكانوا يعتقدون أنهم بهذه الطريقة يستطيعون معرفة لدنية لا يتسنى الحصول عليها بالوسائل العادية [1] .

وترتبط العبقرية أيضا فى أذهان الكثيرين بالخروج على المألوف من السلوك وتحطيم جميع القيم التى تنادى الأديان بالحفاظ عليها ومراعاتها فى السلوك . ولقد نرى بعضا من شبابنا وقد سيطرت هذه الفكرة على أذهانهم فظنوا أنهم إذا ما ضربوا بالقيم الدينية والاجتماعية والأخلاقية عرض الحائط ، فإنهم سيصلون إلى العبقرية من أقرب الطرق . وإذا أنت ناقشتهم فيما يذهبون إليه ، فإنهم سرعان ما يقدمون إليك نموذجا سلوكيا بعد آخر من حياة المشاهير الفلاسفة والموسيقيين والروائيين تدل على ما كان فى حياتهم من اعوجاج وما فى سلوكهم من خروج على المألوف . وهيهات أن يؤثر كلامك فى عقولهم بمحاولتك إقناعهم بأن العبقرية لا تكتسب بالخروج على المألوف ، وأن الجنون أو التسفل أو الانحطاط ليس عبقرية ، حتى وإن شاب سلوك بعض العباقرة .

وفى جميع ما يذهب إليه العامة من حديث عن العبقرية ، فإنهم يتجهون إلى الغموض الميتافيزيقى يستلهمونه التفسير ، وإلى اعتبار العبقرية عرضا كأى عرض يصيب بعض الناس دون غيرهم لأسباب خارجة عن نطاق شخصياتهم .

المعني السيكولوجي :

حاول علماء النفس فى العصر الحديث إماطة اللثام عن المعنى الموضوعى العلمى للعبقرية ، وقد استبعدوا المعانى الميتافيزيقية عن نطاق تفسيرهم مكتفين بالوقوف على الأسباب المباشرة التى يمكن كشفها خلف ظاهرة العبقرية . وإنا لنجد اليوم معنيين أساسيين للفظ العبقرية فى مجال علم النفس : المعنى الأول – هو المعن» الذى إذاعه لويس ترمان ، (العقدان الأول والثانى من هذا القرن) والثانى – هو المعنى الذى أذاعه فرانسيس جولتون (١٨٢٢ – ١٩١١) .

---

(١) RUSSELL, B., history of Western Philosophy; London, George allen and Unwin, 3 rd imp, 1948, P. 37 .

والمعنى الأول يشير إلى قدرة ذهنية عليا يمكن الوقوف عليها فى ضوء أداء اختبار ذكاء مقنن . أما معدل الذكاء الذى يشير إلى العبقرية فإنه يتباين من عالم نفس لآخر . ولقد حدد ترمان معدل ذكاء قدره ١٤٠ فما فوق للشخص الذى يمكن أن يكون عبقريا وهو مستوى يصل إليه حوالى شخص واحد من كل ٢٥٠ شخصًا من مجموع الناس. ولكن هذا لم يقنع بعض العلماء لكى يكون مقياسًا حاسما للعبقرية ، فاقترح هولنجورث بأن يكون المعدل المفروض للعبقرية هو ١٨٠ فما فوق ، وهو مستوى لا يكاد يصل إليه أكثر من ستة أشخاص من مليون شخص من مجموع السكان، ولكن هذا بدا لبعض علماء النفس مقياسا متشددا أكثر من اللازم لافتراض وجود العبقرية .

وعلى أية حال فإن مفهوم العبقرية هنا يعنى ببساطة القدرة العقلية العليا ، ويشير إلى مجرد الافتراض لإمكان تحقيق العبقرية وليس الوصول إلى العبقرية نفسها عمليا . وبهذا المعنى فإن العبقرية قد تستخدم للإشارة إلى الأطفال الذين لم يحصلوا بعد على فرصة لإحراز تفوق فى الأداء بحياتهم العملية . بيد أن الاستخدام الشائع للإشارة إلى الأطفال المتفوقين عقليا هو لفظ « الأطفال الموهوبون gifted » وليس الأطفال العباقرة . ويميز عادة بين مستويين من الأطفال الموهوبين : المستوى الأول، والأرقى ويضم ١٪ من أعلى مستوى عقلى من مجموع الأطفال ، والمستوى الثانى والأقل رقيا ويضم ١٠٪ من باقى الأطفال (١) .

ولعلنا بهذه المناسبة نلقى بعض الضوء على المعنى المقصود حاليا لدى استخدام لفظ « ذكاء » حتى لا يلتبس الأمر فى الأذهان . ذلك أن هذا لفظ قد حدد بمعان متباينة وما يزال بعض الكتاب على اختلاف بإزاء استخدامه. فاستخدم أصلا بمعنى مرادف لمعنى « عقل » Intellect ، وقد عرف بأنه « الملكة أو القدرة على المعرفة » . أما المفاهيم الحالية المتعلقة بالذكاء فإنها أوسع من هذا التعريف بكثير ، فهى تنصب بصفة خاصة على السلوك التكيفى للإنسان ، ولعلها فى بعض الأحيان تدور حول ما يعرف باسم العوامل غير الذهنية للذكاء . والواقع أن معظم التعريفات التي قدمت للذكاء تؤكد وجود قدرات معينة يجب أن تكون أساسية للذكاء

(١) Encyclopaedia Britanica, Vol. 10, 1972, P. 103 .

العام . وأكثر تلك القدرات الواجب توافرها فى الذكاء العام هى : القدرة على التعلم، والقدرة على استنباط العلاقات (القدرة العقلية المجردة) ، والقدرة على الإفادة من الخبرة . وثمة قدرة رابعة تضاف غالبًا هى القدرة على تصور المشكلات والعمل على حلها . بيد أنه يلاحظ أنه فى اختبارات الذكاء تكون ثمة حاجة إلى الاستعانة بغير ذلك من قدرات . والرأى الشائع عن الذكاء أنه يتضمن أكثر من مجرد القدرة على التعلم والقدرة على التكيف والقدرة على الاستنتاج وحل المشكلات، ذلك أنه يتطلب وجود تشكيلة من القدرات التى تمكّن الشخص بطريقة أو بأخرى من مجابهة الموقف بفاعلية .

ولقد حاول علماء النفس العمل على تحديد القدرات التى تدخل فى الذكاء بشىء من التخصص ، لشرح الطرائق المختلفة التى يظهر الذكاء بواسطتها، وذلك باستخدامهم لطريقة معينة تعرف باسم تحليل العوامل Factor analysis وهى طريقة إحصائية تستخدم لدراسة العلاقات المتبادلة الموجودة بين نتائج الاختبار .

ولكى يتضح موقف العباقرة من حيث الذكاء بالنسبة لباقى أترابهم من الناس، نستعرض فيما يلى توزيع الأفراد إلى فئات فى ضوء مستوى الذكاء ، والنسبة المئوية التى تحتلها كل فئة بالنسبة لمجموع السكان [1] :

التصنيف	معدل الذكاء	النسبة المئوية
١- موهوبون للغاية	١٤٠ فاكثر	١
٢- موهوبون	١٢٠ - ١٣٩	٢.٥
٣- أعلى من المتوسط	١٠٠- ١١٩	١٦
٤- متوسطون	٨٥ - ٩٩	٤٥
٥- أقل من المتوسط	٨٠ - ٨٤	١٦
٦- مجموعة بين بين	٧٠ - ٧٩	٨
٧- متأخرون عقليا	٦٠ - ٦٩ ٥٩ فأقل	١

(١) Encyclopedia International, New York, 1970, P.9.

أما المعنى الذى أذاعه فرانسيس جولتون ، وهو المعنى الأكثر شيوعا ، فإنه يعنى أن العبقرية هى وجود قدرة إبداعية ذات مستوى عال بشكل غير مألوف عما هو ممارس فى المنجزات المعتادة اليومية . وبهذا المعنى فإن الموهوبين ليسوا مجرد أشخاص حصلوا على ذكاء مرتفع ، بل هم أولئك الأشخاص الذين يحرزون تفوقا فى ممارسة ما أو أكثر. وعلى الرغم من أن التفوق وحده لا يكون مقياسا سليما للعبقرية، فإنه يعتقد أنه أفضل طريقة ممكنة للوقوف عليها ، مع الاعتراف بأن مثل ذلك التفوق ليس مجرد تفوق عابر أو أنه نتيجة لحالة اجتماعية معينة كوراثة عرش بالنسبة للملوك . فالتفوق لكى يكون علامة للعبقرية يجب أن يكون حصول الشخص عليه من خلال إحرازه له شخصيا وإتيانه بأعمال خارقة للمعتاد .

والواقع أن العبقرية تتميز عن الموهبة من الناحيتين الكمية والكيفية . فالموهبة تشير إلى استعداد فطرى بالنسبة لنوع معين من العمل . وهى تتطلب الاكتساب السريع والسهل نسبيا لإحدى المهارات . أما العبقرية فإنها أكثر من هذا . إنها تتضمن الأصالة والقدرة على الإبداع والقدرة على التفكير والعمل فى مجالات لم يسبق لأحد سبر اغوارها. وبذا فإن العبقرى يقدم إلى العالم شيئا ذا قيمة فائقة لم يكن له أن يحصل عليه بدونه .

وعلى الرغم من أن العباقرة يتركون بصمتهم الفريدة غالبا فى مضمار معين من مضامير الحياة ، وعلى الرغم من أن بعض الدارسين للعبقرية يضعون فى نطاق العبقرية أشخاصا عباقرة لديهم استعدادات خاصة بعيدة عن مفهوم الذكاء العام ، فإن الدراسات التى أمكن الحصول عليها حول المراحل الأولى من نمو أولئك الأشخاص تؤكد أن ذكاءهم العام كان عاليا بدرجة واضحة . وبذا نستطيع القول بأن المعنيين اللذين يستخدم فيهما لفظ « عبقرى » يلتقيان فى نقطة واحدة ، وأنهما يشكلان وجهى عملة واحدة [١] .

والواقع أن جولتون يعتبر من أهم الدارسين للعبقرية ، وقد كان أول كتاب جذب الانتباه إليه هو كتاب « العبقرية الموروثة « Hereditary genius الذى نشر عام ١٨٦٩، أى بعد صدور كتاب « أصل الأنواع » لداروين . وفي كتاب « العبقرية الموروثة

(١) Encyclopaedia Britanica, Vol.10,1972, P.103.

» استخدم جولتون مفاهيم إحصائية بإزاء مشكلات الوراثة . وحاول أن يصنف مشاهير الرجال فى فئات تبعاً للنسبة المئوية التي يحتلونها فى حجم معين من السكان فتوصل إلى درجة « F » وهي الدرجة التى يصل إليها شخص واحد فى نطاق ٤٣٠٠ شخص والدرجة « G » وهى الدرجة التى يحصل عليها شخص واحد فى نطاق ٧٩٠٠٠ شخص وهكذا حتى يصل إلى درجة « X» التى لا يصل إليها إلا شخص واحد من بين مليون شخص . ولقد حاول أن يظهر أن العبقرية وراثية ، وأنها تجرى فى دماء أسر معينة ، وهى مسألة يكاد ينظر إليها على أنها صحيحة بالرغم من وجود اعتراضات على ذلك من جانب بعض الدارسين . والواقع أن جولتون نفسه قد ورث العبقرية عن أسرته التى تضم فى سلسلة نسبها مجموعة من الشخصيات المتفوقة فى العلم والطب والقانون وغير ذلك . ولكن من الصعب فى الواقع وضع النقط على الحروف بالنسبة لهذه المسألة . فليس من السهل تحديد ما يعزى إلى الوراثة وتحديد ما يعزى إلى البيئة والتربية، وأكثر من هذا فإن المشكلة زادت تعقيدا بعد أن حاول سبيرمان ومدرسته تقسيم القدرة البشرية إلى عوامل [1] .

ولقد تقدم جولتون فى دراسته للعبقرية من الفرد الواحد إلى أسرته إلى السلالة ، وأخيرًا وضع لفظًا جديدًا لعلم جديد هو Eugenies قصد به تحسين النسل. وبمقتضى هذا العلم الجديد الذى نادى به جولتون يكون من الضروري وضع برنامج لتشجيع الزيجات بين الشخصيات اللامعة من الرجال والنساء ، وبالتالى - أو كنتيجة حتمية لذلك - منع الأغبياء والمرضى من الإنجاب . وعلى الرغم من أن آراء جولتون تقوم أساسا على اعتبارات إنسانية وتنبثق من بحث علمى، فإن الخلاصات التي انتهت إليها لم تكن مختلفة جذريا عن تلك الخلاصات التى انتهى إليها فريدريك نيتشه Nietzschc Frederich (١٨٤٤ - ١٩٠٠) الذي أدخل مفهوم « السوبرمان ». فكلاهما وافق علي أن العبقرية إنما تتحدد بالوراثة، وأن الفرص التى تتيحها البيئة ليس لها أثر فى خلق العبقرية بل فى تشجيع ظهورها ، وهنا ينبغى أن نشير أيضا إلى موقف ترمان من الأطفال الموهوبين (عباقرة المستقبل) ودعوته بأن يعطوا أحسن الفرص للتقدم بعبقريتهم الكامنة [2] .

---

(١) FLUGEL . J.C., A Hundred Years of Psychology, Duckworth, 1948, P. 12

(٢) Encyclopedia Americana, New York, Vol. 12, 1965, P. 401 .

وثمة محاولات كثيرة بذلت لتفسير طبيعة ومصدر العبقرية خلافا لما ذكرنا . منها ما يذهب إلى أن العبقرى إنما ينتمى إلى نوع سيكوبيولوجى معين مباين للنوع البشرى ، وهو يختلف اختلافا جذريا عن الشخص العادى فى عملياته العقلية والانفعالية . تماما كما يختلف بنو الإنسان عن القردة . وثمة نظرية أخرى تنظر إلى العبقرية باعتبار أنها ترتبط ارتباطا وثيقا بالمرض العصابى والمرض العقلى. ولعل سيزار لومبروزو (١٨٣٦ - ١٩٠٩) هو أكثر الدارسين تأييدا لهذه الفكرة . وعلى الرغم من أن نظرية التحليل النفسى الحديثة تعتقد أيضا أن العبقرى شأنه شأن العصابى والمريض العقلى من حيث إن ما يصدر عنه يتمثل فى الصراع الأساسى فيما بين الذات والبيئة ، فإن هذه الصراعات تجد لها حلا لدى العبقري بطريقة تجعل الأعراض والنتائج مفيدة اجتماعيا وتلقى تقديرا من الناس [١] .

يقول فرويد زعيم التحليل النفسى . « إن الفنان شخص ينصرف عن الواقع ويطلق العنان لتهويماته (التهويم هو النعاس الخفيف) التي تنسج حول رغباته الشبقية . والشىء الذى لا شك فيه هو أن السعداء فعلا لا يعرفون التهويم ، إنما يعرفه الأشقياء فحسب. وقد ألقى فرويد أحاديث كثيرة حول الصراع اللاشعورى واندفاعه إلى الظهور فى الأعمال الفنية عن طريق التسامى . ولا يختلف موقف يونج عن موقف فرويد إلا فى التفاصيل بإزاء هذه المسألة .

وهذا التشابه بين موقف العبقرى وموقف المجنون هو الذى أغرى كرتشمر بالخلط بين العباقرة والفصاميين (أو بالدقة أشباه الفصاميين Schizoids) كما أغرى جيته بأن يقول إن الأسوياء يحيون مراهقتهم مرة فى العمر ، أما العبقرى فيحيا فى مراهقة دائمة . والرأى عند براون أن وسيلتنا الفذة للتفرقة بين العبقرى والذهانى هى فى الرجوع إلى الواقع العملى . والظاهر أن هذا الرأى يلقى موافقة لدى الدكتور يوسف مراد [٢] .

---

(١) Ibid., P. 401

(٢) العبقرية فى الفن - الدكتور مصطفى سويف ص ١١٨، ١٢١.

انظر أيضا كتاب « شفاء النفس» للدكتور يوسف مراد .

والواقع أن البحوث حول العباقرة تؤكد أن العبقرى يكون أقل عرضة نوعًا للإصابة بالاضطرابات العقلية وللضعف الجسمى وللتشوهات الخلّقية من الناس العاديين بوجه عام . وأكثر من هذا فإن الأطفال الذين يبدون ذكاء مرتفعا بوجه عام بحيث يمكن تصنيفهم كموهوبين أو كعباقرة المستقبل يكونون متفوقين فى العموم عن الأطفال الآخرين من حيث البنية والصحة ، ومن حيث التوافق الانفعالى والاجتماعى .

ويعتقد أن العباقرة يبزون فى العادة غيرهم من الأشخاص فى قدرتهم على الانتباه المركز والمستمر . ويخشى أن تكون هذه القوة الذهنية من النوع السلمي . فأفكارهم تتوهج ، وكل موضوع يتطرقون إليه يتشعب إلى غير نهاية أمام عقولهم الخصبة ، وبذا فإنهم يأخذون فى الشرود الذهنى لساعات منصرفين عما وعمن حولهم من أشخاص وأشياء . بيد أن عبقريتهم هى التى تحملهم على الانتباه ، لا أن انتباههم هو الذى يجعل منهم عباقرة . وعندما نتعمق الموضوع فإننا نرى أن العباقرة يختلفون عن الأشخاص العاديين اختلافا قليلا فيما يتعلق بطبيعة الموضوعات التى يعرضون لها . ولكن بالنسبة للعبقرى فإن تلك الموضوعات تشكل سلسلات متلاحقة متصلة ، بحيث يستدعى بعضها بعضًا بقانون عقلى معين . والفرق بين العبقرى والشخص العادى هو أن تلك السلسلة الفكرية تكون لدى الشخص العادى غير متسقة نسبيا ، ولا يكون للموضوعات رباط عقلى يشد أزرها ، ومن ثم فإن الشخص العادى يكون مشتتا نسبيا وغير متماسك .

المعني الفسيولوجي :

لا يمكن تصور إنسان وتقويم سلوكه بغير أن نأخذ فى اعتبارنا ما لديه من إمكانيات جسمية ، وما يمتاز به من خصائص تتعلق بتكوينه الجسمي، أو ما يتخلف فيه بسبب ضعف ما أصابه من ناحية جسمية أو أكثر ، أو بسبب عاهة معينة تكون قد ألمت به . ولا يخفى على أحد ما للجسم من أهمية فى تكوين الشخصية وفى تحديد ملامحها .

وكما أننا نستطيع في بعض الأحيان تمييز ضعاف العقل من الأسوياء بمجرد ملاحظتنا لهيئتهم الجسمية الخارجية ، أو بملاحظة شكل الرأس ، فإننا فى أحيان أخرى نستطيع أن نميز النابهين أو العباقرة بمجرد مشاهدتهم فنلمح الذكاء والنباهة المرتسمين على محياهم ، ونقول إن سيماهم على وجوههم . نعم إن الاعتماد على مجرد النظر إلى ظاهرية الجسم لا يعد حكما دقيقا يعتمد عليه ،

ولكنه حكم يصدق فى كثير من الأحيان ، وهو أداة لا غنى لنا عن الاستعانة بها فى تعاملنا مع الناس .

ولقد حاول كرتشمر وشلدون ومن قبلهما أصحاب علم الفراسة تحديد العلاقة بين الشكل الخارجى للجسم وبخاصة الجمجمة وبين السمات العقلية ، ولكن ما تم التوصل إليه فى هذا المضمار غير راسخ الأركان ، ولعل لومبروزو يعد من أواخر من حاولوا تحديد سمات الشخصية وبخاصة العباقرة - كما ذكرنا - استنادا إلى معايير خارجية تتصل بشكل الجسم ونسب أعضائه .

وتفسير العبقرية فى ضوء السمات الجسمية يعتمد أساسا على تصور مادى للإنسان . فالذين يلحون على تحديد سمات الشخصية فى ضوء الملامح الجسمية ونسب الأعضاء إنما يعتمدون على فكرة أساسية هى أن الوظائف العقلية والنفسية إنما تنبثق عن المناشط الجسمية فكما أن النار تعتبر صورة من صور الخشب التى يتلبس بها - مع أنها ليست فى جوهرها أو من حيث خصائصها خشبا - كذلك فإن الوظائف العقلية والنفسية تنبثق من الكائن الحى البيولوجى مع أنها لم تعد جسما أو شيئا من الجسم . والوظائف العقلية والنفسية فى هذا تشبه الدم بالنسبة للطعام.فالدم وإن كان صورة من صور الطعام الذى يتقبله الجسم ، فهو ليس من الطعام فى شىء ، بل هو كيان جديد مختلف تماما عن الطعام المنبثق عنه .

وكثيرا ما يستند البعض إلى ما يلاحظونه فى حياة العباقرة من ضعف جسمى لكى يستدلوا من ذلك على أن العبقرية شىء آخر غير قوة الجسم ، بل قد يستدلون من ذلك على أن ضعف البنية واضمحلال الجسم والابتلاء بالمرض تعد شروطا مسبقة وضرورة للعبقرية . والواقع أن الجسم ليس شيئا واحدا بل هو أشياء كثيرة وجوانب متعددة. وليس معنى أن يكون الشخص مبتلى فى ناحية ما من جسمه، أن سائر جسمه يكون سقيما . وإنك لتشاهد أحد أبطال العالم فى حمل الأثقال ، وقد وهب عضلات نامية ومتينة كالفولاذ . ولديه قوة جبارة تجعل منه طودا شامخا، وإذا بك تسمع أن ذلك الرياع قد سقط فجأة ميتا بسبب خلل فاجأ قلبه . فنفس ذلك الإنسان المتربع على عرش العضلات المفتولة إنسان سقيم ضعيف ، مما جعله يخر ميتا ولا يجد من عضلاته المفتولة القوية معينا يحميه من وهن قلبه المسكين الذابل .

ولقد تجد شخصية مثل الفيلسوف وليم جيمس كان يؤلف أهم كتبه فى

سريره بسبب الوهن الذى أصابه . فهل نستطيع القول بأن جيمس كان سقيما فى جميع أنحاء جسمه ؟ الواقع أن الضعف الذى أصاب جيمس كان يقابله فى نفس الوقت قوة ضخمة وصلابة لا تفل فى جهازه العصبى . فلابد أن مخه كان سليما تماما . ونفس الشيء بالنسبة لديكارت الذى مات بالالتهاب الرئوى . لابد أن مخ ديكارت كان سليما متينا بالرغم مما أصاب رئتيه من مرض . ونستطيع أكثر من هذا أن نقول إن الفيلسوف نيتشه كان صاحب مخ سليم طوال حياته كفيلسوف ، ولكننا لا نستطيع أن ندافع عن صحة مخه بعد أن أصيب بالجنون، وطوال فترة عمره الباقية بعد إصابته بالجنون حتى موته عام ١٩٠٠ وكان قد نقل إلى مستشفى الأمراض العقلية عام ١٨٨٩ .

ومعنى هذا أن الصحة نسبية ، أعنى بالنسبة للعضو المطلوب للعمل لإظهار عبقرية العبقرى . خذ مثالا لذلك أسامة فارس شيزار ، أعنى أسامة بن منقذ . لقد كانت لديه عبقريتان : عبقرية الفروسية والقتال ، وعبقرية الشعر . وطبيعى أنه بعد أن عمر وبلغ ستا وتسعين سنة ، وهن جسمه وضعف ، ففقد عبقرية الفروسية والحرب ، ولجأ إلى عبقريته الثانية يشد أزرها أو تشد أزره منشدًا :

أصبح كفى مالكا للعصا	من بعد حمل الأسمر الذابل
أمشى بضعف وانحناء على	عصاى مشى الصائد الخاتل
كأننى لم أمش يوم الوغى	إلى نزال البطل الباسل [1]

والواقع أن أصحاب تفسير العبقرية فى ضوء ما بالجسم من استعدادات وإمكانيات هم أكثر الناس تحمسا للقول بالوراثة . ولا نشك أن أشد المتحمسين للوراثة ممن درسوا العبقرية هو جولتون . والوراثة فى أساسها وجوهرها وراثة بيولوجية وليست وراثة سلوكية . فعلماء الوراثة يؤكدون أن السلوك نفسه لا يورث ، والشيء الذى يمكن توريثه هو تلك الإمكانيات الفطرية المتمثلة فى الجينات (الإرثات) التى توجد فوق الكروموزمات بنواة الخلية . فالعبقرية استعداد مفطور لدى العبقرى ، ولكنه استعداد ملح لكى يظهر . فإذا كانت الإرثات قوية للغاية كما هو الحال لدى العبقرى ، فإنها تتحين الفرصة للظهور والتفتق من مكنوناتها . من

---

(١) فيض الخاطر – الجزء الرابع – أحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية – ١٩٥٦ ص ١٤٦ .

هنا فإن جولتون ومن يشايعه يؤكدون أن العبقرية تفرض نفسها على العبقرى مادامت تجد الأرض الخصبة لاستنباتها .

وقد يقول قائل : ولكن بعض العباقرة لم يجدوا التشجيع الكافى من المسئولين عن تربيتهم ، بل على العكس وجدوا مقاومة وامتهانا منهم، ولكنهم مع ذلك أثبتوا للعالم أنهم أقوى من الصعوبات التى تعوق مسارهم . إذن - هكذا يستنتجون - ليست العبقرية بحاجة إلى بيئة مناسبة تحتك بها . والواقع غير هذا على طول الخط . فلقد تكون المقاومة هى الأداة المناسبة للبعض على إظهار ما لديهم من إمكانيات . وبالنسبة للبعض الآخر قد يكون التشجيع هو المحرك لهم على إبراز استعداداتهم . فمن العباقرة من يجدون فى الصعوبات والعقبات فرصا مناسبة للتحدى وإعمال الذكاء ، فيسبرون أغوار حقائق لم يسبقهم إليها أحد . من ذلك مثلا إديسون الذى حكم أساتذته لدى التحاقه بالمدرسة أنه غبى لا يصلح فأثبت لنفسه ولهم وللعالم عكس ما زعموا ، وكذلك بيتهوفن الذى ألف أخلد سيمفونياته بعد أن أصيب بالصمم، وأدلر الذى عالج موضوع العاهات والعبقرية وكان هو نفسه قد أصيب فى طفولته بشلل الأطفال .

والواقع أن الإصابة بضعف أو بخلل أو بعاهة فى ناحية من النواحى الجسمية قد تكون فى كثير من الحالات سببا فى إلحاح المرء على إبراز كل ما لديه من إمكانيات عقلية أو ما لديه من استعدادات ومواهب كامنة . خذ مثالا لذلك أستاذنا العبقرى طه حسين . لقد جعل من إصابته فى طفولته بالعمى نقطة بداية نحو التقدم في عالم الأدب حتى بز أقرانه جميعا وصار عميد الأدب العربى عن جدارة . وانظر أيضا إلى حياة هيلين كيللر وكيف أنها جعلت من إصابتها بالعمى والصمم معا نقطة انطلاق جعلت منها عبقرية عالمية يضرب بها المثل حتى للمبصرين وأصحاب السمع السليم .

يقول وليم جيمس « الواقع أن العبقرية لا تكاد تعنى أكثر من ملكة الإدراك ولكن بطريقة غير الطريقة العادية التى يألفها الناس »[1] ومعنى هذا أن جيمس يقيم العبقرية على أساس حسى . ذلك أن الإدراك لا يتم إلا عن طريق حاسة أو أكثر من الحواس الخمس، ثم يستحيل إلى ترجمة إدراكية ذهنية بالمراكز الإدراكية

(١) JAMES,W.; Psychology ; A Fawcette Premier Book, 1966, P. 111, P. 292

المتخصصة بالمخ . ولكن وليم جيميس يقول أيضا بالتيار الشعورى ، فهو لا يجعل من الإدراك صورا مبعثرة أو متتابعة لا يربطها رابط ، بل يجعل الشعور بمثابة تيار متدفق باستمرار وتغذية تلك الصور الإدراكية [١] . ولعلنا نستعين هنا بما يقوله مكدوجال من أن الشعور له زوايا ثلاث : إدراك ووجدان ونزوع [٢] . وبذا نستطيع أن نقف على سير التفكير فى ذهن العبقرى . فهو متين راسخ في إدراكه، بل إن إدراكه للأشياء وترجمته الذهنية لما يدركه . إنما يتمان على نحو مباين لما يألفه العاديون، بل ولما يقدرون عليه ويتمرسون به . إن العباقرة يدركون بأبصارهم وبسمعهم وبلمسهم وبذوقهم وشمهم مالا يستطيع غيرهم إدراكه . ولا شك أن العبقرية تظهر أكثر ما تظهر فيما يتعلق بنطاقى الإدراك البصرى والإدراك السمعى. ناهيك عما يظهر فى مجال المهارات الحركية التى يقوم بها عضو أو أكثر من أعضاء الجسم . ولكن الأساس الأول فى العبقرية ليس الممارسة بل الإدراك . وكما يقول وليم جيمس فإن العبقرى دقيق الإحساس، وكأنه قد رزق جهاز استقبال على جانب خارق من الدقة بحيث يتسنى له التقاط مالا يستطيع غيره التقاطه . فبصره يقع على الزاوية الخفية من الشىء المرئى ، وأذنه تلتقط النغمات التى تدق على العاديين من المستمعين .

ونحن لا نزعم أن العبقرى يتفوق على العاديين فى جميع الجوانب من الإدراك الحسى بل يكفيه لإظهار عبقريته أن يتفوق فى ناحية واحدة بينما يكون عاديا أو حتى ضعيفا فى ناحية أخرى . فقد يكون العبقرى متفوقا فى مجال الإدراك البصرى ولكنه قد يكون متوسطا أو حتى ضعيفا فى مجال الإدراك السمعى أو العكس .

وليس بخاف على أحد أن صدى نظرية السلوكيين التى تعتمد على الفعل المنعكس الشرطى ما يزال مدويا فى بعض الأوساط . وأصحاب الفعل المنعكس الشرطى يعتمدون أساسا فى تفسير الشخصية على ما تكتسبه بما يسمى

---

(١) MILLER, G. A., Psychology, Penguin Book, 1969, P. 90 .

(٢) McDOUGALL, W., Psychology the study of Behavior, Oxford University Press, London, 1947, P. 51-52 .

بالاستجابة الشرطية . فكل ما يتم اكتسابه بالشخصية إنما يقوم بناء على عمليات ترابطية عن طريق مصاحبة موضوع خبرة مكتسبة لموضوع خبرة لم يتم اكتسابها بعد . وقد قامت هذه النظرية أساسا على تجربة عالم روسى هو بافلوف . لقد قدم الطعام للكلب الذى أخضعه للتجريب ، فسال لعابه وظل يقرع جرسا عند تقديمه الطعام للكلب . وبعد تلك المصاحبة بين الطعام والجرس عدة مرات خلال عدة أيام صار لصوت الجرس قوة لإسالة لعاب الكلب بنفس قوة الطعام فى ذلك . ومن هذا المنطلق قامت نظرية السلوكيين بأمريكا بزعامة واطسون الذى فسر السلوك الإنسانى برمته فى ضوء الاشتراطات ، وتوسع بمفهومه إلى جميع مجالات المناشط الإنسانية والحيوانية بما فى ذلك العمليات العقلية العليا .

وفى ضوء الاشتراطات هناك فضل للعبقرى يتصل بكيانه الذاتى . إنه شخص خضع لسلسلة طويلة من الأفعال المنعكسة الشرطية حتى وصل إلى ما وصل إليه من مستوى رفيع . إنه اكتسب مجموعة من العادات العقلية والوجدانية فصار متفوقًا على النحو الذى وصل إليه . ومعنى هذا أنك تستطيع أن تصير عبقريا ويستطيع أى شخص أن يصل إلى العبقرية إذا هو خضع لسلسلة من العمليات الاشتراطية التى خضع لها العباقرة السابقون .

ومن المحتمل أن تكون العبقرية فى أساسها كما يقول جيمس هي القدرة على الاستمرار فى الانتباه والتركيز فى ناحية ما من نواحى الإدراك . ولكن تلك القدرة التركيزية لا تتأتى لنا فى رأى السلوكيين بالفطرة ، بل بالتدريب المستمر . فالواقع أن العبقرى قد سمحت له الظروف بأن يتمرس بإطلاق العنان لذهنه فى اهتماماته العقلية أطول مدة ممكنة كما يشاء . ولذا فإنك تجد أن الحياة الحديثة بتشتتاتها الكثيرة وارتباط الإنسان الحديث بمواعيد والتمرس بعادات اجتماعية معينة ، قد تؤدى إلى الحيلولة بينه وبين اكتساب عادة العكوف على التفكير المتصل حسبما يشاء . وأساس اكتساب هذه العادة لا يعدو أن يكون مثل اكتساب الكلب بمعمل بافلوف القدرة على إسالة اللعاب بمجرد الاستماع إلى صوت الجرس . وكما أن سيلان لعاب الكلب لمجرد الاستماع إلى صوت الجرس يتم لديه بطريقة لا شعورية لا يدرك مقوماتها ، كذلك يفعل العبقرى فى شروده الذهنى وفى تركيزه على الموضوعات التى يتناولها بالتفكير بغير أن ينتبه إلى ما يدور حوله . ولقد تحول إلى

عالمه الداخلى بفضل الارتباط الشرطى، أو بتعبير آخر بفضل العادة الجسمية العقلية التى اكتسبها .

ولا ننسى ما للمزاج من أثر بعيد فى تكوين العبقرية . ذلك أن العبقرى لا يحرز عبقريته إلا بحصوله على نوع معين من المزاج يجمع بين التوتر النسبى وبين الاتزان الوجدانى بل والارتخاء العصبى فى بعض الأحيان . إنه شخص لديه غدد صماء تفرز هورموناتها بقدر معلوم يكون مسئولا إلى حد ما عن إحداث تهيئة نفسية معينة صالحة لنمو العبقرية . فالعباقرة أميل إلى الاستثارة واليقظة والتنبه الشديد ، وهذا يرجع كما نعلم إلى ما تختص به أجهزتهم العصبية من جهة ، وما تختص ه غددهم الصماء من جهة أخرى . ولكن التوتر الذى يتصف به العبقرى هو توتر وظيفى ، بمعنى أنه توتر يقع تحت سيطرة العبقرى . فهو يوجهه الوجهة التى يشاؤها . والفرق بين العبقرى والمجنون أن المجنون يخضع لتوتراته بحيث تقذف به أينما تشاء، بينما يوجه العبقرى توتراته لإنجاز أكبر قدر ممكن من العمل فى أقل وقت وبأفضل طريقة وبأدق إنتاج ، وبحيث يخط طريقًا جديدًا لم يسبق لأحد أن اختطه لنفسه . ولا يخفى ما يشتمل عليه التوتر العبقرى من عناد لا يلين أمام الصعوبات . فهو يدأب على العمل ولا يلين أمام أية صعوبات مهما كانت كأداء . ولا ينأى عن هدفه الذى وضعه نصب عينيه .

المعنى الاجتماعي :

لابد أن نحدد معنى العبقرية من الزاوية الاجتماعية ، وذلك لأن سلوك كثير من العباقرة يتسم بنقص التكيف أو بسوء التكيف . فهل معنى العبقرية من الناحية الاجتماعية تحدى المجتمع ومناهضة قيمه والضرب صفحا عما تواضع عليه من أساليب سلوكية ؟

الواقع أن ما يظهر من نقص التكيف الاجتماعى لدى العبقرى ، أو من سوء سلوك بسبب هذا النقص فى التكيف إنما هو نتيجة لإصرار الكتاب ومؤرخى حياة العباقرة على إبراز أوجه الخلاف بين العباقرة وبين العاديين من الناس ، فى حين أن النتائج العلمية الحديثة تتجه فى معظمها إلى تأكيد أوجه الشبه بين هذين الطرفين، على أساس أن الاختلاف بينهما – وهو مالا يمكن إنكاره – إنما هو اختلاف فى الدرجة لا فى النوع .

ولعل أفلاطون (٤٠٧ – ٣٤٧ ق م) هو أول من وجه الانتباه إلى نقص التكيف الاجتماعى لدى العباقرة ، عازيا ذلك إلى الرابطة القائمة بين العبقرية والمرض . ثم تبعه بعد ذلك عدد كبير من المفكرين والفلاسفة. وعندما نستعرض مختلف الآراء التى قيلت فى هذا الصدد نكاد نتبين أنها ربطت بين العبقرية وبين جميع أنواع المرض . فمنها ما كان يجد العبقرية مقرونة إلى المرض العقلى ، ومنها ما كان يجدها مقرونة إلى المرض النفسى الذى لا تختل فيه الصلة بين المريض وبين الواقع الاجتماعى اختلالا عميقا ، ومنها كذلك ما كان يجد العبقرية مقرونة إلى المرض الجسمى .

ونستطيع القول بأن الآراء القديمة فى إبرازها لهذا النوع من الاختلاف بين العباقرة والعاديين من الناس إنما تدور حول محورين : فالعبقرى في الفن أو فى أى مظهر آخر من مظاهر النشاط الإنسانى – إما ملهم يتلقى الإلهام وحده دون سواه من البشر لسبب ما لا نعلمه ، وإما مريض مرضًا أقرب إلى الجنون . وقد ترددت فكرة الإلهام هذه عند عدد من المفكرين القدامى وعلى رأسهم أفلاطون . يقول أفلاطون . « إن الشاعر كائن أثيرى مقدس ذو جناحين لا يمكن أن يبتكر قبل أن يلهم فيفقد عقله ، وما دام الإنسان يحتفظ بعقله فإنه لا يستطيع أن ينظم الشعر » (١) .

والواقع أن الربط بين العبقرية والجنون يمكن أن يتم بأشكال متعددة ، فقد يربط العلماء بينهما على أساس أن بعض جوانب الجنون أو الاضطراب النفسى بوجه عام يسبب العبقرية ، ويربط البعض الآخر بينهما على أساس أن مظاهر الاضطراب العقلى والنفسى عامة إنما تنتج عن العبقرية وليس العكس، وذلك نتيجة احتدام الصراع بين العبقرى وبين البيئة التي لا ترحم . وربما كان هذا الرأى الأخير أقرب إلى الاتجاه السائد لدى عدد كبير من علماء النفس فى الوقت الحاضر . أما الرأى الثانى وهو القائل بتلازم العنصرين : العبقرية والجنون، تلازما لا يقتضى أن يكون أحدهما سببًا للآخر ، فهذا رأى الغالبية من أصحاب هذا الاتجاه فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

---

(١) العبقرية فى الفن – الدكتور مصطفى سويف ص ٩ – ١٨ .

ويقرر براون أن الجنون والعبقرية يرتبطان برباط وثيق ، ذلك أن كلا منهما لا ينتج إلا بالاصطدام الملح الطويل فى مجال الواقع الاجتماعى العملى [1] .

وفى سنة ١٩٢٨ نشر لانج إيكباوم Lange- Eichbaum كتابا سماه « مشكلة العبقرية » وفيه يقرر أن أقلية من بين العباقرة هم الذين لم يعرف عنهم أنهم عانوا من الاضطراب العقلى ، فى حين أن الغالبية العظمى كانت تعانى من بعض الاضطرابات ولو لفترة محدودة فى الحياة . وقد أورد هذا الباحث إحصائيات عن عدد كبير من العباقرة . وبالنظر فى حياة ٧٨ عبقريا منهم - هم أعظم الأسماء جميعا - يتبين أن ٨٣٪ منهم كانوا يعانون من بعض الاضطراب العقلى أو النفسى ، وعندما قصر تحليله على ٣٥ عبقريا يمثلون القمة من العباقرة الثمانية والسبعين تبين أن ٩٠٪ منهم كانوا يعانون من أضطراب عقلى ونفسى .

ويشرح « لانج إيكباوم » نظريته فيقول : إن الارتباط بين المرض والعبقرية ليس ضرورة حتمية . ولكنه يعود فيقرر أن االعبقرية تعتمد فى ازدهارها على عنصر المرض من نواح ثلاث : أولاها أن حالة المرض من شأنها أن تزيد من حدة انفعالات الشخص ، لأنها تقلل من مقاومته ، ومن قدرته على ضبط نفسه ، وتجعله مرهف الحساسية لأبسط المثيرات ، وثانيتها أن المرض يجعل صاحبه يشعر بالتعاسة والقصور ، وهذا مما يزوده برصيد من الدوافع لا يتوافر لغيره من الأصحاء. وثالثتها أن بعض أنواع الاضطراب يصحبها نشاط فى قدرة الشخص على التخيل وانغماس فى هذا النشاط بدرجة لا تتوافر للأصحاء .وهذا مما يزيد من قدرته على الخلق والابتكار [2] .

والمعتقد أن الصراع الذى تتعرض له الشخصية بين أهدافها الخاصة والهدف الاجتماعى المشترك للجماعة ، يمكن أن يكون منشأ العبقرية ، كما أنه يمكن أن يكون منشأ الجنون ، أو منشأ أية ظاهرة تدل على سوء التكيف . والذى نود أن نقرره هو أن معظم الباحثين التقوا عند فكرة الصراع باعتباره علة للعبقرية .

---

(١) الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة - الدكتور مصطفى سويف - دار المعارف - ١٩٥١ ص ١١٨ .

(٢) العبقرية فى الفن . ص ١٢ ، ١٨ .

ونستطيع أن نحدد الفرق الهام بين ديناميات الحركة لدى كل من العبقرى والذهانى والمراهق ، مما يظهر أثره بشكل واضح فى الخطوات النهائية لحركة كل منهم .

فمن الواضح أن حركة العبقرى مدفوعة بالسعى نحو هدف واقعى وراء الحواجز وإن لم يكن واضحا منذ البداية . وعلى هذا الأساس تكون موجهة إلى حد بعيد ، وهذا ما لا تكشف عنه حركات المراهق أو الذهانى .

ولقد أنكر نوردو Nordeau القول بأن المرض النفسى يسبب العبقرية، ويقول: إن مثلى عندما أربط بين هذين الطرفين مثل القائل بأن مرض القلب علة النبوغ فى الرياضة ، وليست لديه من شواهد على صحة رأيه هذا إلا أن معظم الرياضيين مصابون بمرض فى القلب .

ويضرب فلورنز Flourens فى نفس الاتجاه بقوله « أنستنتج أن الهلوسة هى العبقرية ؟ أم أنها تجلب العبقرية ؟ ومن غير هذه الهلوسات أما كان يتسنى لسقراط وبسكال أن يحتفظا بعقليهما الجبارين ؟ أليست الحقيقة أن العلاقات بين العبقرية والجنون مجرد علاقات سطحية جلبتها المصادفة وحدها ؟ »

أما كرتشمر (١٨٨٨ - ؟) فإنه يذهب إلى أن الأمراض الذهنية تؤدى بصاحبها فى معظم الحالات إلى التأخر فى قواه العقلية والتأثير السيئ فى المجتمع، ولكنها فى حالات خاصة نادرة أى فى حالات الأشخاص ذوى الأبنية الذهنية الخاصة والمواهب الخارقة ، تؤدى هذه الأمراض إلى تنمية نشاطهم كعباقرة . هذا فيما يتعلق بالأمراض الذهنية .

أما فيما يتعلق بالأمراض النفسية ، فيقرر كرتشمر أن تراجم الكثيرين من العباقرة توجب علينا أن نستنتج لزوم عنصر المرض النفسى Psychopathetic element كعامل جوهري فى شخصية العبقرى ، بحيث لو فرضنا استطاعة صاحبه التخلص منه لكانت النتيجة المحتومة أن يفقد عبقريته .

وهناك فى رأى كرتشمر من العباقرة شخصيات مريضة بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة، وشخصيات أخرى تحمل عنصرًا مرضيا وسط حال من الصحة النفسية لا بأس بها ، فكأنه عنصر دخيل على نفس طيبة . ومن النوع الأول ميخائيل أنجلو وبايرون ، ومن النوع الثانى جيته وبسمارك .

وهو يعرف العنصر المرضى الذى يكثر من الإشارة إليه ، بأنه حساسية مرهفة جدا فى الحياة الوجدانية للشخص ، واستعداد دائم لتحول التنبيهات الوجدانية إلى أرجاع نيوروباتية Neuropathic تتركز فى الجهاز العصبى السمبتاوى ، وأرجاع سيكوجينة Psychogenic قد تصبح إرجاعات هستيرية أو وسواسية Hypochon-driacal، ويرى أن أقرب طراز الذهانيين إلى العباقرة هم الفصاميون . فهم يظهرون بمظهر الجد دائما ، وهم ضئيلو القدرة على التأقلم مع الواقع العملى .

انظر إلى هولدرلين Holderlin مثلا . إنه شخص لا يكاد يعرف المرح، ولم يكن مرهف الحساسية فحسب ، بل كان كذلك عاجزا عن التوفيق بين آثار الحياة الواقعية فى نفسه ، وكان يبدو فى الحياة العامة عاجزا عن تقدير أية نكتة أو ملحة مهما يكن حظها من الظرف والرقة ، وكان يرتاب فى أتفه الملاحظات التى تلقى فى مجلسه ، ويحس فيها إهانة موجهة إليه وكان يقول « يملؤنى الفزع من أن تصيب تفاهات الواقع حياتى المتقدة فى أعماقى بالبرود والتجمد » . وانظر إلى جيته الذى اشتهر خطأ بأنه مثال للعبقرى السوى ، والذى لا يترك متع الحياة الواقعية سعيا وراء أهدافه التصويرية ، والواقع أنه لم يكن يفترق تقريبا عن الشخصيات النوابية Cycloid التى تكون معرضة لفيض من النشاط يتلوه هبوط سوداوى melancholic depressive ثم فيض آخر وهكذا . ولذلك جاءت حياته موزعة على دورات ، سبع سنوات عجاف يملؤها القحط والخمول ثم سنتان ملؤهما الازدهار والخصوبة .

ولكن على أى أساس أقام كرتشمر الربط بين العبقرية والجنون على أساس إحصائى ؟ وعلى أى أساس يعتمد هذا الإحصاء ؟ على أساس التشابه فى الظواهر السلوكية لدى كل من العبقرى والعصابي . وكل ما فعله كرتشمر هو أنه بين لنا أن ضروب المرض الذهنى - ولا سيما التى لا تزال على الحدود بين الصحة والمرض - منتشرة انتشارًا ذريعا بين العباقرة . على أنه قد يكون من سوء الطالع أن تكون من ذوى النفوس المريضة ، ولكن يحدث أحيانا أن ينتج لك من هذا السوء مجد عظيم [1] .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٢٢- ١٢٣ .

أما لومبروزو فإنه لم يربط صراحة بين العبقرية والجنون ، ولكنه ربط بين العبقرية وعدد من مظاهر الاختلال فى الخلقة كما سبق أن ذكرنا ، وقال : إن هناك بعض أوجه الشبه بين فعل الابتكار أو الإبداع كما يقوم به العبقرى وبين نوبات الصرع .

ويذهب كروكشانك إلى القول بأن النقص فى التكيف الاجتماعى لدى العباقرة يبدأ منذ طفولتهم. ومن أهم خصائص هذا النقص ما يأتى :

١- أن الأطفال الموهوبين يكونون غير مستقرين وغير منتبهين أو محدثين للاضطراب أو المضايقة لأولئك الذين يحيطون بهم ، شأنهم فى هذا شأن كثير من الأطفال الذين لديهم حاجات لم تجد ما يشبعها .

٢- قد يكون الأطفال الموهوبون ضعافًا فى الهجاء ومهملين فى الخط أو غير دقيقين فى الحساب لأنهم غير صبورين فى أداء التفاصيل .

٣- قد يتصنعون الاهتمام فيما يتعلق بإتمام ما يوكل إليهم من أعمال كما قد يكونون غير مكترثين بالواجبات المدرسية عندما لا يجدون المتعة فى أدائها .

٤- قد يوجهون النقد الصريح سواء لأنفسهم أو للآخرين . وهذا الموقف يضايق فى الغالب كلا من الأطفال والكبار [1] .

ومن أكثر أسباب النقص فى تكيف العبقرى مع المجتمع هو إحساسه بأنه أرفع مستوى بكثير من المستوى الاجتماعى الموجود ، وتصميم العبقرى على التفوق على كل المعايير القائمة ، حتى ولو أدى هذا إلى مضايقة الناس له واتهامه بالخروج على المألوف أو حتى الجنون .

ففى خطاب وجهه شيللى إلى بايرون فى ٢٩ سبتمبر ١٨١٦ يقول :

«ولست أرجو إلا أن تشعر منذ اللحظة التى يبدو لك فيها الجانب الحق من الأشياء أنك مختار من بين الناس أجمعين ، للقيام بمشروع فكرى أعظم مما يستطيعون » .

ويقول بايرون فى خطاب إلى كينارد يوم ٣١ مارس ١٨١٧ :

« إذا لم أستطع الفوز على الجميع فلن تعنى المحاولة شيئا - بالنسبة لى »

---

(١) تربية الموهوب والمتخلف - ف. ج كروكشانك ترجمة يوسف ميخائيل أسعد - مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧١- ص ٥٧ .

ويقول إدجار الان بو : « لقد ظلت حياتى اندفاعة - أو هوى - أو حنينًا إلى الوحدة ، وازدراء لكل ما هو حاضر، وإلحاحا فى التعلق بالمستقبل » .

ويقول كذلك فى خطاب إلى المسز شو : « إننى روح شاردة » .

ويقول تولستوى « طالما تخيلت نفسى رجلا عظيما ، يكتشف الحقائق لخير الإنسانية، فكنت أنظر لسواى من الأدميين وأنا أشعر بقدرى ، ولكن الشىء العجيب أننى عندما كنت أتصل بأولئك الآدميين كنت أخجل منهم جميعًا ، وكلما ازداد قدرى ارتفاعا فى نظرى ، قلت قدرتى على نشر الشعور بقدراتى بين الآخرين ، بل لقد عجزت عن تعود الابتعاد عن الخجل من كل كلمة ألقيتها ومن كل فعل أقوم به مهما كان الموقف تافهًا ».

ويقول جوركى : « كنت أرى أننى فهمت وأحسست أشياء معينة بطريقة تخالف طريقة الناس ، وأهمنى ذلك الأمر وأقلقنى ... حتى عندما كنت أقرأ لفنان كتورجنيف ، كنت أظن أحيانًا أننى ربما رويت قصص الأبطال ... بأسلوب غير أسلوب تورجنيف . فى ذلك الحين بدأ الناس بالفعل ينظرون إلى كقصاص مشوق . وكان أولئك الذين كنت أعيش بينهم ينصتون إلى بانتباه ... » .

ويقول توفيق الحكيم فى إحدى رسائله :

« ثم هناك شىء آخر ... هو طبيعتى التى تميل إلى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعا من أوضاع هربا من الوقوع في الابتذال وطيفا جنونيا بالتمييز ولإغراب ... »

وثمة تفسير آخر للعبقرية من الزاوية الاجتماعية غير رغبة العبقرى فى التفوق . وذلك هو القول بالعقل الجمعى . ولقد ذهب إلى هذا التفسير كل من دور كايم (١٨٥٨ - ١٩١٧) [١] ووليم جيمس [٢] . ووفق هذا الفرض فإن العقل الفرد لا يمكن أن يكون شيئا منفصلا عن العقول الإنسانية الأخرى ، وليست الصلة به عن طريق الأعضاء الجسمية للتعبير وحدها ، أو بالإدراك الحسى وحده ، بل يجب

(١) ABRAM KARDINER and EDWARD PREBLE. They Studied Man, Eecker and Warburg, London, 1962, P. 114 .

(٢) McDOUGALL W., Psychology, The Study of Behavior, Oxford University Press London, 1947, P. 162, 165, 168 .

البحث عن العمليات العقلية والتأثيرات الذهنية التى تؤثر بها عقول الناس الآخرين فى عقلية العبقرى . فالعبقرى يستلهم جميع العقول، وكأنه جهاز استقبال على جانب كبير من الدقة بحيث يستطيع أن يستوعب أنقى وأدق ما يعتمل فى عقول الآخرين ووجداناتهم من مفاهيم وأحاسيس . ونستطيع أن ننظر إلى جميع العقول باعتبار أنها مرتبطة بعضها ببعض بطريقة مباشرة دقيقة تسمح بالتأثير المتبادل فيما بينها . ولا تعتبر عقولنا إلا ظواهر جزئية لعقل واحد، منوطة بالخصائص الجزئية المتعلقة بمقوماتنا الجسمية . وليس العبقرى سوى شخص لديه شروط جسمية مواتية له بأن يكون تعبيرًا صادقا إلى أبعد مدى ممكن عن العقل الجمعى .



الفصل الثانى

معنى الجنون

الجنون والجن :

إن كل الدراسات المتعلقة بالإنسان البدائى فى أى مكان من العالم تشير إلى أن الإنسان عندما تفتحت عيناه على العالم من حوله ، وراءه ما كان يسمعه من أصوات مخيفة مهيجة لوجدانه ، وما كان يشاهده من مناظر تبعث الرعب فى قلبه أخذ فى الاعتقاد فى أن جنيا خفيا يتربص به الدوائر وأن العاصفة التى تزمجر فى الغابة ، أو الأصوات الخفية التى تصافح أذنيه من بين الأشجار ، إنما هى فى الواقع أصوات جن خفيين يهددونه ويطالبونه بالتقرب إليهم . وهكذا كان إحساسه بالنسبة للبحر الهائج وبالنسبة للمطر المنهمر بشدة، وبالنسبة للصواعق أو قصف الرعد . وكان لابد لإنسان الغابة البدائى من التقرب من الآلهة والجن فيما يبدو حوله من مظاهر طبيعية ومن بينها الشمس والقمر وسائر الكواكب .

- وطبيعى أن جهل الإنسان البدائى بالأسباب والمسببات ، وبالعوامل الطبيعية التى تنتهى إلى بزوغ الظواهر الطبيعية كان السبب فى اللجوء إلى الغيبيات طلبًا للتفسير . وكان التفسير الأساسى عنده هو تلك الكائنات الأرضية التى تحيط به والتى لا يراها ولا يسمعها مباشرة ، وإنما يرى أعمالها ويلاحظ نشاطها الذى يدق على التفسير؛ لدقته وغموضه على ذهنه .

ولم يقتصر التفسير بالجن على الظواهر الطبيعية ، بل تعدى ذلك إلى تفسير السلوك الشاذ وما يظهر من أمراض الجسم أو العقل . فاعتبر كل سلوك شاذ أو كل مرض أو انحراف مزاجى مسا من الجن أصاب الشخص فى منامه أو فى يقظته ،

أو أصابه بسبب سحر عمل له ، أو بسبب معصية اقترفها ضد الآلهة أو ضد الجن والخروج على طاعتهم ، وعدم الرضوخ لمطالبهم .

وكان بالمجتمعات البدائية فئة من السحرة زعموا لأنفسهم الاتصال بالجن والقدرة على إقناعهم بالرضا على الشخص المصاب ، والصفح عنه وتركه لسبيله بغير أذى ، وكان الحال يتطلب أحيانا أن يوقع الساحر الأذى على جسد المريض حتى تخرج الجن منه ، وذلك باستخدام الكى فى بعض أجزاء الجسم ، أو حتى بتر بعض الأعضاء أو السجن أو العزل عن الناس أو غير ذلك من وسائل التعذيب والاسترضاء للآلهة أو الجن .

وكان من أهم الاعتقادات السائدة - والتى ما تزال شائعة فى بعض الأوساط حتى اليوم - أن الشخص المجنون هو شخص ممسوس بجن . ولذا فقد كان المتصدر لإخراج الجن من المجنون يستخدم بعض الوسائل الخشنة فى معاملته حتى لقد يضربه أو يعذبه ، زاعما أنه إنما يضرب ويعذب الجنى الذى احتل ذلك الجسد . وطبيعى أنه كان ينظر إلى الشخص الممسوس بالجن باعتبار أنه شخص خاطئ ونجس ، وإلا فلم يكن الجنى ليتخذه مسكنا له .

ولكن اليونان لم يكونوا ينظرون باستمرار إلى الشخص الممسوس باعتبار أنه شخص خاطئ . لقد كان هناك فى نظرهم فئتان من الممسوسين : فئة نجسة يسكنها الجن الخبثاء ، وفئة مقدسة . وهذه الفئة الأخيرة من الممسوسين كانوا بمثابة أبواق مقدسة تعلن الآلهة من خلالها عن إرادتها ، وتبدى رغباتها من أفواهها. وعلى هذا فقد اعتبروا الصرع مرضا مقدسا، وبالفعل سموه « بالمرض المقدس » . ولذا فإن المرضى بهذا المرض كانوا يعاملون غالبا باحترام شديد ، وكانوا يلقون عناية فائقة ، وذلك لأن الساكن فيهم هو واحد من الآلهة أو من الجن المقدسين. ولكن المجتمعات التى لم تكن تعتقد إلا فى وجود الجن الخبثاء، فإن مرضى الصرع من أبنائها كانوا يلاقون العذاب الشديد والامتهان والازدراء . بيد أن أهالى المريض لم يكونوا فى تعذيبهم له يقصدون تعذيب المريض نفسه ، بل كان قصدهم تعذيب الجنى الساكن فيه.

أما الأطفال ضعاف العقل فى بلاد اليونان قديما وسائر المجتمعات البدائية فلم يكونوا يلاقون العذاب كما كان يلاقيه المرضى بالصرع وغيره من أمراض عقلية ونفسية ، بل كانوا يعاملون بالرفق أحيانا وبالإهمال أحيانا أخرى ، ولم يكن ينظر إليهم فى الغالب على أنهم ممسوسون بالجن .

ولكن النظرة العامة إلى الجنون كانت مشوبة بوجه عام بالإحساس بالخطيئة وبأن هناك صلة بين عالم الغيبيات وبين الأعراض المرضية التى تظهر فى « لوك الشخص المريض . ولم يكن يتطرق إلى العوامل الجسمية إلا بعد أن تم للحضارة مستوى أرقى من النضج ، وبعد أن تجمعت حصيلة لا بأس بها من الخبرات الفردية على أيدى أفراد من الدارسين .

فقبل بزوغ حضارة اليونان بما تتضمنه من تراث طبى قام على أساسه التفسير الطبى والتفسير الواقعى للمرض العقلى ، فقد كانت هناك محاولات متعددة لفهم المرض العقلى والعمل على علاجه بوسائل غيبية وجسمية أحيانا أخرى، أى باستخدام الوصفات العلاجية البدائية التى كانت تسير جنبا إلى جنب مع الشعوذة . ولقد اكتشف علماء الحفريات بعضا من الأدوات والمواد التى كان القدماء يستعينون بها لطرد الأرواح الشريرة من أجساد المرضى النفسانيين .

أما نظام الطب العقلى بالهند قديما ، وهو ما يوجد تراثه بالفيدَاس Veda، وأيضًا بكثير من الكتابات المتوارثة فإنه لم يقتصر على القول بالتلبس بالأرواح الشريرة ، بل إنه تضمن أيضاً آراء سستراتا Sustrata التى ما تزال فى مقدمة الفكر الطبي الحالى هناك . فلقد ذهب سستراتا إلى أن الانفعالات والعواطف الشديدة قد لا تؤدى إلى نشوء المرض العقلى فقط، بل وأيضا إلى نشوء الأمراض الجسمية التي قد تتطلب اللجوء إلى إجراء العمليات الجراحية . ولا شك أن هذا الرأى يلقى تأييدا من الأوساط الطبية الحديثة حتى اليوم . ولكنه على الرغم من أن سستراتا كان لماحا ودقيقا فيما أضافه إلى التفكير الطبى النفسى فإن شأنه شأن الكثيرين من الشخصيات المعاصرة له فى هذا المضمار ، لم يستطع أن يتخلص من وطأة الاعتقاد - ولو جزئيا - فى أن الروح هى شىء مادى نسبيا ، أو إنها نوع من الأعضاء الجسمية التى لا تشاهد بالعين المجردة، وذهب هو وأتباعه فى القرن الخامس قبل الميلاد إلى الاعتقاد فى أن الروح تقطن بداخل الجسم فى تجويف القلب ، وأنها حائزة على ملكة أساسية أو جوهرية أطلقواعليها اسم ماناس Manas

وهى مرتبطة ارتباطا وثيقا بالتنفس الذى سموه برانا Prana، واعتقدوا أن له أهمية جسمية وروحية فى نفس الوقت . وعند الموت فإن الروح الحية تترك الجسم مع آخر نفس ، وتستطيع أن تعود مرة أخرى لتدخل فى أى كائن حى آخر ولو لم يكن آدميا .

وبعد حوالى مائة عام ، ظهرت فكرة البرانا ، ولكن فى حضارة أخرى غير حضارة الهند ، أعنى فى الحضارة اليونانية على يد أبقراط الذى اعتقد أن التنفس، الذى كان يسمى بنيوما Pneuma كان مصدر الذكاء والشعور، ولكنه كان موزعا على باقى الجسم بواسطة المخ . وهناك أفكار أخرى حول طبيعة ومكان الروح تشبه إلى حد بعيد التأملات الصوفية لدى الفلاسفة الهنود بالرغم من أنها تتضمن مفهوم تناسخ الأرواح ، وقد شاعت تلك الأفكار فى كتابات أفلاطون المتأخرة وأيضا لدى تلميذه أرسطو . وليس غريبا أن نجد تشابها فى هذا المضمار وغيره بين الحضارة اليونانية والحضارة الهندية.. فمن المقطوع به أن فيثاغورس الذى تأثر به أفلاطون إلى حد بعيد ومن بعده أرسطو قد خضع لتأثير النحلة الأورفية التى ترتبط بالحضارة الهندية ارتباطا تاريخيا وثيقا ومؤكدا (١) .

وحتى ذلك الوقت فإن الطب كان يقصر همه على الأمراض الجسمية فحسب. أما الاضطرابات النفسية ، فعلى الرغم من أنها كانت معروفة على نطاق واسع فى الأساطير فإنها لم تكن معتبرة داخلة فى نطاق الطب على الإطلاق ، بل كانت من اختصاص الكاهن أو الساحر . بيد أن هذا لم يكن يمنع من أن يكون العلاج فى بعض الأحيان بوسائل واقعية ومادية . وهنا نذكر قصة بنات بروتيس Proetus ملك أرجوس Argos اللائى جلبن على أنفسهن غضب الآلهة هيرا Hera ، وذلك بأن سرقن ذهبا من تمثالها . فلقد ضربتهن تلك الآلهة بالجنون ، بحيث صرن يعتقدن أنهن بقرات ، وأخذن فى الهيام فى الحقول لا يلوين على شىء ، بيد أن أحد الكهنة اسمه ميلامبوس Melampus الذى عاش قبل هومير بحوالى ثلاثة قرون ، وقد حصل على شهرته عندما شفى هرقل من نوبة جنون مشابهة ، دعى لعلاجهن مما أصابهن من جنون . فأخذ فى تقديم أعشاب معينة إليهن تؤدى إلى إصابتهن بإسهال شديد. وعندما انتهين إلى الإعياء الشديد أمر بسوقهن للاستحمام فى

---

(١) تاريخ الفلسفة اليونانية – يوسف كرم – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٦ – ص ٢٤ .

نافورات أركاديا ، وأعلن بعد ذلك أنه قد تم لهن الشفاء. ومنذ ذلك الوقت عرف ذلك النبات بأنه علاج لبعض حالات الجنون ، ولكن الطب العقلى الحديث لا يعترف بذلك .

وعلى الرغم من أن هذه القصة وقعت منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة فإنها لا تزال تستهوى عقلية الإنسان الحديث ، فما يزال هناك فكرة شائعة بعقول العامة بأن هناك ما يدعو إلى الإحساس بالذنب أو الخجل تجاه المرض العقلى أكثر من الإحساس بأنه مجرد مرض من بين الأمراض الكثيرة التى يمكن أن تصيب الإنسان . وحتى عندما يعترف بأن المرض العقلى شأنه شأن أى مرض آخر كلما كانت وسائل العلاج المتبعة مع المريض ضمن الوسائل الجسمية المادية ، كان هناك إحساس أعمق بالاحترام للطبيب المعالج ، وكانت هناك ثقة أكثر فى العلاج ، ولكن منذ أيام ميلامبوس حتى أيامنا هذه فإن مشكلة المرض العقلى ظلت خلال فترة تقترب من ثلاثة آلاف سنة ، وهى فى قبضة العراف ، ثم صارت بعد ذلك فى قبضة الفيلسوف، وأخيرا صارت ضمن مسئوليات الطبيب . وحتى بالنسبة للطبيب فإن الطريق أمامه لا يزال محفوفا بالصعاب . ويحتاج منه إلى جرأة وصبر وكفاح طويل لإقناع أهل المريض بجدوى العلاج النفسى . وشاهد ذلك أننا نرى واحدا مثل الفيلسروف إمانويل كانط فى أواخر القرن الثامن عشر وهو ينعى على الطبيب الذى يبدى اهتماما بالمسائل المتصلة بالعقل ، لأنه كان يعتبر أن مهمة الطبيب تقف عند حدود علاج الجسم .

ولكن مع هذا فإننا نجد أن اليونان كانوا رافعى لواء علم الطب العقلى بزعامة أبقراط الذى أثبت عبقرية فى هذا المضمار ، وكان لملاحظته حول طبيعة الاضطرابات العقلية من الناحية الطبية الحظ فى أن تظل جديرة بالاعتبار لمدة طويلة بعد أن كتب على الحضارة التى كان علما كبيرا من أعلامها أن يأفل نجمها وينكمش مقدارها [١] .

---

(١) MAVID STAFFORD - CLARK, Psychiatry do - day A Pelican Book, reprinted, 1954, P. 16 .

والواقع أن ارتباط الجنون بالجن ليس من الاتجاهات الغربية ، بل كان المتوقع أن يكون هذا الارتباط بين الجنون والجن ارتباطا وثيقا . ذلك أن الجنون لم يكن مرتبطًا منذ بواكير ظهوره بالانحرافات الذهنية والوجدانية والمزاجية، ولم يكن مرتبطا بالعلامات المرضية الجسمية؛ فإنك لترى المريض بالمرض العقلى على جانب كبير من النشاط الجسمى ، وقد خلا جسمه من كل عرض من الأعراض المرضية الجسمية المعروفة . ولذا فقد أخذ الإنسان منذ القدم يعزو وجود الجنون إلى التلبس بالجن . ولعلك تلاحظ ارتباط اللفظين « جنون » و «جن » من حيث شكلى الكلمة . فهل هناك ارتباط تاريخى بين هذين اللفظين ؟ هذا ما حدا بنا إلى البحث فى « لسان العرب » عن أصل اللفظين ، وفيما يلى ما يؤكد ارتباط اللفظين وردهما إلى مصدر واحد وإلى معنى واحد .

يقول ابن منظور الأفريقى فى لسان العرب : « جن الرجل جنونا وأجنه الله ، فهو مجنون .. والجنة الجنون أيضا ، وفى التنزيل العزيز: « أم به جنة » والاسم والمصدر على صورة واحدة . ويقال به جنة وجنون ومجنة ، والجنة : طائف الجن، وقد جن جنا وجنونا واستجن ، ، وقالوا : ما أجنه ، قال سيبويه : وقع التعجب منه بما أفعله ، وإن كان كالخلق لأنه ليس بلون فى الجسد ولا بخلقة فيه ، وإنما هو من نقصان العقل . والمجنة الجنون . والمجنة : الجن والأرض مجنة كثيرة الجن . وفى الحديث : « اللهم إنى أعوذ بك من جنون العمل » أى من الإعجاب به [١] .

ومما سبق يتضح أن كلمة جنة تستخدم فى معنيين :الأول الجنون والثانى طائف من الجن ، ثم يتضح أيضا أن كلمة مجنة تستخدم فى معنيين الأول الجنون والثانى طائف من الجن . ويتأكد إذن أن الجنون والجن مرتبطان لفظا وتاريخا بعضهما ببعض .

هذا فى التراث العربى . وبالنسبة للتراث الحضارى العالمى الشامل ، نجد أن تصور الإنسان لثنائية الروح والجسد ، حدا بالناس إلى الاعتقاد فى أن هناك

---

(١) لسان العرب – لابن منظور الأفريقى المصرى – المجلد الثالث عشر – دار صادر – بيروت – ١٩٥٦ – ص ٩٥ .

أمراضا تصيب الجسم وأمراضا تصيب الروح . وأمراض الجسد معروفة وعلاجها يتم بواسطة العقاقير ، أما أمراض الروح فإنها تتمثل فى الجنون ، وعلاجها لا يكون بالعقاقير ، بل بالتقرب من الآلهة من جهة وباستخدام السحر والجن من جهة أخرى. ولكن من الخطأ أن نقول أن أمراض الروح شبيهة بأمراض الجسد من حيث علاجها بوسائل واقعية محددة، وإنما يتم العلاج بتصور حقيقة مرض الروح . إن مرض الروح هو نتيجة التلبس بالجن ، فما دام الجن يحتل الروح ، فإنه يخرج بالشخص من الحدود الآدمية إلى حدود غير آدمية .وقد يكون من مظاهر الجنون ضعف العقل ، كما قد يكون من مظاهره إبداء العبقرية فى شأن ما من الشئون الإنسانية . وهذا يتوقف على نوع الجنى الذى يتلبس الجسم . فإذا كان جنيا ذكيا فإنه يبدى قدرًا كبيرًا من الذكاء والعبقرية ، وعلى العكس فإذا كان جنيا غبيا رديئا فإنه ينزل بالشخص إلى الحضيض .

ولم تخف حدة التفكير فى الجنون بالنظر إلى التلبس، إلا بعد أن ساد الاتجاه التكاملى الذى ينظر إلى الإنسان بنظرة تكاملية، ويعتبر الظواهر العقلية والنفسية أشكالا من أشكال الكائن الحى، ولا يفصل النشاط العقلى عن باقى مناشط الكائن الحى. هذا ما حدا بالطب الحديث أن يرحب بالأمراض العقلية لكى تدخل فى نطاقه وتصبح من كيانه شأنها فى ذلك شأن أى مرض من أمراض الجسم. وساعد على هذا ما يعرف باسم الطب النفسجسمى Psychosomatic therapy .

تطور تفسير الجنون :

بدأ التفسير الواقعى للجنون لدى الفلاسفة الأيونيين ببلاد اليونان الذين اتجهوا إلى تفسير الوجود برمته بالفلسفة الطبيعية ، وقد تم ذلك بوجه خاص على أيدى طاليس (٦٢٤ - ٥٤٧ ق م) وأنكسماندر (٦١٠ - ٥٤٦ ق م) وأنكسمانس (٥٨٨ - ٥٢٥ ق م) وكلهم من ملطية . ولقد أقاموا تفسيرهم جميعا للوجود على أساس وجود مادة أزلية لم يخلقها أحد تعمل خلف كل شىء بالطبيعة . ولقد أثرت آراؤهم فى تفسير الكمايون Alemaeon الذى نجح فى اكتشاف أعصاب الإبصار، وأظهر علاقتها بالمخ. ولقد ذهب الكمايون إلى أن المخ هو مركز السمع والإبصار

والشم وغير ذلك من حواس ، ومنه نستمد معرفتنا وأفكارنا عن العالم المحيط بنا . وبالنسبة لما كان يتسم به عصره من فجاجة فى التفسير ، فإنه اعتقد أن المخ عبارة عن غدة خاصة تفرز مخاطا معينا يحدث بردا فى الرأس عندما يسيل فى الأنف ، كما يحدث أمراضا أخرى بالجسم عندما يسيل إلى المعدة والأمعاء.

ثم أتى أبقراط (القرن الخامس قبل الميلاد) وتطور بفكرة الكمايون عن المخ باعتباره عضو المعرفة . فأخذ يؤكد أن السرور والفرح والضحك واللعب من جهة ، والحزن والأسى والحرمان والإشفاق من جهة أخرى، إنما تنشأ جميعا بالمخ . ويصاب الشخص بالجنون والهذيان أو يمتلكه الخوف والهلع سواء خلال الليل أم خلال النهار إذا أصيب المخ بخلل ما .

يرى أبقراط أن الاضطرابات العقلية إن هى إلا نتيجة لمرض ما ألم بالمخ . والواقع أن كتابات هذا الطبيب العظيم تتضمن عددا من النتائج الهامة المتعلقة بالعلاج النفسى . فلقد ذهب مثلا فى إحدى ملاحظاته إلى أن العطب الذى يصيب فصا من فصى المخ. إنما يحدث تشنجا فى الجهة المقابلة عكسيا من الجسم، ولقد نسب إليه أيضا أنه هو الذى صاغ الألفاظ « ميلانخوليا melancholy » ومعناها الحزن المرضى، و « مانيا mania » ومعناها جنون الهوس ، و « بارانويا Paranoia» ومعناها اضطراب عقلى يتصف بسيطرة أوهام منتظمة . وهى ألفاظ ما تزال مستخدمة حتى اليوم فى مجال الطب العقلى .

ولقد كان الأساس الفلسفى الذى أقام عليه أبقراط علمه هو تعاليم ديموقريطس (٤٦٠ - ٣٥٧ ق م) المادية ، وهى التعاليم التى انعكست فى تفسير أبقراط بالأمزجة الأربعة ، أعنى المزاج الدموى والمزاج البلغمى والمزاج الصفراوى والمزاج السوداوى . واعتقد أن التفاصيل الجزئية لكل نمط من هذه الأنماط الأربعة إنما ترتبط بكل من البيئة الطبيعية (المناخ والظروف الجغرافية) وبتأثير العوامل الاجتماعية .

وبذل أبقراط أيضا محاولات لعلاج الأمراض العقلية . فبالنسبة للمرضى المصابين بمزاج سوداوى حاد ومسيطر ، فإنه يصف للمريض تناول جرعات من عشب مسهل أو بإسالة كمية من دمه أو أخذ عقار مقيئ والتزام نظام قاس فى تناول الطعام، وبالنسبة لأمراض معينة ، فإنه كان ينصح بقيام المريض برحلة إلى مناطق المستنقعات حيث يصاب بالحمى (ربما تكون الملاريا) وبعد ذلك يشفى من مرضه الأصلى ، ثم يبدأ علاج الحمى بعد ذلك .

ولقد تقدم الطب إلى حد بعيد بروما القديمة . بيد أن الطب العقلى لم ينجح فى التقدم إلى ما بعد المدى الذى وصل إليه أبقراط . وحتى جالينوس الطبيب اليونانى الرومانى الشهير (١٣٠ - ٢٠٠) لم يكن له تأثير ذو بال فى نظريات المرض العقلى .

أما سقوط الإمبراطورية الرومانية فإنه أدى إلى انهيار العلم القديم وبخاصة الطب وكانت العصور الوسطى بأوربا فترة ظلام حضارى ، تدهور العلم خلالها وانتكس إلى الوراء . وساد الاعتقاد بأن الاضطرابات العقلية إنما هى نتيجة التلبس بالجن أو نتيجة لعمل السحر ، ولذا فقد استخدمت وسائل التعذيب باعتبار أنها الطريق الوحيدة المؤدية إلى الشفاء .

ولكن الحال كان بخلاف ذلك بالشرق . ذلك أن الطب وجد بعض التحسن هناك فى الفترة ابتداء من القرن الثالث حتى القرن الرابع عشر . ولقد فر كثير من العلماء الأوربيين من الاضطهاد بعد سقوط الإسكندرية إلى بلاد الفرس والبلاد العربية . وهنا يجدر بنا أن نذكر ابن سينا الذى ضرب فى طريق أبقراط فيما يتعلق بتفسير المرض العقلى. والواقع أن أول مستشفيات أنشئت لعلاج الجنون أقيمت فى بغداد والقدس ودمشق فى القرن التاسع الميلادى، وكانت مستشفى الأمراض العقلية تسمى بيمارستان .

ولما جاء عصر النهضة اكتشفت آراء أبقراط من جديد وذاعت فى الأوساط العلمية ، ولكن اتجاه المجتمع بالنسبة للجنون ظل كما هو لم يتغير ، فظل الاعتقاد سائدا بأن المجنون شخص متلبس بالجن ، وكان ينظر إلى الجنون باعتباره شيئا يستحق الاستهجان والتحقير وليس الشفقة والعناية . ولذا فإن المجانين كانوا يحبسون مع المجرمين فى مكان واحد . ومرت قرون قبل أن يتسنى اعتبار المرض العقلى ضمن الأمراض العادية التى تستحق الشفقة، وتتطلب العناية مع عقد الأمل على التخلص من براثنها والشفاء منها تماما .

والواقع أن الثورة الفرنسية التى أعلنت الحرية والمساواة والأخوة بين الناس ومؤكدة سيادة المبادئ الإنسانية ، كانت حدثا ليس له مثيل ، مما أدى إلى قيام عهد جديد فى تفسير الجنون وعلاجه . ولقد استخدمت أفكارها الإنسانية فى العناية بالمجنون أيضا . ولا شك أن الموقف الجديد من الجنون قد خضع لزعامة طبيب فرنسى شهير هو فيليب بينل P. Pinel (١٧٤٥ - ١٨٢٥) وتلميذه جان إسكويرول

esquirol jean الذى نادى بمبدأ « علاج المجنون أهم من الرحمة به » ولأول مرة بأوربا اعترف رسميا للأشخاص المضطربين عقليا بأنهم مرضى يخضعون للرعاية الطبية وليسوا أشخاصا مسجونين . وبذا فقد أعيد تنظيم السجون التى ظلوا محتجزين فيها لتصير مستشفيات ويؤرخ للخدمات النفسية منذ ذلك الوقت.

وفى الثلاثينيات من القرن الماضى أخذ الدكتور كونولى conolly وهو طبيب إنجليزى ينادى بمبدأ عدم تقييد المجنون النزيل بمستشفى الأمراض العقلية، فبينما حطم بينل السلاسل التى كانت تقيد المرضى ، وبينما نادى إسكويرول بتنظيم العلاج النفسى بالمستشفيات ، فإن كونولى احتج ضد استخدام الملابس الضيقة لإعاقة حركة المجنون، وضد استخدام طريقة ربط المجنون الهائج . ولقد وجدت فكرته قبولا واسع النطاق بروسيا وتحمس لها كورساكوف korsakov ودعا إليها على نطاق واسع . وبالولايات المتحدة لعب عالم الطب النفسى راش RUSH (١٧٤٥ - ١٨١٣) دورا هاما فى تنظيم العلاج النفسى العصبى القائم على أساس من النزعة الإنسانية والرفق بالمجانين .

والواقع أن إقامة مستشفيات عقلية متخصصة كان ضرورة هامة للحصول على ملاحظة عملية حول المرض العقلى وتنظيم الخبرة العلاجية . ولقد جمعت شواهد واقعية كثيرة قبل ذلك خلال الثلاثينيات بالقرن الماضى ، مما جعل من الممكن الانتهاء إلى بعض النتائج الهامة . ففى عام ١٨٢٢ قام بيل bale (١٧٩٩ - ١٨٥٨) بوصف الشلل المتدرج لدى المجنون باعتبار أنه حالة ناشئة عن الإصابة بمرض الزهرى، وفى نفس الفترة قام إسكويرول بأول محاولة للتصنيف الطبى للأمراض العقلية، وما يزال تعريفه للأعراض الخاصة بالخداعات البصرية والهلوسات محتفظا بأهميته . وأكد إسكوريول أيضا أهمية ملاحظة العلامات الجسمية للاضطرابات العقلية، وأدخل نظام التسجيلات المنتظمة للحالات التاريخية والدورات الطبية بالممارسة العلاجية، وصار كثير من أتباعه من مشاهير العلاج النفسى ، ويكفى أن نذكر منهم فالرت falret (١٧٩٤ - ١٨٧٠) الذى قام بوضع وصف دقيق للأمراض العقلية الدورية والأمراض العقلية الناجمة عن إدمان الخمر ، والاضطرابات العقلية فى حالات الصرع .

وهناك بين الأطباء الروس الذين أسهموا بقدر كبير فى تقديم آراء صحيحة حول الأمراض العقلية ديا كوفسكى dyadkovsky وإيلينسكى illinsky (خلال

الثلاثينيات والأربعينيات من القرن التاسع عشر) . فبالإضافة إلى ما قدماه من وصف للظواهر المرضية للاضطرابات العقلية المتباينة ، فإنهما حاولا أن يقدما تحليلا فسيولوجيا لها . بعد أن حددا الدور الذى تلعبه العوامل البيئية فى إحداث المرض العقلى. وأثارت المعلومات المتجمعة نتيجة ملاحظة الاضطرابات العقلية مناقشة طويلة بالأوساط العلمية خلال النصف الأول من القرن الماضى . فنشأت مناقشات حامية بين دعاة النزعة الروحية ودعاة النزعة الجسمية ، حول ما إذا كانت الروح أم الجسم هو الذى يتلف بواسطة المرض العقلى . أما أتباع النزعة الروحية Spiritualism (الذين سموا بالمدرسة النفسية) فقد اعتنقوا آراء صوفية حول طبيعة المرض العقلى، وتبعا لمفهومهم حول الذهان ، فإنهم استعانوا بطرق معينة للعلاج علقوا عليها الأمل فى علاج الجنون . وفى القرن السادس عشر مثلا كانت هناك أفران خاصة توضع بها رأس المريض بينما كان يقال له « إنك فى هذا الفرن سوف تشفى بسرعة وتستعيد عقلك ». وحتى فى أوائل القرن التاسع عشر فإن بعض الطرق العلاجية مثل استخدام حمامات الماء البارد واستنزاف الدم بشدة والتدوير فى آلات خاصة كانت شائعة .

بيد أن التقدم العلمى بوجه عام ، قد ساعد على تثبيت أركان الاتجاه الجسمى فى العلاج . وبذا فإن المعالجين النفسانيين قد لجأوا إلى الطب العام أكثر فأكثر فى علاج الأمراض العقلية والنفسية والعصبية . ويعزى الفضل فى هذا بوجه خاص إلى الطبيب الألمانى جريسنجر Griesinger (١٨١٧ - ١٨٦٨) فاقتناعه بأن ثمة حالة مرضية بالمخ تكمن وراء حالات المرض العقلى كان بمثابة نقطة حاسمة هامة فى تقدم الطب العقلى واتصاله اتصالا مباشرا بالطب بوجه عام .

ولا شك أن التقدم الذى أحرزته المدرسة الفسيولوجية فى مجال الطب العقلى قد تأيد بالمكتشفات الرئيسية فى مجالات تشريح المخ وفسيولوجياته ، وكذا بالمكتشفات الجديدة المتعلقة بتركيب ووظائف أجزائه الدقيقة . ولقد كان من أهم تلك المكتشفات الخلايا الهرمية الضخمة بمنطقة الحركة بقشرة المخ فى عام ١٨٧٠ بواسطة بتز Betz الذى أشار إلى دورها فى الوظيفة الحركية .

وفى نفس الفترة وجد فرتش fritsch وهتزج hitzig أن إثارة المنطقة الحركية بقشرة المخ قد أحدثت أنماطا خاصة من الأرجاع بالجهاز الحركى المجاور. وكان من أكثر أنصار المدرسة التطورية فى مجال الطب العقلى كريبلين kraepelin بألمانيا ومودسلى maudsley ببريطانيا ودوبر dupre (١٨٦٢-١٩٢١) بفرنسا . ولا شك أن العالم الروسى كورساكوف korsakov كان متأثرًا بداروين إلى حد بعيد، وكان عالم الطب العقلى مودسلى (١٨٣٥ - ١٩١٨) واحدا من مؤسسى الطب العقلى للأطفال ، وقد أثر إلى حد بعيد فى الطب الشرعى والعلاجى .

وبنهاية القرن التاسع عشر ، حدث تقدم عظيم فى البحث فى فسيولوجيا الجهاز العصبى . وكان اكتشاف سيخينوف sechenov للكف المركزي ذا أهمية خاصة فى هذا المضمار . وهذا مكن من التوصل إلى نتائج بعيدة المدى . والواقع أن ما ذهب إليه من أن الانعكاسات هي الوظيفة االرئيسية للمخ بحيث تقوم على أساسها جميع العمليات العقلية ، قد ساعد على دعم الاتجاه الواقعى فى علم النفس وفى الطب العقلى . وكان له أثر ثورى فى هذين المجالين .

أما بالينسكى balinsky (١٨٢٧ - ١٩٠٢) فإنه اعتبر المرض العقلى مرضا أصاب المخ ، مؤكدا التقسيم القديم لأمراض المخ إلى أمراض عصبية وأمراض عقلية .

وثمة تقدم آخر تم فى مجال الطب العقلى حدث على يد بافلوف (١٨٤٩ - ١٩٣٦) الذى قال بالآليات الفسيولوجية بالنشاط العصبى الأعلى . وكان لاكتشافه المبادئ التى تقوم عليها الترابطات المؤقتة التى تقع خلف النشاط العصبى الأعلى أهمية كبيرة فى التقدم بطرق التشخيص الموضوعى للآليات المرضية الفسيولوجية التى توجد بالاضطرابات العقلية والعصبية .

أما سيجموند فرويد (١٨٦٦ - ١٩٣٩) فإنه يعد من أصحاب النزعة المثالية فى الطب النفسى . فهو يعتبر الحياة العقلية للإنسان صادرة عن بواعث لا شعورية وليس عن بواعث شعورية . ولقد عمد فرويد إلى تفسير جميع أشكال المرض العقلى بأنها صراعات بين الشعور واللا شعور . واللاشعور لديه عبارة عن مجموعة من الغرائز والرغبات العمياء (وبخاصة الليبيدو الجنسى) التى يزعم أنها تظهر منذ

الميلاد وتسيطر على جميع النشاط الحيوى لدى الكائن الحى . والشعور فى نظر فرويد محكوم بواسطة هذه الغرائز البدائية التى تؤثر حتى فى الحياة الاجتماعية . ولا يختلف يونج وأدلر تلميذا فرويد عن أستاذهما من حيث الاتجاه العام . فتبعًا ليونج فإن السلوك الإنسانى - وفقًا لما أطلق عليه اسم علم النفس التحليلى - محكوم بعوامل جمعية وفردية، بينما يعتبر المرض النفسى حلقة مفقودة بين هذه العمليات العقلية، وينشأ عن رغبة لم تشبع هى الرغبة فى إحراز القوة « will-to-power» .

وثمة مدرسة يطلق عليها اسم المدرسة الفرويدية الجديدة بزعامة (هورنى horney وفروم fromm وسليفان sullivan) يؤكد زعماؤها الدور الذي تلعبه المؤثرات الاجتماعية والثقافية فى طبيعة الأمراض العصابية؛ ولكنهم يقصرون دور الثقافة على مشكلات تربية الأطفال . ولقد أثرت المدرسة الفرويدية إلى حد بعيد فى الاتجاه السيكودينامى المعاصر ، وهو الاتجاه الذى وجد قبولا واسع النطاق بالولايات المتحدة الأمريكية . ولعل اتجاه ماير Mayer المسمى بالاتجاه السيكوبيولوجى بمثابة محاولة لإصلاح مفاهيم فرويد حول الباعثية اللاشعوريية لدى الفرد، وذلك بصبغها بصبغة فسيولوجية واجتماعية .

وأما المدرسة المعاصرة التى تطلق على نفسها اسم المدرسة السيكوسوماتية بزعامة (ألكسندر Alexander وويس Weiss ودنبار Dunbar) فهى أيضا محاولة انتقائية . فبينما ينادى زعماء هذه المدرسة بدراسة الفرد باعتباره وحدة نفسية وجسمية ، ويحذرون من المبالغة فى الاعتماد على الطرائق العملية فى البحث، فإنهم يستخدمون إلى حد بعيد المبادئ المثالية المتعلقة بعلم نفس العمق بالإضافة إلى المعلومات الخاصة بعلم وظائف الأعضاء، وبخاصة ما أشار إليه بافلوف .

وتجدر الإشارة أيضًا إلى مدرسة كرتشمر (١٨٨٨ - ؟) المعروفة باسم المدرسة التكوينية . ويعتقد كرتشمر أن الأمراض محدودة وراثيا بطريقة مسبقة بواسطة جبلة الشخص فى تكوين جسمه . وفى رأيه أن لدى كل فرد سمات تتعلق بالمرض العقلى الذى يمكن أن يصاب به . والفرق بين الشخص المريض والشخص السوى إنما هو فرق في الكمية فحسب ، أى أن المرض العقلى هو تضخم فى النقائص الفطرية الموجودة بجبلة المرء وتكوينه الأصلى .

وهناك أخيرًا بعض علماء الطب العقلى قد تأثروا بالمدارس الفلسفية المثالية. من هؤلاء بوجه خاص النزعة الوجودية (جاسبرز Jaspers وبنزوانجر Binswang-er وغيرهما) وينظر أتباع هذا المذهب إلى المرض العقلى باعتبار أنه شكل خاص من « الوجود فى العالم » لا يتطلب كثيرًا من الدراسة الطبية البيولوجية بل يتطلب تفهمًا حدسيا (١) .

دور الوراثة والبيئة في الجنون :

هناك أسباب متعددة للجنون . ولقد ظل الناس لفترة طويلة وهم يعزون الجنون إلى العوامل الوراثية بغير تدخل من جوانب العوامل البيئية . أما اليوم ، فعلى الرغم من الاعتراف بأهمية العوامل الوراثية ، فإن المسئولية لا تلقى برمتها على تلك العوامل ، بل تشاركها فيها أيضًا العوامل البيئية .

وتبين لعلماء الصحة العقلية بمجرد الملاحظة اليومية أن أبناء وأقارب المرضى العقليين يتعرضون أيضًا للإصابة بتلك الأمراض . بيد أن المحاولات التى بذلت لتحديد الوضع بدقة فى هذه المسألة لم تلق نجاحا ، وظلت موضعا للأخذ والرد بين العلماء . والواقع أن هذه المشكلة لا تهم الدارسين المتخصصين وحدهم ، بل تهم أيضًا جميع الناس لشدة اتصالها بحياتهم ومستقبل أبنائهم وأقاربهم . فثمة دراسات اجتماعية وأخرى طبية قامت على أساس النتائج التى انتهت إليها الدراسة حول الوراثة .

وفي مجال التشريع أيضًا كان لموضوع الوراثة أهمية خاصة فى سن القوانين، ولعل النظرية حول الجريمة التى ذاعت فى منتصف القرن التاسع عشر تحت تأثير أفكار موريل Morel قد أقامت صلة وثيقة بين علم الصحة النفسية وبين علم الاجتماع .

---

(١) PORTNOV, A., and FEDOTOV, D., Psychiatry : Mir Publishers, Moscow 1969, P. 13 - 26 .

على أن مشكلة الوراثة قد بدأت فى جذب انتباه علماء الصحة العقلية تدريجيا، وأجريت دراسات كثيرة حول دور العوامل الوراثية فى الأشكال التى تتخذها الأمراض العقلية . وكانت موضوعات الدراسة هى : تأثير العوامل الاجتماعية فى الانتقال الوراثى للأمراض الذهانية - التأثير المسبق للعوامل الجسمية - دور الأب والأم وغيرهما من أقارب فى نقل الاستعدادات الوراثية إلى الجيل التالى . وكذلك قام ماجنان بوصف شكل معين من الجنون الوراثى . بينما قام منيرت بدراسة الأساس التشريحى لهذا المرض العقلى . ولكن حالما اتضحت الشواهد الأولى حول دور العوامل الوراثية فى نشوء الأمراض العقلية ، فإن المجادلات بين العلماء بدأت فى الاحتدام فأخذ بعضهم فى إبراز أهمية الوراثة ، بينما أخذ آخرون فى إنكار ذلك .

وكان الاعتقاد السائد هو أن الوراثة تلعب دورًا كبيرًا بوجه خاص فى تلك الاضطرابات العصبية النفسية neuropsychic التى تنشأ لدى الأطفال على شكل خبل عقلى أو على شكل نوبات صرع أو اضطرابات فى الوظيفة الحركية. وعندما قام لومبروزو وهو عالم الصحة العقلية بإعادة تحديد أهمية دور وأهمية انتقال العوامل الوراثية ، فإن كتابه الذى تناول فيه هذه المشكلة لقى رواجا كبيرا فى منتصف القرن التاسع عشر ، وجذب اهتمام كل من المشتغلين بالطب والبيولوجيا .

وتفسير انصراف العلماء عن الضرب فى هذا الطريق يكمن أولا فى الفشل فى إحراز النتائج المتوقعة خلال سنوات متعددة من البحث فى أهمية العوامل الوراثية . ومن جهة ثانية فإن قيام نظرية الوراثة قد عجز عن تحديد فاعليتها فى حياة الإنسان ، وبخاصة فيما يتعلق بانتقال الأمراض العقلية . وأخيرا فإن الاتجاهات السياسية فى بعض الدول لم تكن لترحب بتأكيد العوامل الوراثية لأنها تقوم أساسا على مبدأ ترجيح دور العوامل البيئية فى حياة الإنسان ، وبخاصة ما كان متعلقًا بالاقتصاد والتربية . ولكن اليوم وقد تمت دراسة المشكلات المتعلقة بالأسس الفيزيائية الكيميائية للوراثة بطرائق متطورة ، فقد أمكن فتح مجالات جديدة أمام البحوث المتعلقة بالصحة العقلية للوقوف بدقة على الدور الذى تلعبه الوراثة فى الأمراض العقلية .

ففى الوقت الحاضر نجد أن علماء البيولوجيا عاكفون على إماطة اللثام عن التكوين النووى للعنصر الأساسى بالكرموزوم (desoxyribonucleic dna acid) ودوره كحامل للمقومات الوراثية .

ومما لا شك فيه أن ما أحرزه علم البيولوجيا الوراثى من تقدم إنما يسهم بشكل واضح فى تقدم البحث في الصحة العقلية . أما فيما يتعلق بالدراسات الإحصائية ، فإنها تتم عن طريق عمل مسح للمجموعات المتأثرة بالوراثة ، وأيضا عن طريق دراسة التوائم . ولقد لعبت المفاهيم البيولوجية العامة دوورًا رئيسيا فى تطور وجهات النظر النظرية حول أسباب الأمراض العقلية وآليتها . ومن أمثلة ذلك المدارس الحديثة للصحة العقلية التى شكلت تحت تأثير نظرية برنار bernard عن الاتزان البدنى homeostasis، ثم نظريات بافلوف حول النشاط العصبى الراقى ، ومفاهيم سولى solye حول تكيف الأعراض المتزامنadaptation syndrome ، ومفاهيم دافيدوفسكى davydovsky عن التطابقات فى تكرار تطور المرض .

ولقد تأكد للعلماء أن الاضطرابات التي تقع فى نظام الاستعدادات الوراثية تلعب دورًا حاسمًا فى ظهور منشأ الأمراض العقلية . ومما لا شك فيه أن ظهور أحد الأمراض النفسية أو مجموعة من أعراضه المتزامنة وتزايد شدته إنما يرتبط ارتباطًا مؤكدًا بالعوامل الوراثية وبالظروف التي تعمل فى ظلها . وإنه من المستحيل عمليًا فى كثير من الحالات إماطة اللثام عن تأثير أحد المقومات بالذات ، إذ إن العوامل الوراثية لا تظهر إلا فى ظل ظروف بيئية محددة من جهة ، ولأن مجموعة من العوامل المرتبطة تتدخل تدخلا قويا فى المواقف بحيث لا يكون لأحدها تأثير مستقل من جهة أخرى ، وبالإضافة إلى هذا فإن معظم الإرثات Genes لا تتحكم فى الأعراض أو فى مجموعات الأعراض المتزامنة نفسها ، بل تكون هناك فقط إمكانية لاحتمال ظهورها فى ظل الظروف المناسبة التى توجد فى نطاقها . والواقع أن دراسة الدور الذي تلعبه العوامل الوراثية فى الأمراض العقلية معقدة جدًا فى حد ذاتها ، ولكن الأهمية النسبية لهذه العوامل تتباين إلى حد بعيد . ذلك أن معظم الأمراض العقلية ومجموعات الأعراض المرضية المتزامنة (الفصام والذهان والصرع... إلخ) إنما ترتبط بالطفرات الوراثية . أما بالنسبة لبعضها الآخر فثمة دور معين يلعبه فى نشوئها بواسطة الانحرافات الكروموزومية والاضطرابات التى يمكن تمييزها بالميكروسكوب .

وفى مقابل التجريب على الوراثة ، حيث استخدمت طرائق الإنجاب من صلب

أسرة واحدة لدراسة الحتمية الوراثية ، فإن علماء وراثة آخرين استخدموا طريقة ملاحظة الظواهر التى يتخذها الإرث الطفرى mutant القابل للانتقال خلال عدد من الأجيال، مع الأخذ فى الاعتبار مدى انتقاله وظهوره . وفى بعض الأحيان تستخدم نماذج تجريبية أيضًا فى دراسة مرض ما (الصرع مثلا) . والواقع أن الدراسات التتبعية لمجموعة من الأسر المصابة بأمراض عقلية تجعل من الممكن تتبع سلسلة الحالات الثانوية للمرض التي تشبه بشكل مباشر فى مسارها مظهرها المرضى وعددًا من خصائصها . فمثلا أمكن تتبع بعض حالات الفصام فى إحدى الأسر لعدة أجيال بغير انقطاع . ووجد أن الظروف تجعل هناك انحرافا فى الوراثة بحيث لا يظهر المرض فى أحد الأجيال .

وعلى هذا فإن التبسيط المبالغ فيه والاقتصار على تناول حالات الأمراض من زاوية الوراثة فقط أو من زاوية البيئة فقط ، إنما يضر بالدراسة ذاتها ويضلل الدارس . فواقع الأمر أن الإنسان فى تطور نموه لا يمكن أن يعتبر وراثة فقط أو نتيجة عوامل بيئية فقط، وإنما هو كائن معقد أشد التعقيد ، وهو حصيلة مستمرة لتفاعل المقومات الوراثية مع المقومات البيئية .

تصنيف الأمراض العقلية :

لم يكن ينظر عند تصنيف الأمراض العقلية حتى نهاية القرن الماضى إلا إلى الأعراض المرضية ، فكان يتم التصنيف فى ضوئها ، ولكن اليوم تؤخذ فى الاعتبار أسباب المرض، وعلى هذا تنقسم الأمراض العقلية إلى :

أولا – أمراض عقلية مرتبطة بالأمراض المعدية وتشمل :

(أ) الاضطرابات العقلية الناشئة عن الأمراض المعدية الحادة (بالتيفوس والتهاب الرئتين والإنفلونزا ... إلخ) .

(ب) الاضطرابات العقلية التى تحدث فى حالات الأمراض المزمنة (زهرى المخ ، والشلل العام الناشئ عن ميكروب يصيب المخ ، والتهاب الدماغ الوبائى) .

ثانيًا – الأمراض العقلية الناجمة عن التسمم وتشمل :

(أ) الاضطرابات العقلية فى التسممات الوظيفية (الرصاص ، ورابع إيثيل الرصاص وأول أوكسيد الكربون) .

(ب) إدمان المخدرات والمشروبات الروحية .

ثالثًا – الاضطرابات العقلية المرتبطة بحدوث عطب بالمخ وتشمل :

(أ) الأمراض العقلية الناشئة عن الإصابات الشديدة .

(ب) الاصابات الحادثة بالدماغ.

رابعًا – الاضطرابات العقلية المصاحبة للأمراض الجسمية وتشمل :

(أ) الاضطرابات العقلية المصاحبة لأمراض القلب .

(ب) الاضطرابات العقلية المصاحبة لأمراض المعدة والأمعاء .

خامسًا – الاضطرابات العقلية المرتبطة بالسن وتشمل :

(أ) الأمراض العقلية السابقة على الشيخوخة .

(ب) الأمراض العقلية المزامنة للشيخوخة .

سادسًا – انفصام الشخصية .

سابعًا – المرض الهوسي الاكتئابي .

ثامنًا – الصرع .

تاسعًا – الأمراض العصابية: (النيوراستنا – السيكاستينا – الهستيريا– الوساوس– والأعمال القهرية).

عاشرًا – الشخصية السيكوباتية .

أحد عشر – التأخر في النمو العقلي .

ولسوف نعرض فيما يلى لأهم الأمراض العقلية التى قد توجد أطياف منها فى العبقرية .

الصرع :

يرتد لفظ epilepsy إلى الأصل اليونانى epilepsia ومعناه «الوقوع المفاجئ» أو « النوبة المفاجئة » . ولقد اعتبر أبقراط أن الصرع مرض قائم بذاته، وشاع ذلك منذ أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد . والواقع أن هناك نوعين من الصرع : صرع عرضى وصرع حقيقى .

فإذا كانت نوبات الصرع أعراضًا لغير ذلك من أمراض ، فإن الصرع يكون إذن عرضيا ، ومن أمثلة ذلك الصرع الناتج عن الزهرى العصبى والتهاب الدماغ ، والعطب الذى يصيب المخ ، والإصابات وغير ذلك ، بينما يعتبر الصرع الحقيقى مرضا قائمًا بذاته على أساس حدوث اضطرابات فى عملية الهدم والبناء الجسمية.

وتختلف أعراض الصرع اختلافًا واسع النطاق من حالة إلى أخرى . ولكن يمكن تقسيم جميع الظواهر المشاهدة فى الصرع إلى أربع مجموعات أساسية : النوبات والاضطرابات الشعورية ، واضطرابات المزاج والتغيرات الصرعية فى الشخصية المتسمة بالتأخر فى التفكير بوجه خاص .

وتقع النوبة الصرعية غالبا بطريقة مفاجئة وبغير سابق إنذار ، وبغير أى سبب معقول مباشر . فيفقد المريض الشعور بما حوله ويقع . ويكون الوقوع نتيجة توتر شديد حاد بجميع عضلات الجسم . ولكن مادام التوتر يكون موزعا بغير تساو على العضلات ، فإن المريض يقع غالبا إلى الأمام والجنب ، وقلما يقع إلى الخلف . وثمة صيحة متميزة تسمع من المريض أثناء وقوعه . وسرعان ما ينشأ أنقباض حاد لدى المريض ، فتتمدد الذراعان والساقان بشكل ينم عن توتر عضلى حاد ، وكذلك فإن عضلات الجذع تأخذ فى التوتر على نفس النحو . ولا تكاد تمر عشرون أو أربعون ثانية حتى يحل محل التقلص الحاد تقلص ارتجافى ، يتبدى فى انقباضات إيقاعية لعضلات الأطراف . أما وجه المريض فإنه يضبرب إلى الصفرة الشديدة ثم يصير ضاربا إلى الزرقة . أما إنسانا العينين فإنهما يتسعان وتفقد العين الاستجابة الانعكاسية للضوء . ثم إن انعكاس الركبة أيضا لا يحدث إذا ما ضرب المريض ضربات خفيفة تحت الركبة ، وبالإضافة إلى هذا فإن المريض لا يستجيب لأقوى المثيرات . وتوجد رغاوى بالفم فى أثناء النوبة مختلطة بالدم الناتج عن عض المريض

للسانه أو عض السطح الداخلى للخدين، وتكون النوبة الصرعية مصحوبة غالبا بعدم ضبط التبول وأحيانا بعدم القدرة على ضبط عملية التبرز أيضا. وبعد أن يزرق وجه المريض فإن عضلاته تأخذ فى الارتخاء شيئا فشيئا . ولكن يظل شعور المريض خافتا ومشوشا بعمق . ولا تزيد النوبة عن أربع أو خمس دقائق ، ويتبعها استغراق المريض فى النوم العميق .

ولا تقع النوبات لدى بعض المرضى إلا فى أثناء النهار ، بينما تقع لبعضهم الآخر فى أثناء الليل . أما عدد مرات حدوث النوبة فإنه يختلف من مريض لآخر اختلافا واسع النطاق ، فلدى بعضهم تحدث النوبات كل يوم ، بينما تحدث لدى بعضهم الآخر مرة واحدة فى الأسبوع ، أو مرة فى الشهر ، أو حتى أقل من ذلك . وفى بعض الحالات فإن النوبات تتبع الواحدة منها الأخرى لعدة ساعات مستمرة . ولقد تكون الفترات الواقعة بين كل نوبة وأخرى قصيرة جدا لدرجة أن المرضي يفشلون فى استعادة شعورهم . ويطلق على هذه الحالة اسم الحالة الصرعية Epi-leptic state وفى مثل هذه الحالات يكون من الضرورى اتخاذ إجراءات عاجلة لأنها قد تنتهى إلى نهايات وخيمة .

وهناك بعض المرضى يستطيعون أن يتنبأوا بالنوبة قبل وقوعها بيوم أو يومين فيبدأون بالإحساس بأنهم على غير ما يرام ، وبأنهم ضعاف بوجه عام، وأن معنوياتهم منخفضة . وتبدأ النوبة لدى عدد كبير من المرضى بنفس طويل يستمر لثوان قليلة . وتختلف ظواهر النفس الذى يتخذه المريض من واحد لآخر . والمعتاد أن يصبح المريض فى أثناء أخذ النفس الطويل مصفرًا ثم يتحول إلى اللون الأحمر . ويحس بأن فمه جاف . وفى بعض الحالات يكون النفس الطويل الذي يتخذه المريض مصحوبًا بأحاسيس غير مريحة فى أجزاء متعددة من الجسم أو إصابة المريض بالهلوسات وتكون فى الغالب هلوسات منظورة فيرى المريض ومضات ضوئية أو لونا ناصعا . وأخيرا وفى بعض الحالات يكون النفس الذى يتخذه المريض مصحوبا بالجرى وبالقذف بالذراعين والقيام بحركات لا معنى لها . وأخيرًا فهناك حالة يكون المريض خلالها خائفًا أو مارًا بحالات معينة من الإحساس بالرضى ، إذ يبدو كل

شىء حوله بسيطا وواضحا . بيد أن النوبات قد تكون مصحوبة بفقدان الذاكرة . بحيث لا يكاد المريض يتذكر شيئا مما وقع له .

ويظهر لدى كثير من المرضى ما يسمى بفقدان القدرة على الكلام المصحوب بنسيان ما وقع ، ويستمر هذا بعض الوقت ؛ فالمريض لا يستطيع تذكر أسماء وأرقام الأشياء ، على الرغم من أنه يعرف الأغراض التى تستخدم فيها تلك الأشياء. والواقع أن هذه االفترة تتميز بعدة أعراض أخرى تؤكد أن الحالة هى حالة صرع حقيقى . فمثلا نجد أن اختبار المناطق الانعكاسية بالذراعين فى منطقة مفاصل الكوع يؤكد وجود بقع معينة بها نزيف .

وحيث إن النوبة الصرعية تقع فجأة وفى ظل أية ظروف . فإنها قد تنتهى إلى وقوع إصابات خطيرة للمريض . فمثلا كانت هناك مريضة بالصرع قريبة من تنك كانت تغلى به ملابسها ، وفجأة هاجمتها النوبة ، فوقعت على المرجل وحرق ذراعها . ولكن بالإضافة إلى النوبات الصرعية الكبيرة . فإن هناك نوبات خفيفةpetit mal.

والنوبة الصرعية الخفيفة تستمر لمدة ثوان قليلة . والمريض بالصرع الخفيف لا يقع ولا تصيبه التشنجات . كما هو الحال فى الصرع الشديد grand mal ولا تلاحظ فى حالات الصرع الخفيف سوى تقلصات خفيفة فى مختلف العضلات . وفى بعض الأحيان يسلك المرضى بطريقة غريبة خلال وقوع النوبات فهم يستمرون فى مكان واحد ويقومون بعمل أشياء غير متسقة .

الاضطرابات الصرعية المتصلة بالشعور :

هناك اضطراب صرعى بالشعور يعرف باسم الغياب absence يفقد المريض خلاله شعوره لمدة ثوان قليلة . فمثلا يبدو المريض خلال أدائه للعمل أو الحديث، وقد تجمد ووقف عند نقطة واحدة ، ثم ما يفتأ يستمر كأن شيئًا لم يقع له ولا يكاد يدرك المرضى أنفسهم هذه الحالة . وحتى الناس المحيطون بهم لا يكادون يدركون ذلك.

أما الحالة الأشد انحطاطًا twilight state فإنها تتصف باضطراب أطول فى الشعور . ولقد تستمر تلك الحالة ابتداء من دقائق قليلة إلى عدة ساعات ويتحدد سلوك المرضى خلال هذه الفترة فى ضوء الخبرات الوخيمة التى مروا بها ، فمثلا نجد أن الحالة المتدهورة تكون مصحوبة فى حالات ليست قليلة بالهلوسات .

فقد يرى المرضى أحيانًا صورًا مزعجة مخيفة، ويسلكون وفق ما يشاهدون فى هلوساتهم فتجدهم يخبئون وجوههم أو يلوذون بالهرب ، أو يهاجمون الأشخاص المحيطين بهم ، ولقد يقوم المرضى فى أثناء النوبة باقتراف الجرائم أو بتحطيم الأشياء المحيطة بهم . ولذا فإن مثل هولاء المرضى يخضعون فى بعض الأحيان لفحص الأطباء العقليين . فمثلا نجد أن إحدى المريضات بالصرع قد أغلقت على نفسها شقتها ومعها طفلها البالغ من العمر سنتين. واستمرت حالتها الصرعية لعدة ساعات ، وعندما أفاقت لم تستطع العثور على طفلها . فأبلغت الشرطة التى سرعان ما اكتشفت أجزاء من الهيكل العظمى للطفل محروقاً بالمطبخ.

والواقع أن جميع الجرائم التى يقترفها المصابون بالصرع فى تلك الحالات المتدهورة تتصف بعدم الاتساق والوحشية . والمرضى المقترفون للجرائم لا يحاولون اللوذ بالفرار . وفى جميع الحالات – تقريبا من الحالات المتدهورة – تكون النوبة متبوعة بفقدان ذاكرة كامل ، بحيث لا يكون المرضى قادرين على أن يذكروا أى شىء فيما يسمى بتصرفاتهم أو سلوكهم .

ويتغير شعور المريض بالصرع التدهورى أيضًا فيما يسمى بحالة الغيبوبةtrance وتقع هذه الحالة أيضا فجأة وقد تستمر عدة أيام أو حتى عدة أسابيع . وفى هذه الحالة قد لا يجذب المرضى أى انتباه إليهم . لقد يسافر الواحد منهم من ضاحية إحدى المدن إلى ضاحية أخرى . وإنك لتجد الأشخاص الذين مروا بمثل هذه الحالات يقصون كيف أنهم سافروا إلى جهة لم يقصدوا السفر إليها. وفى ذات مرة انخرط أحد المرضى فى غيبوبة أثناء رجوعه إلى بيته من عمله . وعندما استعاد شعوره لم يكن قادرًا على تذكر الشارع الذى كان يسير فيه عندما وقعت له النوبة ، وأخذ يطلب من المارة إرشاده إلى أحد الميادين العامة .والمدهش أنه وجد نفسه بمدينة أخرى غير مدينته : وبناء على هذا فقد اكتشف أنه وقع فى غيبوبة وسافر خلالها من مدينته إلى المدينة الأخرى، وأنه اشترى تذكرة واستقل القطار بغير أن يثير ذلك انتباه أحد بأنه فى غيبوبة صرعية .

وعندمـا يقـابل هؤلاء المـرضى أقـاربهم أو أصـدقـاءهم . فـإن أولئك الأقـارب والأصدقاء يلاحظون أحيانا أن وجوههم عليها تعبيرات غريبة وقد أصابها نوع من التـغـيـر . ويكون المـرضى فى تلك الحـالة ملتـزمين الصـمت ويعـجـزون عن تقـديم إجـابات عن الأسـئلة التى توجه إليـهم بخصـوص مـا أصـابهم من تغيـرات ، ولقـد يلاحظ أن استجابات حدقتى العين للضوء قد تغيرت ، كما تلاحظ عليهم انعكاسات مـرضية . وهناك بعض المرضى ينخرطون فى غيبوبة خلال العمل . ولكنهم يستمرون فى أدائه على خير وجه مع عجزهم عن ذكر شىء مما اضطلعوا به .

الإنحرافات المزاجية في حالات الصرع :

تتسم حـالات الصـرع بحـالات انقبـاض فجـائية أو بالغـضب - أو فى حـالات نـادرة - بالبـهـجـة . ،وتبدأ هـذه الحـالات وتختـفى فـجـأة ، وقـد تسـتـمـر ابتـداء من سـاعات قليلة حتى عدة أيام كثيرة . وفى حالات الهبوط ، لا يكون العرض السائد هو حـالة الاكـتـئـاب melancholy بل الهـيـاج وسـرعـة الغـضـب . ويكون من الصـعب الحصول على رضا المريض الذى يكون متسما بالخبث والمكر. فالمرضى هنا يمطرون من حـولهم بمطالب غـريبـة وبالشكوى من أشـيـاء تافـهـة ، كـمـا أنهم قـد يكونون عـدوانيين . وإنك لتـجـد الواحـد من هولاء المرضى وقد سيطرت عليـه مخـاوف لا حصـر لها بحيث تلعب دورًا هاما فى حياته الانعزالية المكتئبة.

وفى الصرع نجد أن التغيرات بالشخصية تسير ببطء كما أن نمو الذهن يسير بغـيـر اطراد . بيـد أن تدهور الشـخـصـيـة لديهم يتـزايد بشـدة إذا مـا أصيب بنوبات صـرع تشنجية كثيرة . ويجب أن يلاحظ أن ميل الشخصية إلى التغيير يختلف من مـريض لآخـر، وهناك بعض مـرضى الـصـرع يحتفظون بقـدرات عقلية عظيـمـة حتى بلوغهم سنا متأخرة .

وفى الحـالات المتصـفـة بتغيـرات ملحوظة بالشخصـيـة لا يستطيع المرضى التـعـبيـر عن أفكارهـم باختـصـار . فـهم يعكفـون على ذكـر التفـاصيل غيـر الضـرورية بالموضـوع الذى يتـحـدثون فيـه ، ولا يتـمكنـون من فصل الأشـيـاء الرئيـسـيـة عن تلك الأشياء التى تحتل الدرجة الثانية من الأهمية .ويكون من الصعوبة دائمًا الإنصات إلى مثل هؤلاء المرضى أو تحويل حديثهم من موضوع لآخر . وينشأ لديهم الميل إلى

استخدام صيغ التصغير من شأنهم، ويصيرون دمثين بشكل مبالغ فيه ، كما يطلبون الصفح باستمرار عن أشياء يتوهمون أنها خدشت مشاعر الآخرين . وإنك لتجد الواحد منهم مستعدا لإذلال نفسه فى أتفه المناسبات والمواقف ، وفى نفس الوقت فإنهم يبدون سمات مضادة فى سلوكهم كالقسوة العارمة والأنانية والخبث والعدوانية . وهناك مجموعة من السمات المتعارضة فى طبيعتها تشكل الخاصية الرئيسية للشخصية الصرعية ، والمرضى بالصرع يكلفون عادة بالنظافة والنظام بإفراط مصطنع ويثيرون ضجة إذا ما غير أحد النظام الذى وضعوه لأشيائهم . وهم يكونون دائمًا مفعمين بالحقد كما يظلون فى حالة من الشكوى من تصرفات الآخرين لمدة طويلة . ولقد يأخذون فى وضع الخطط للانتقام من أعدائهم لعدة سنوات .

وكقاعدة عامة فإن المرضى بالصرع يصابون بعطب فى الذاكرة . وهم يجدون أن من الصعب بوجه خاص أن يتعلموا شيئا جديدا . ويكونون جادين ومنظمين فى عملهم بطريقة غير عادية . إذا ما وصف دواء لواحد من مرضى الصرع ، فإنه يدأب على التأكد من تناوله فى الموعد المحدد بدقة بالغة ، ويأخذ به الغضب كل مأخذ إذا ما حدث أى اختلال فى نظام تناول الدواء . وينصب المرضى بهذا المرض من أنفسهم قضاة مناصرين للعدالة. وبذا فإنهم يلاحقون الآخرين بالنقد عن كل تصرف يبدو خطأ فى سلوكهم ، كما ينصبون من أنفسهم مثلا عليا يجب أن يحتذى به . أما حركات المريض فإنها تصبح بطيئة وخشنة . وفيما يلى استعراض لإحدى حالاات الصرع قد تساعد على إيضاح أعراض هذا المرض العقلى :

المريض س بلغ من العمر ٢٢ سنة ، حول إلى العيادة النفسية فى عام ١٩٥٣ .. لقد كان الطفل الأول فى أسرته ، وأخذ فى النمو والتفتح بشكل عادى . وكان مزاجه معتدلا وله علاقات سوية بالآخرين وفي السن المحددة للقبول بالمدارس الابتدائية سجل ضمن التلاميذ المقبولين ، ولكنه ترك المدرسة بعد سنتين وبدأ العمل بأحد المصانع .وكانت أول نوبة أصابته قد حدثت له مع فقدان شعوره فى عام ١٩٤٨ ، ومنذ ذلك الحين والنوبات تعاوده فى فترات منتظمة مرة كل شهر ، وفى بعض

الأحيان كانت النوبات فى حلقات من عشر مرات إلى اثنتى عشرة مرة خلال الليل .، وقبل أن تعاوده النوبة كانت تنتابه مشاعر معينة أشار إليها بأنها « إحساس بثقل في الرأس وفى نفس الوقت كان يحس رائحة قوية محببة شبيهة برائحة معينة كان يحبها . وبعد ذلك لم يكن يحس بأى شىء مما يدور حوله » ولقد عرف المريض من المحيطين به أنه كان يصاب بتشنجات وأنه كان يتبول لا إراديا فى أثناء النوبة .

بدأت ذاكرة هذا المريض بالضعف تدريجيا ، لم يعد بمقدوره الانتظام فى عمله أو الالتحاق من جديد بالمدرسة . ولكن لوحظ أن النوبات الصرعية أخذت فى القلة تدريجيا . ولم يلاحظ عليه الطبيب أية تغييرات مرضية، ولكن لوحظ أن فى وجهه انحرافا بسيطا عن السيمترية . أما حالته العقلية فإنها كانت تتسم بالقدرة على الاتصال بالمعالج وبأنه يتحدث عن نفسه، ولكنه كان يتحدث ببطء ملحوظ كما كان يتشدق فى كلامه وكان صوته رتيبًا وبنغمة رتيبة ، وكان يجد فى بعض الأحيان صعوبة فى العثور على الكلمة المناسبة للمعنى الذى يقصد إليه ، أما حركات وجهه فإنها كانت رتيبة وغير معبرة ، كما أن حركاته بوجه عام كانت غير مصقولة وبطيئة ، ويجيب عن الأسئلة الموجهة إليه بتفاصيل كثيرة غير ضرورية وغير جوهرية .

أما ذاكرة المريض فإنها كانت ضحلة . وكان مستعدا دائما لتلبية النداء فى العمل، ولكن بادعاء وتكلف . كما أنه كان يحتفظ بالملاحظات التى يبديها الأطباء حول حالته، وبخاصة الأدوية التى يصفونها لعلاجه ، كما يستمسك ببعض النصائح التى صادفها بأحد الكتب . ومنذ أن أصيب بنوبات المرض تغيرت شخصيته ، وصار غير راغب فى إقامة علاقات اجتماعية جديدة ، كما أنه صار شكسا ، وانكمشت دائرة اهتماماته، وعلى الرغم من دقته وكلفه بالنظام ، فإنه لا يكاد يستفيد دراسيا من التحاقه بإحدى المدارس المسائية (١) .

---

(١) G. MOROZOV and V. ROMASENKO. Neuropathology and Psychiatry, trans by DAVID A. MYSHNE, Peace Publishers, Mosro W. P. 197-205.

انفصام الشخصية :

يرجع لفظ إسكيزوفيرنيا (أو شيزوفرنيا) schizophrenia إلى اللغة اليونانية، ومعناه انشقاق النفس «أو انقسام الروح ». ويتبدى انفصام الشخصية غالبا غالبا ابتداء من الأعمار فيما بين الثامنة عشرة والثلاثين ، وهو من أكثر الأمراض العقلية انتشارا بين الناس ، ولقد قدم كورساكوف وكريبلين وبلولر معلومات قيمة حول هذا المرض .

قد تحدث الحالات التى يظهر فيها المرض لأول مرة بطريقة فجائية وحادة ، كما قد تكون تدريجية ، فإذا ظهر المرض بحدة وبشكل فجائى ، فإنه يتسم فى الغالب إما باضطراب حركى وإما انكماشى كامل وامتناع عن كل نشاط ممكن فى الأحوال العادية .

وفى كثير من الحالات فإن العلامات الأولى للمرض تتمثل فى أشكال معينة من الصداع ، فيبدأ المرضى فى الشكوى من الإحساس بالضغط فى الرأس كما لو أن الرأس على وشك الانفجار. وهذا يكون فى الغالب مصحوبا باضطرابات فى أثناء النوم . وكلما كان المريض أصغر سنا ، كثر ميله إلى النوم ، وعلى العكس كلما كان المريض أكبر سنا، زادت عندئذ ظاهرة الأرق .

وتتسم بعض الحالات بالضعف العام والكسل . فيحس المريض فى حضرة الأصدقاء بأنه أخرق ، ولذا فإنه يفضل العزلة، وفى بعض الأحيان يمكث هؤلاء المرضى فى شققهم لا يبرحونها ولا يظهرون فى حضرة أحد لمدة طويلة . وعلى العكس من ذلك فإن هناك مرضى آخرين قد يهيمون على وجوههم بالطرقات بعد إصابتهم بالمرض لعدة ساعات أو حتى لعدة أيام بغير انقطاع وبغير أن يعرفوا إلى الراحة سبيلا. ولقد يصير بعض المرضى قابلين للاستثارة لأتفه الأسباب وبخاصة مع أقرب الناس إليهم ، ومع تقدم المرض فإن الطلبة المصابين به يجدون صعوبة متزايدة باطراد فى استيعاب دروسهم أو العكوف على الاستذكار . وهم يجدون أن عملية تعلم أى شىء جديد عملية مضنية، أو يمسكون عن تفهم أى شىء تقع عليه أبصارهم. ولذا فإنهم يعيدون قراءة نفس الصفحة عدة مرات . وفى بعض الأحيان

يقرر المرضى أنهم قد تغيروا على نحو لم يسبق لهم عهد به ، وأنهم لم يعودوا كما ألفوا أنفسهم ، ومن ثم فإنهم يحسون بارتباك مستمر .

ويتسم مرض انفصام الشخصية بإصابة المريض بالهلوسات ، وبخاصة ما كان متعلقا بحاسة الشم وحاسة السمع . ففى حالات الهلوسات الشمية . فإن المرضى يشمون بعض الروائح الكريهة والمنفرة أو الغازات المتباينة. ويعتقد بعض المرضى أنهم هم أنفسهم مصدر تلك الروائح الكريهة المنفرة . فمثلا اعتقد أحد المرضى أنه يشم رائحة بول نزل على ساقيه عندما كان طفلا صغيرا . ولقد حاول هذا المريض جهده التخلص من تلك الرائحة ، وذلك بالاستحمام عدة مرات كل يوم ، ودعك جسمه بالماء والصابون بشدة . أما فى الحالات التى يكون المريض مصابا فيها بهلوسات السمع ، فإنه يسمع أصواتا تصدر إليه أوامر أو تؤنبه على سوء سلوكه . وفى بعض الأحيان لا يسمع المريض إلا نداء اسمه فقط . وتختلف مواقف المرضى من الهلوسات التى تصيبهم ، فقد يعمد الواحد منهم إلى نقد نفسه، وقد لا يؤنب نفسه على الإطلاق .

وتظهر لدى الفصامى عدة أشكال من اضطرابات التفكير ، ومن أكثر تلك الأشكال شيوعا ما يسمى بالتوقف عن التفكير ، وإعاقة التفكير ، والانفصام والميل إلى استخدام الرموز . ويقرر المرضى فى بعض الأحيان أن جميع أفكارهم تختفى فجأة ، ثم تعود بعد ذلك إلى الظهور بعد فترة . وفى بعض الأحيان يفقدون قدرتهم على توجيه فكرهم . وتعرف الأفكار المتعددة التى تحدث للمرضى بغير إرادة من جانبهم بالفكرية mentism.

وفى بعض الأحيان قد تعمل فى ذهن المريض أفكار متعارضة بعضها مع بعض على طول الخط ، أو تعتمل لديه رغبتان متضاربتان تماما .

ويتسم أيضًا المريض بالانفصام بالاسترسال في الخيال والانصراف تماما عن عالم الواقع والحقيقة ، وتشبثه بالميل إلى التركيز المرضى على الذات . وهذا يظهر بصفة خاصة فى المراحل الأولى من المرض . وفى مثل هذه الحالات يكون

من الصعب تماما التحدث إلى المريض والتوصل معه إلى اتفاق . فمثلا إذا كان المريض يتحدث إلى أى شخص ، فإن ما يتحدث عنه لا يكون له أى صلة بالحديث الموجه إليه .

وبعض المرضى يبدون أنهم فى بيئتين مختلفتين فى وقت واحد . فالمريض قد يذكر لك اسم المكان الذى يوجد فيه بغير أن يخطئ فى ذلك ، ولكنه مع هذا يعتقد أنه مزجوج به فى السجن .

والمرضى بالفصام كثيرا ما يصابون بهذاءات تتصل بالإشارة إليهم من جانب الآخرين، أو يصابون بالإحساس بالاضطهاد والمطاردة ، أو بأن الآخرين يؤثرون فى مجريات حياتهم وفى رصد مستقبلهم والإضرار بمسارهم أو بتسميمهم ، كما تسيطر عليهم الوساوس المختلفة .

وفى بداية المرض لا تكون الهذاءات منتظمة . ولكنها تأخذ بعد ذلك فى التبلور فى شكل نظام معقد . وفى بعض الأحيان تكون الاضطرابات فى مجرى الفكر ملحوظة . فالمريض ينطق بعبارات سليمة من الناحية النحوية . ولكنها تكون عبارات مفتقدة إلى العلاقات المنطقية . ومن الملاحظ بشكل واضح فى هذا المرض وجود تغييرات معينة فى القطاع الوجدانى بالشخصية . وتعتمد هذه التغيرات على مدة استمرار المرض وسياقه . ومن الملاحظ بوجه عام وجود التناقض الوجدانى بالمراحل الأولى من المرض ، وقد يفقد المريض روابطه الوجدانية تماما فى المراحل المتأخرة منه .

وهناك ظواهر مرضية متعددة لانفصام الشخصية قد وصفت كأمراض مستقلة بعضها عن بعض خلال منتصف القرن الماضى . وكانت تلك الأمراض هى ما يعرف بالكاتاتونيا catatonia والبارانويا paranoia والهيبفرنيا hebephrenia .

ولكن المشاهدات المستمرة للحالات المرضية أظهرت أن جميع الحالات المرضية الثلاث السابقة إن هى فى الواقع إلا مرض واحد ، يمكن أن يظهر بأشكال مختلفة. ولجميع أشكال المرض عدد من الظواهر المشتركة التى تساعد على تصنيفها تحت مرض واحد هو انفصام الشخصية . وتلك العلامات المشتركة هى

أولا انفصام الشخصية (تناقض المشاعر والتصرفات ووجود أفكار متعارضة برأس المريض فى نفس الوقت والإحساس بالوجود فى مكانين مختلفين) بالإضافة إلى الأستمرار فى التشبث بالخيال والزيادة المتدرجة فى الظواهر المرئية .

وهناك كثير من أشكال انفصام الشخصية قد تم وصفه بدقة ، ولكننا سنقتصر هنا على وصف الأشكال الأساسية الأربعة والأكثر شيوعا بين مرضى الفصام .

أولا – الفصام البسيط : يتصف هذا الشكل من الفصام بالخلو من الأعراض النفسية المرضية الملحوظة مثل الهلوسات والهذاءات والاضطرابات الحركية . وهذا النوع يبدأ غالبا فى طور الشباب . ويتصف بزيادة بطيئة فى الكسل وبلادة الشعور، وفى هذه الحالة يفقد المرضى الاهتمام بكل شئ يحيط بهم . وقد يمكثون بالسرير بغير أن يعملوا شيئا لعدة أيام بصفة مستمرة أما قدرتهم على إنجاز العمل فإنها تأخذ فى القلة . وفى بعض الأحيان تظهر لديهم العلامات الدالة على سرعة الغضب وبخاصة مع أقرب الناس إليهم من أقاربهم . ويلاحظ أيضًا وجود اضطراب فى التفكير ، وقد يظهر هذا فى النزعة الفكرية mentism وفي الاضطرابات فى مجرى الفكر وفى تأخر النشاط العقلى . وبمرور الوقت يأخذ ما يصيب الشخصية من تغيرات فى الزيادة المطردة وقد يصل إلى حد الجنون بمعنى الكلمة .

ثانيًا – الفصام التخشبي : وهذا الشكل من الفصام يتصف أساسًا بالاضطرابات الحركية التى تظهر فى الذهول التخشبى أو فى الإثارة التخشبية . وفى الذهول التخشبى يكون المرضى منعدمى الحركة ، وقد يتخذون أوضاعا متباينة – الوضع الجنينى مثلا .

ومن المستحيل فى الغالب محاولة تغيير وضعهم . ويصير المريض فى حالة من الصمم البادى للعيان ، أعنى أنه يفقد القدرة على الكلام والسمع ، كما أنه يتخذ فى بعض الحالات شكل الإغماء catalepsy وفى أحيان أخرى يأخذ شكل مرونة الشمع waxy flexibilitly بحيث يتخذ الوضع والشكل الذى يريده الآخرون . فمثلا إذا رفعت ذراع المريض أو رجله فإنها تظل مرفوعة لمدة طويلة .

وهناك من المرضى من يرفعون رءوسهم فوق الوسادة وهم بالسرير بحيث تكون هناك مسافة بين الرأس والوسادة ويظلون على هذه الحالة مدة طويلة جدا . وهذه الحالة تعرف « بالوسادة الهوائية » AIR CUSHION وفى بعض الحالات يتخذ فم المريض الشكل « المبوز » وهذا ما يعرف « بالعرض المبوز » .

والسلبية هى أيضا من العلامات الواضحة المميزة لهذا الشكل الفصامى . والمرضى المصابون بهذه السلبية يفشلون فى أداء ما يطلب منهم، بل إنهم قد يفعلون عكس ما يطلب إليهم عمله . فمثلا إذا سئل المريض أن يفتح فمه ، فإنه إما أن يفشل فى فتح فمه ، وإما أن يغلقه بشدة. وتعتبر السلبية هى المسئولة عن رفض المريض تناول الطعام.

ويجب أن نضع نصب أعيننا دائما أن المرضى بالفصام التخشبى قد ينحون إلى الثورة التخشبية فجأة . وتتسم الحالة الأخيرة بالعلامات الأساسية التالية: تكون حركات المريض بغير هدف وعشوائية وشاذة وقهرية غالبا .، ثم تكون حركات نمطية . وتتسم لغة الحديث بتكرار نفس الكلمة أو العبارة . وفى حالات الإثارة اللغوية ، فإن المرضى يصيحون بكلمات لا رابطة بينها ، أو بعبارات خالية من المعنى أو خالية من الروابط المنطقية بحيث لا يمكن فهمها . وهذا ما يسمى بالاضطراب فى مجرى الفكر . ويكرر المرضى أحيانا الكلمات ويقلدون تصرفات الناس المحيطين بهم . وقد تستمر الحالة الثائرة لمدة قصيرة (دقائق قليلة) أو قد تستمر لعدة أيام أو حتى لعدة أسابيع، وتتوقف الحالة فجأة كما بدأت فجأة .

ويسير تطور الأشكال الفصامية التخشبية بطريقة أقل فظاعة من الأشكال الفصامية الأخرى . وهناك بعض من حالاتها يستطيع المرضى أن يستعيدوا حالتهم الطبيعية بحيث يعودون إلى عملهم بعد فترة تقصر أو تطول من التخشب الفصامى.

الشكل البارانوي للفصام : تتسم الأعراض الرئيسية للشكل البارانوى للفصام بما يلى : تصيب المرضى هذاءات وبخاصة الهذاءات المتعلقة بالإحساس بالأضطهاد والظن بأن الآخرين يتحدثون بالسوء عنهم، أو التصميم على قتلهم بالسم ، أو التأثير فى جسمهم ، وأيضًا الإصابة بالوساوس المختلفة وأحيانًا بالشعور بالعظمة . ويلاحظ انتشار الهلوسات فى هذا الشكل الفصامى بمقدار أكبر مما يلاحظ بالأشكال الفصامية الأخرى . أما سلوك المصابين بهذا الشكل الفصامى

فإنه يتسم عادة بخبرات هلوسية وهذائية. وتقع الإصابة فيما بين الثلاثين والأربعين من العمر . وفى حالات هذاء الإشارة يظن المرضى أن كل شىء حولهم له صلة بهم، فمثلا إذا ما سعل شخص ما فى الحجرة ، فإن المريض يعتقد بأن هذا السعال علامة أو إشارة موجهة إليه .

وفى حالات هذا الاضطهاد يتخيل المرضى أنهم محاطون بالأعداء وبأشخاص خصصوا لمضايقتهم ... إلخ .

وفى بعض الأحيان يعتقدون بأن هناك تنظيما معينا قد شملهم لأسباب غير مفهومة ، وفى حالات الهذاء المتعلق بتوقيع الأذى على المرضى ، فإنهم يؤكدون أن شخصا ما يضر بصحتهم بواسطة جهاز خاص. ولقد كان أحد المرضى يعتقد أن ثمة جهازًا خاصا يسلط عليه فى كل ليلة مما نتج عنه احتراق وجهه ورقبته .

أما هذاء تريص الآخرين بالمريض لتسميمه فإنه يلاحظ فى كثير من الحالات، وفيها يطلب المريض بأن يبعد الطعام عنه لأنه مسمم . وطبيعى أن يؤدى استمرار هذا الهذاء إلى امتناع المريض عن تناول الطعام تمامًا.

أما فى حالات الوساوس فإن المرضى يؤكدون أن أجهزتهم الداخلية قد أصيبت بالضمور ، أو أنه لا توجد لديهم أجهزة داخلية على الإطلاق ، وأنهم لا يهضمون الطعام الذي يأكلونه ، أو أن أمخاخهم قد جفت وصارت صغيرة جدا . ويعتقد بعض المرضى أنهم أصيبوا بالسرطان ، وأنهم قد اكتشفوا علامات هذا المرض جميعها فى رءوسهم ، ويطالبون بإجراء عمليات جراحية لهم ، وتسمى الحالات المشفوعة بالهذاءات وبالهلوسات الكثيرة بالفصام الهلوسى الباراناوى .

الشكل الغبائي للفصام :

فى هذا الشكل من الفصام يكون سلوك المريض محكوما بالوجدان والغباء ، فتجده يتخذ أوضاعًا شاذة كما يتخذ وجهه بعض الملامح السخيفة . أما إجاباته فإنها تتسم بالسطحية وبالنكت السخيفة ، أو تتضمن عناصر تنم عن فلسفة فارغة

وتعليلات لا أساس لها . وفى بعض الحالات يكون المرضى على جانب كبير من الغموض فى كلامهم ، وذلك لأن لغتهم تكون غير متسقة ، كما أنهم يقدمون حركات استثارية سخيفة .

ويجب أن يلاحظ أن التمييز بين أشكال الفصام المختلفة من الصعوبة بمكان ، وذلك لأن هناك تداخلا فيما بين الأشكال الأربعة الفصامية التى ذكرناها . وأكثر من هذا فقد يتحول أحد الأشكال الفصامية إلى شكل آخر منها ، ويجب أن نذكر دائما أن الأشكال تقع جميعا فى نطاق مرض واحد .

والواقع أن الفحص الميكروسكوبى لمخ المريض بالفصام يجلى عن حدوث تدهور شديد فى الخلايا العصبية، وأيضا فى ألياقه العصبية ، وفى بعض الحالات يتضح وجود ورم بالمخ ، وعلامات واضحة للاضطرابات فى الدورة الدموية (١) .

الشخصية السيكوباتية :

تعتبر السيكوباتية من أكثر الأمراض العقلية تعقدًا . ويعود أول أستخدام للفظ « السيكوباتية » إلى بالينسكى balinsky فى عام ١٨٨٦ عندما حاول تحديد الاضطرابات النفسية الفطرية التى تقع فى المنطقة المحايدة بين الصحة العقلية والمرض العقلى . والتى تفتقر إلى مسار تدريجى فى تطور نشوئها وتبلورها ، ثم أخذ كاندنسكى kandinsky فيما بعد بالانتحاء إلى اعتبار بعض الأنماط السلوكية ضمن السلوك النفسى الفطرى . وفى رأيه أنه ما دامت هناك عاهات جسمية فطرية ، فإن هناك أيضا انحرافات عن النمط العادى فى مجرى نمو الأجهزة النفسية ، وبخاصة فى صياغة السلوك وفى تكوين ملامح الشخصية .

ولقد أناط كاندنسكى أهمية كبيرة بالإصابات التى تقع بالجنين بداخل الرحم وأيضا بالإصابات التى تقع للمخ خلال الطفولة المبكرة بالنسبة لمنشأ انحرافات الشخصية .

وظلت نظرية كرتشمر فيما يتعلق بتفسير الشخصية السيكوباتية لفترة طويلة ذات تأثير كبير فى الفكر السيكولوجى . ولقد عمد كرتشمر إلى الربط بين خصائص الشخصية وبين التكوين الجسمى . واعتبر السيكوباتية حالة فطرية مستقلة عن العوامل الخارجية . وقسم الجنس البشرى برمته إلى مجموعتين :

(١) Ibid. P. 206 - 223

مجموعة لديها استعداد فصامى schizoid ومجموعة أخرى لديها استعداد نوابى cycloid . ولقد فسرت أنماط الشخصية التى ميزها كرتشمر بالمماثلة بينها وبين أكثر االأشكال انتشارًا من المرض النفسى باعتبار أنها مراحل انتقالية فيما بين الصحة والمرض. وعلى هذا ففى رأيه أن الفرق بين الشخصية الفصامية ذات الاستعداد الفصامى وبين الشخصية المصابة فعلا بالفصام هو فرق كمى وليس فرقًا كيفيا .

ولا شك أن جانوشكين gannushkin (١٨٧٥ - ١٩٣٣) هو الذى استطاع أن يسهم فى تشكيل الآراء الصحيحة حول الشخصية السيكوباتية ، ويرجع له الفضل الأكبر فى كشف النقاب عن ديناميات الشخصية السكوباتية ومنشئها وتطور المراحل التى تمر بها .

وتختلف الأسباب التى يتسبب عنها ظهور الشخصية السسيكوباتية اختلافا بينا . وطبيعى أن من الواجب علينا أن نوافق على ما يذهب إليه البعض من نوط أهمية كبيرة لما قد يحدث للجنين من إصابات فى نشأة المرض ، وأيضًا فيما يتعلق بأمراض الطفولة المبكرة ، ولقد أظهرت الدراسة التفصيلية المتعلقة بتاريخ الشخصيات السيكوباتية وبذاكرات أسرهم أن هذا العامل له أهمية جوهرية فى نشأة المرض السيكوباتى .

على بعض علماء الصحة النفسية (جانيه janet وساخانوف sukhanov) قد استخدموا لفظ « سيكوباتية » بصدد السمات الأخلاقية المرضية ، وهذا يعد امتدادًا بمفهوم اللفظ بحيث يسمح لواحد مثل كرتشمر مثلا أن يضمن كل البشرية تقريبًا فى نطاقه . وفي الوقت نفسه فإن جوانب الشخصية السيكوباتية المرضية كما سجلها عالما الصحة النفسية سولى وجانشيكى وغيرهما لا تتصف فقط بالسمات الأخلاقية المرضية بل وأيضًا بميل إلى استجابة مرضية ذات طابع معين .

وهناك بين علماء الصحة النفسية بعض الاختلافات حول تعريف وتحديد معنى السيكوباتية ، وحول تقييم أطوارها التى تمر فيها . فهناك بعض العلماء من أمثال كريبلين وشنيدر schneider وجوريفتش gurevich وغيرهم يفسرون السيكوباتية باعتبار أنها حالة ثابتة من انعدام انسجام الشخصية، وباعتبار أنها شذوذ لا مناص منه فى التكوين الفطرى للشخصية . فمن تلك النظرة تعتبر السيكوباتية شذوذًا فطريا ، وليس له ديناميات تحركه . ومن ناحية أخرى فهناك

باحثون على رأسهم جانشكين يذهبون إلى أن السيكوباتية هى بالدرجة الأولى مرض يسير جنبا لجنب مع النمو مع ما بها من دينامية ، وفى الوقت الحاضر فإن كثيرا من الدراسة قد أجريت للكشف عن مشكلة السيكوباتية على يد كرببيكوف kerbikov الذى يميز بين السيكوباتية التى تنبثق عن النواة الأولى وبين السيكوباتية الناجمة عن إصابة حدثت بالمناطق المتاخمة للنواة الأصلية ، وتشمل السيكوباتية الأولى تلك الأشكال التى تتسم بألوان من الشذوذ الفطرى وعدم الاتساق فى الحالة النفسية ، بينما تشمل السيكوباتية الثانية المرض المواكب للنمو الذى يرتبط بالعوامل البيئية غير المواتية ، وبخاصة الأخطاء فى التربية . ولقد تمكن كرببيكوف ومعاونوه من أن يقرروا أن الأشكال النووية ليست أشكالا مسيطرة من السيكوباتية ، بل إنها تشكل قسما أصغر من الأشكال غير الثابتة ، وأن جميع الأشكال النووية لها ديناميانها، أعنى أن لها طريقا مضادا يمكن أن تتخذه. وهكذا فإن السيكوباتية لا تعتبر شذوذا غير قابل للشفاء ، بل يمكن أن تتخذ اتجاها عكسيا ، ومن ثم تتفتح آفاق جديدة أمام العلاج منها .

وهكذا يقال بالنسبة للأشكال المرضية لهذا المرض ، فإن ثمة علماء متباينين يميزون بين تلك الأشكال المختلفة للسيكوباتية على أساس معايير تختلف فيما بينها اختلافا بينا ، بما فى ذلك بعض المعايير السيكولوجية البحتة . ولقد ميزوا بين صنوف من السيكوباتيين من بينهم المجادلون والمتشاجرون والمتقاضون والكذابون والأغبياء الذين يتحدثون فى أمور تافهة .. إلخ . وفيما يلى أهم الأشكال التى تتبدى فيها السيكوباتية التى يتفق حولها مشاهير علماء الصحة العقلية : النوع الواهن as-thenic والنوع الخاضع للشكوك psychasthenic والنوع الهستيرى histerical وثمة علماء آخرون يقترحون أشكالا على جانب أكبر من العمومية مثل : النوع الكفى in-hibitable والنوع القابل للاستثارة السريعة exitable والنوع المختلط mixed . وتضم الأشكال الكفية النوع الواهن والنوع الخاضع للشكوك ، أما النوع القابل للاستثارة فإنه يضم النوع الهستيرى والنوع البارانوى وغير ذلك من أنواع سيكوباتية .

الشخصية السيكوباتية الواهنة :

يتسم السيكوباتيون الواهنون بإحساس بالذات مفرط بشكل واضح . كما أنهم يتسمون بالخجل الشديد وبعدم القدرة على الدفاع عن النفس . كما يكونون

قابلين للإيحاء بشكل ظاهر ، وتظهر سمات أخلاقهم غالبا فى الطفولة ، ولكنها تتخذ شكلها المتبلور فى المراهقة ، والشخصيات السكوباتية من هذا النوع تبدى أيضا استجابة مرضية بالجهاز العصبى .

وتنشأ أكثر الأمراض العصابية انتشارًا ، وهى النيّوراستنيا -NEURHSTHE NIA ومعناها العجز العصبى والاتصاف بالإحساس بالإنهاك عن السيكوباتية الواهنة . فحتى إذا ما حدث توتر عصبى بسيط بالجهاز العصبى ، فإن المريض يصاب بالإحساس بالتعب الشديد . مما ينتهى به إلى الانهيار العصبى تماما والوقوع فى الأخطاء . والواقع أن حالة النيورستانيا فى حالة الشخصية السيكوباتية فى مقابل النيورستانيا العادية تتصف بأن مدة وقوع الحالة أطول كما تتصف بأعراض محددة وحادة .

السيكاستنيا :

قام بوصف هذا الشكل من السيكوباتية عالم الصحة النفسية جانيه janet فى القرن الماضى التاسع عشر ، وفى هذا النوع من السيكوباتية تكون الملامح المميزة لشخصية المريض هى الميل إلى العكوف بشكل وسواسى على ما يعمله وعلى ما يحيط به من أشياء . أما عدم قدرته على اتخاذ القرارات وإحجامه ، فيجعلانه عاجزا عن حسم موقفه بتجاه أى موضوع . ويتصف المريض من هذا النوع بأنه لا يكون قادرا على القيام بالإدراك المباشر للموضوعات والظواهر المحيطة به ، كما أن العالم الخارجى يبدو غريبا عنه ، ويكون خاليا من الألوان البراقة . وهو فى الشارع مثلا يكون مصابا بإحساس قهرى بأن المبانى والناس والمرور - أو بتعبير موجز الصورة المألوفة للحياة بالمدينة - هى شىء غريب عليه ، وقد أطلق جانيه على هذه السمة اسم « انعدام الإحساس بالواقع » .

ولقد اعتقد عالم الصحة العقلية الروسى ساخانوف أن الملمح الرئيسى للشخصية السيكاستينية السيكوباتية هى القلق والاتصاف بعدم الثقة فى شىء ، وهذا يجد له تعبيرا فى التوتر الدائم وفى الإحساس بالقلق وفى الشك . فمثلا حدث أن أحد المرضى قد وقع فى حالة من القلق بعد أن تحدث مع أحد أقاربه . فشعر بأنه لم يتحدث معه كما كان ينبغى أن يتحدث ، وأنه استسلم كثيرا فى

المناقشة معه ولم يكن قادرا على التخلص من هذه الفكرة إلا بعد أن تقابل مرة مع ذلك الشخص وأخذ نصيبه من المناقشة معه بالقدر الذى أرضى نفسيته .

ويجب أن يلاحظ أنه على الرغم من أن الخبرات العقلية فى حالات السيكاستنيا تقوم على أساس من الظن والتفكير المجرد أكثر من أن تقوم على أساس من الإدراك المباشر للأشياء ، فإنها تصير حادة جدا ومؤلمة لنفسية المريض .

والواقع أن السمات التى سبق ذكرها ليست ناجعة لاعتبار الحالة فى نطاق السيكاستنيا . فلابد من أن يتوافر أيضا الميل إلى جميع الحالات العصابية وإلى جميع الوساوس ، وبخاصة العصاب الوسواسى ، التى كثيرا ما تقع معها . ولقد ينتج العصاب عن حدوث جرح نفسى أو عن حدوث مرض جسمى .

ولقد قام بافلوف بتوجيه الانتباه إلى أن العصابات الوسواسية تنشأ بصفة رئيسية لدى الأفراد المتسمين بنمط عقلى ضعيف ، وهو قد يكون السبب فى نشوء الملامح الرئيسية بالشخصية فى حالة النيوراستنيا وهى « العكوف على التأمل » والميل الشديد إلى التبرير الذاتى وعدم الثقة فى الآخرين .

وبالنسبة للأشخاص ذوى الطابع العقلى فى الجهاز العصبى فإن العالم الخارجى ذا الطابع الخصب من حيث الألوان والصور الذهنية يبدو لهم موحشا بالمقارنة بعالم الأفكار الذى يعيشون فيه .

والواقع أن الضعف فى قدرة المريض على استقبال المؤثرات الأولى من العالم الخارجى الذى يلاحظ فى حالات السيكاستنيا ، إنما يجعل سلوك الفرد أكثر اعتمادا على البواعث الداخلية من الاعتماد على التأثير المباشر للبيئة . وفى نفس الوقت فإن ميل المريض إلى عملية الكف بقشرة المخ ، إنما يبدو ضمن العوامل المساهمة فى نشوء العصاب الوسواسى .

الهستيريا السيكوباتية :

لقد تميزت الهستيريا كشكل متميز من السيكوباتية على يد عالم الأعصاب الفرنسى شاركو charcot الذى أدرج تحتها جميع أنواع الاضطرابات الوظيفية فى الأعضاء الحركية والحسية . ولقد نظر إلى النوبات الهستيرية وإلى أعراض الغيبوبة الشبيهة بالموت والشلل الهستيرى العام اللذين لا يستندان إلى أسباب عضوية ، كما نظر إلى كثير من الاضطرابات النفسية على أساس أنها ظواهر أو تعبيرات هستيرية ، واعتبرها مرضا فطريا . وهو يرى أنه حيث إن الهستيريا كانت فى نظره مرضا نفسيا ، فإنه وضع كل أعراضها المختلفة ضمن مجموعة الظواهر النفسية . واعتقد أكثر تلاميذه التصاقا به وهو جانيه أن الهستيريا تقوم على نقص فى التركيب العقلى ، وعلى أساس من النقص فى تآزر الجوانب المختلفة بالنشاط النفسى .

وثمة عالم صحة نفسية آخر له أهميته ، وهوفرنسى أيضا يدعى بابينسكى babinski عزا الأعراض المرضية الهستيرية إلى ميكانزم الإيحاء الذاتى ، وهو ميل له أهميته فى حدوث هذا المرض .

وثمة إسهام آخر عام فى مجال نظرية الهستيريا قام به سولى الذى سمى الاضطرابات الهستيرية بالحالات الحالمة، وفسرها باعتبار أنها اضطرابات أحلام. فوصف النوبة الهستيرية العادية بما تشتمل عليه من أوضاع تمثيلية وأوضاع جسمية شاذة بأنها بمثابة « حلم فى أثناء اليقظة » .

أما بافلوف وتلاميذه ، فقد قدموا تفسيرًا علميا بالدرجة الأولى لجوهر الهستيريا ، فلقد وجد أن ثمة ملامح من النمط الضعيف بالجهاز العصبى يمكن تمييزه والوقوف عليه فى حالات الهستيريا ، واتضح أن الهستيريا تحدث لدى الأشخاص الضعاف وذوى الميول الفنية ، أعنى الأشخاص الذين يتأثرون بالمرحلة الأولى من الانطباع بالعالم الخارجى أكثر من تأثرهم بالمرحلة الثانية أى التفكير فيه، وكان من السهل الوقوف على ذلك لدى الأشخاص المصابين بالهستيريا . ومن بين الملامح التى تتصف بها الشخصية الهستيرية بوجه خاص الإحساس المبالغ فيه بالتفوق والتظاهر وإبداء العواطف تجاه الآخرين ، وبذل الجهود الكبيرة فى سبيل

جذب الانتباه، ويتم التعبير عنها جميعا بطريقة مصطنعة ومسرحية . وثمة سمات عامة فى حالات الهستيريا هى الميل إلى الخيال والاختراع. وليس نوع السيكوباتية الذى وصف مرة بأنه الخيال الكاذب pseudologia fantastica سوى تعبير عن الشخصية الهستيرية . ويضاف إلى هذا أيضا الميل الشديد إلى الانفعال والعاطفة فى الحالات الهستيرية .

ولا شك أن كاندينسكى KANDINSKY قدم وصفا دقيقا للشخصية الهستيرية ، وذلك بعد ملاحظته لعلامات الإفراط فى التنبه المعبر عنه بالانطباعية المفرطة . فبعض المؤثرات الخارجية تحدث استجابة قوية غير مناسبة لدى الأشخاص الهستيريين ، بحيث يمكن تمييزهم بأن لديهم نقصا شديدا فى الاتزان الوجدانى وميلا إلى التقلب من حالة مزاجية إلى حالة مزاجية أخرى بسرعة وبعنف شديدين ، كما يتميزون أيضا بالتغيرات المفاجئة من الضحك إلى البكاء وبالعكس ، واتخاذ التصرفات التظاهرية بالمواقف المؤثرة . أما تفكير الشخص الهستيرى فإنه تفكير ضحل وسطحى ، كما أن أحكامه تكون غير متوقعة ، بل وتكون متناقضة بعضها مع بعض .

ولقد وجه كاندينسكى الانتباه إلى أنه كنتيجة لخيالهم ونقص قدرتهم على التحكم فى خيالهم بالحس المشترك والبداهة العادية ، فإن المرضى الهستيريين لا يتمكنون من التمييز جيدا فيما بين الخبرات التى تنشأ بخيالهم وبين الخبرات الحقيقية، ومن ثم فإنهم يضيفون تفاصيل مختلفة إلى القصة الحقيقية عن غير قصد من جانبهم .

ومن المعروف أن نمط الجهاز العصبى هو مجموعة من العناصر والخصائص الفطرية والخصائص المكتسبة . وتعتمد العناصر والخصائص الأخيرة أولا وقبل كل شىء على الظروف البيئية التى يتأثر بها المرء منذ نعومة أظفاره . ولكن بتوافر الظروف المناسبة لتشكيل الشخصية الهستيرية ، حتى بالنسبة للفرد الحاصل على جهاز عصبى قوى ، تكتسب الشخصية السمات الهستيرية السيكوباتية . ويضيف بعض العلماء إلى هذا أن الهستيريا يمكن أن تندرج تحت فئة الأمراض العصابية ، مع عزل النوع الذى ينخرط تحت السيكوباتية ، ولكن ليس من المهم ما إذا كانت

الهستيريا تقع فى نطاق السيكوباتية برمتها أم أن نوعا معينا منها هو وحده الذى يقع فى نطاقها [1] .

والواقع أن هناك أنواعًا أخرى من السيكوباتية ، ولكننا نكتفى بالأنواع الأربعة التى ذكرناها ، ونستطيع أن نرى أن العباقرة قد يشتملون عل بعض من أطيافها .

★ ★ ★

(١) ANATOLY PORTNOV and DMITRY FEDOTOV, Psychiatry, trans, by Yuri Shirokov, Mir Publisher, Moscow., 1969, P. 304- 309 .



الفصل الثالث

سيكلوجية العبقرى

التفسير بالكيف :

لعل أفلاطون هو أول من جعل العبقرية ذات طبيعة مغايرة للطبيعة السوية . فهو لا يجعل العبقرية مجرد ارتفاع فى الذكاء ، بل إنه يربط بينها وبين المرض العقلى . فيقول: إن كلا من العبقرية والجنون نوع من الاضطراب العقلى ، وربما كان هذا هو المصدر الذى استلهمه لامارتين (شاعر فرنسا الحزين) وهو يتحدث عن « المرض العقلى الذى يسمى بالعبقرية » ، وكان لامارتين يردد هذا الرأى في القرن التاسع عشر . وكان إلى جانبه علماء يقولون بهذا الرأى أيضا ، ولم يكتفوا بالإشارة العابرة بل استقروا عند رأيهم ، وحاولوا أن يقرروا كثيرا من تفاصيله ويضربوا له كثيرا من الأمثلة التاريخية . من هؤلاء ليلو Lelut الذى أعلن سنة ١٨٣٦ أن سقراط كان يعانى كثيرا من أعراض المرض العقلى، فكانت تنتابه نوبات من الغيبوبة والتخشب والهلوسة ، وأطلق ليلو على هذه المجموعة من الأعراض اسم الجنون الحسى أو جنون الإدراك . ثم تحدث عن عبقرى آخر هو بسكال عبقرى الرياضيات والفلسفة ، فقال : إنه كذلك كان يعانى من كثير من أعراض الجنون ولاسيما الهلوسة .

وانتشر هذا الرأى فى النصف الثانى من االقرن التاسع عشر بصورة مبالغ فيها ، وربما ساهم العلماء الفرنسيون فى انتشاره أكثر من غيرهم من علماء أوروبا.

والواقع أن لومبروزو يعد من أشهر الدعاة بأن العبقرى يختلف عن غيره لا من حيث الكم بل من حيث الكيف . وهو يربط فيما بين العبقرية والجنون . بيد أن

هرش Hirsch يؤكد أن نظرية لومبروزو لا تحمل جديدا إلا فيما يتعلق بالتفاصيل. فلقد سبق لأرسطو أن لاحظ أن كثيرا من الأشخاص يصيرون شعراء وأنبياء وعرافين. ولقد يكونون شعراء مجيدين وأنبياء وعرافين ذوى مكانة مرموقة، بينما يكونون مهووسين ، ولكن ما إن يتسنى لهم الشفاء. حتى يفقدوا القدرة على كتابة الشعر . أما درايدن Dryden فإنه يقول « إن كثيرا من اللامعين الأذكياء هم بالتأكيد أقرب ما يكونون إلى الجنون » . والواقع أن المصدر المباشر الذى استلهمه لومبروزو هو كتابات مورو دى تور Moreau de Tours الذى قرر فى كتابه Psychologie Morbide عام ١٨٥٩ أن كل العبقرية هى مرض نفسى أو عصاب ، وكثيرا ما تكون ذهانا أى مرضا عقليا . والواقع أن هذه الفكرة التى امتد بها لومبروزو ودعمها بالمادة التى استفادها من سير العباقرة التى تؤكد أن كثيرا من العباقرة كانوا يعانون من الجنون . ولقد جذبت نظرية لومبروزو كثيرًا من الانتباه وحظيت بشعبية بعيدة المدى .. وإنك لتجد أكثر الكتب الناجحة فى علم النفس حول العباقرة تبدأ باستعراض نظرية لومبروزو .

ولا شك أن لانج إيكباوم قد تأثر بنظرية لومبروزو ، ولكنه يقرر أن العبقرى قد يكون صحيح العقل والنفس ، ويذكر تأكيدا لذلك كل من تيتيان Titian ورافايل Raphael وأندريا دى إيزارتو Andrea de Isarto وروبنز Rubens وليبتز Leibnitz وغيرهم . بيد أن أولئك الأصحاء العقلاء لا يشكلون إلا الأقلية العاقلة من بين العباقرة الموصومين بشىء من الجنون بالفعل ، فهناك فى رأيه أكثر من ٣٠٪ من العباقرة لم يكونوا ذهانيين أى مجانين بالفعل ، فهم على الأقل سيكوباتيون ، وهناك حوالى ٦,٥ ٪ فقط من العباقرة أصحاء عقليا ونفسيا فى نظره ، ويذكر لانج إيكباوم من بين أولئك العباقرة المصابين بأمراض نفسية بودلير Baudelaire ودنيزتى Don-izetti ، وقد كانا مصابين بالشلل الجنونى Genral of the insane كما يذكر تاسو Tasso ونيوتن Newton باعتبارهما كانا مصابين بالفصام . ويستمر فى ذكر حالات أخرى على نفس النحو . ويرى لانج إيكباوم أن الشائع بين العباقرة ليس الذهان ، بل السيكوباتية .

وتبعا لهذه النظرة فإن العباقرة ينتحون إلى السيكوباتية لأسباب ثلاثة رئيسية هى :

أولا - إن السيكوباتية تزيد من قوة حياتهم الانفعالية ، وبالتالى يستجيب

العبقرى للمثيرات البسيطة . مع افتقاره فى نفس الوقت للضبط الذاتى. وينجم عن هذا مرور العبقرى بخبرات لا تتسنى للأشخاص العاديين .

ثانيا - إن السيكوباتى قد يمر بآلام نفسية ومعاناة شديدة بحيث يترتب على ذلك إحساس بالنقص ، وهذا يؤدى به إلى محاولة تحقيق شيء من التوافق ، ويكون مصاحبا فى النهاية بميل إلى الأحلام، ومن ثم الحصول على حياة خيالية خصبة يستطيع السيكوياتى العبقرى أن يجد فيها مجالا للتعبير عن نفسه .

ويذهب كرتشمر - على نفس النحو - إلى أن العبقرية تسير جنبا لجنب مع المرض العقلى ، وبخاصة في الحاالات البيئية السيكوباتية . فهى شائعة لدى العباقرة أكثر من شيوعها لدى الأشخاص العاديين. ويرى كرتشمر أن الناس غير المتوافقين مع بيئتهم والذين يحسون بأنهم غير مرتاحين فيها ، إنما هم أكثر ميلا إلى الاضطلاع بأشياء هامة ، وذلك لأنهم يجدون أن بيئتهم غير محتملة . ولكنه يؤكد أن من الضرورى بالطبع أن يكون الشخص متمتعا بقدرة عقلية عالية حتى يتسنى أن يخرج منه شخص عبقرى ، ولكنه يجب أن يكون أيضا مجنونا ، أو حسب تعبير كرتشمر يجب أن يكون « ممسوسا بالجن daimonian » ، وهذا يقوم أساسا على ركيزة نفسية . ويعتقد كرتشمر أننا إذا حذفنا العامل السيكوباتى والهياج الشيطانى والتوتر النفسى من تكوين العبقرى ، فلا يبقى عندئذ سوى مجرد شخص عادى « موهوب » . وهذا يذكرنا بكلام أرسطو الذى ذكرناه قبلا عن الشعراء. ويستمر كرتشمر فى تطبيق مخططه المتعلق بالتكوين النفسى على العباقرة مشيرا إلى الفروق الكيفية فى إنجازات كل من النمط القصير المكتنز Pyknic والنمط الواهن البنية Leptosome . فمثلا يذهب كرتشمر إلى أنه من بين الشعراء فإن الشخصية النوابية ذات الجسم المكتنز القصير سوف تكتب الشعر الملحمى الذى يصف المعارك . بينما يكتب صاحب الميول الفصامية شعرا غنائيا ينصب على مشاعر الشاعر الذاتية .

أما فرويد فإنه يؤكد أيضا فكرة أن المتاعب النفسية لدى العبقرى وإحساسه بالتوتر هى ما تدفع به إلى العبقرية . فهو يقول مثلا « إن الناس السعداء ، لا يمكن أن يلجأوا إلى أخيلتهم ولا يعمدون إلى الغوص فى الخيال . بيد أن حالات الحرمان

وحدها والرغبات غير المشبعة وحدها هي القوة الدافعة خلف الأخيلة . ولا شك أن كل خيال منفصل يتضمن إشباعا لإحدى الرغبات ، ويعمل على تحسين واقع غير مشبع » (١)

ويذهب فرويد إلى أن اعتبار العبقرية عصابا محددا ، أو اعتبارها مرضا عقليا إذا كان الشخص عاجزا عن التعبير عن صراعاته الداخلية العميقة فى صيغة متسقة ، كعمل فنى مثلا فى أى شكل من أشكال العمل الابتكارى (٢) .

وعلى نفس النحو نجد أن هيلى Healy يقرر « إن كثيرًا من الإنجازات قد تأتت عن أولئك الذين لم يكن فى حياتهم بصيص من السعادة . والذين لم يكونوا راضين عن خصائصهم الشخصية واستجاباتهم لما حولهم ، وقد يكون ذلك راجعا إلى اضطرامهم بنار عدم الرضا الإلهى » .

والواقع أن فرويد يعترف بأن الأخيلة لدى العبقرى تستحيل إلى أعمال فنية إبداعية، ولكنه يشترط لهذا أن يكون الفرد غير راض عن الواقع من حوله ، وأن يكون حائزا على الموهبة الفنية التى ما تزال لغزًا سيكلوجيا يحتاج إلى من يميط اللثام عنه . ولكن على الرغم من أن هذا هو الوضع العام الذى اتخذه الفرويديون من موضوع العبقرية ، فإن المحاولات الفردية التى اضطلع بها بعض المحللين النفسانيين فى هذا الشأن لتفسير نشاط الواحد من العباقرة قد أخذت طريقا مفتعلا بعيدا عن إمكان تصديقه . فنجد جيكلز Jekels (٣) مثلا يستعين بفكرة عقدة أوديب لكى يفسر بها أهداف نابليون ، فيقول « إن ذلك الطموح العارم هو الذى جعل نصف العالم يشيعه باللعنات ، بينما أخذ النصف الثانى يحيط رغباته بالتعاطف لأنها مرتبطة بحضن أمه أى العالم كله » . وعلى نفس النحو فإننا نجد سبرير

---

(١) OTTO KLINEBERG, Social Psychology, New York, Holt, RINEHART and WINSTON , 1954, P. 468- 474.

(٢) ENCYCLOPAEDIA Britanica, Vol, 10, 1972, P. 103 .

(٣) انظر :

JEKELS, L., The Turning Point in the life of NAPOLEON I, IMAGO, 1914, 3: P. 313 - 381 .

Sperber [١] فى مقال له بعنوان « حول الحياة الروحية اللاشعورية لدى دانتى » يقول « من المقطوع به أن دانتى قد تعلق بالسلطة فى شكل الكنيسة ، وذلك بسبب حبه واحترامه لوالديه ، فلم يثر والده برقته وبعدم تدخله فى حياته أية مقاومة أو ثورة لديه ، ولذا فلم يكن لدى دانتى أى دافع لتحرير نفسه منه » .

ولعل تأكيد فرويد ومدرسته على اللاشعور قد حدا بهم إلى تناول منجزات العباقرة بالتفسير، وذلك على الأقل فى ميادين معينة . فالواقع أن هناك كثيرا من الأمثلة تم فيها إنتاج فنون وآداب على أعظم جانب من القيمة ، وكان إنتاجها على أيدى العباقرة بينما كانوا فى حالة تشبه الغيبوبة ، وخير مثال على هذا كوبلاخان Kubla-Khan كوليردج coleredge . وثمة كثير من الكتاب يقررون أن ما أنتجوه من أعمال لم يكن صادرا عن شعور واع وإرادى بمعنى الكلمة ، بل كان عن لاشعور لا يكاد يستبينه صاحبه . ويقول هنرى جيمس Henry James فى هذا الصدد إنه يسقط الفكرة لمدة ما فى بئر عميقة من الفكر اللاشعورى ، وذلك بغير أن يفقد الأمل بغير شك فى أن ما ألقى به سوف يبزغ فى النهاية من ذلك المخزن .. فى بهاء وجلال ، ومع زيادة فى القيمة والوزن » .

ويذهب بعض الكتاب إلى أنه قد كتب على العبقرى منذ البداية بأن يحيا حياة ملؤها الإحباط . ومن ثم فإن حياته تكون مفعمة بالأمراض النفسية والعقلية. وثمة كتاب آخرون يؤكدون أن العبقرية إن هى إلا دلالة على سوء التوفيق ، بل إنها تسير جنبا إلى جنب مع إدمان الخمر، بالإضافة إلى الاضطرابات العقلية الكثيرة [٢]. وهناك من يؤكدون أن بعض السموم التى تدخل الجسم عن طريق المخدرات والخمور ، بل والتي تفرزها بعض الأمراض كالزهرى مثلا ، تعمل على إحداث نشاط ذهنى معين لدى بعض الناس المصابين بها ، ومعنى هذا أن أولئك الكتاب يؤكدون أن ما يصيب الشخص بالتلف العضوى قد يؤثر فى إعداده للفكر العبقرى ، بينما يؤكد الآخرون أن الإحباط الذى يصادفه الشخص من جانب البيئة هو السبب فى العبقرية .

---

(١) انظر:
SPERBER, A., DANTE'S Unconscious Soul- Life. IMAGO, 1914. 3 : 205 - 249 .

(٢) ENCYCLOPEDIA AMERICANA, New York. 12, 1965, P. 401.

أما نيتشه فإنه يقرر « إنه إذا كان لدى المرء ذرة من الخرافة تعتمل فى نفسه، فإنه لا يكاد يستطيع التنحى عن الاعتقاد فى أن العبقرى ليس سوى تجسيد ، أو ليس سوى بوق ، أو ليس سوى الواسطة التى تستعين بها بعض القوى العليا ... فالعبقرى يسمع ، إنه لا يبحث ، إنه يستقبل ، إنه لا يسأل من الذى يعطيه ، إنه يجد أن الفكرة تلمع فى ذهنه كالبرق ، وتبدو كشىء لا مناص منه » .

وهناك كثير من الكتاب يقررون أن إنتاجهم كان « كتابة آلية » بحيث لم يكونوا فى أثناء كتابتهم مدركين للمضمون الدقيق لما يكتبونه حتى انتهوا مما كانوا يدونونه . وهذا بلا شك خير برهان على أهمية العوامل اللاشعورية فى الإبداع العبقرى . بيد أن هذا لا يعنى أن الخلق هو لاشعورى برمته ، فنحن نعلم على سبيل المثال أن تنيسبون Tennyson نفسه فى أشعاره على الرغم مما تتسم به من تلقائية ظاهرة، فإنها كانت تخضع بعد إبداعها للصقل قبل أن يقوم بنشرها . ويبدو أن هناك أهمية متباينة لكل من العوامل الشعورية والعوامل اللاشعورية تختلف من عبقرى لآخر، ومن عمل عبقرى إلى عمل عبقرى آخر .

وثمة محاولة جديرة بالذكر لتطبيق مبادئ التحليل النفسى فى تفسير نمط معين من الأنماط الابتكارية قام بها هرزبرج Herzberg . فبعد أن قام بفحص تفاصيل السير فى حياة عدد من أعظم الفلاسفة أهمية ، فإنه وجد هناك مجموعة من الخصائص قد اشتركوا فيها جميعها . فلقد كان هؤلاء الفلاسفة بوجه عام متكيفين لبيئتهم ، ثم إنهم كانوا يجدون صعوبة فى التكسب من عملهم ، ونادرا ما استطاع الواحد منهم أن يوفق فى حياته الزوجية ، وكانوا بوجه عام غير راضين عن واقع حياتهم الذى كانوا يعيشون فيه. وكنتيجة لذلك فإنهم وجدوا فى التكوينات الفلسفية المتعلقة بنظامهم الفلسفى رضاء أكثر مما كان يمكن أن يعثروا عليه فى العالم المحيط بهم . ولقد تكون فلسفاتهم بوجه عام فى أكثر الحالات بمثابة مهرب من الواقع . فلقد ذهب الفلاسفة المثاليون إلى أبعد مدى فى هذا الصدد ، حيث إنهم أنكروا وجود العالم الواقعى والأشياء البادية للعيان ، مؤكدين أن الحقيقة الوحيدة هى تلك المتعلقة بعالم الأفكار . وبهذا الشكل فإنهم توصلوا إلى اعتقاد يرضيهم لاشعوريا بأن العالم الذى يحرزون فيه النجاح غير موجود على الإطلاق .

بيد أن هذه النظرية تفشل فى تفسير النشاط الفلسفى لدى الفلاسفة الناجحين فى حياتهم العملية مثل بيكون وغيره [١] .

أما أدلر (١٨٥٠ - ١٩٣٧) والمشايعون له فإنهم يعتبرون أن المنجزات الكبرى إنما هى فى كثير من حالات العبقرية نتيجة للتعويض الدائب عن نقص عضوى معين . فالعبقرى كما يراه أدلر شخص مدفوع بالشعور بالدونية وما يولده هذا من صراع لا سبيل إلى القضاء عليه إلا بالتعويض فى نفس الطريق الذى أتى منه القصور كما فعل ديموستينس Demosthenes وبيتهوفن Beethoven أو فى طريق آخر كما فعل بشار بن برد ، وبيرون [٢] . فبالنسبة لديموستنس فلقد كان مصابا بأمراض الكلام فى الطفولة ، ولكنه أصبح من أعظم الخطباء لعصره . أما وكسبرج Wexberg [٣] فإنه يزعم أن أعظم أعمال بيتهوفن قد تمت بعد أن صار يجد صعوبة فى السمع ، وأنه حتى فى بواكير حياته ربما كان يعانى من بعض الصعوبات فى السمع « فلقد نتأكد من أن بيتهوفن صار يركز اهتمامه على الخبرات السمعية منذ بواكير أيامه، وأنه بدأ عملية تدريب عنيفة أخذت تتجلى فى نجاحه الملحوظ كموسيقار » . وثمة أمثلة أخرى عن التعويض الزائد قد عرض لها وكسبرج . من ذلك مثلا تيودور روزفيلت Roosevelt Theodor فقد كان طفلا عليلا ، ولكنه نشأ على الرجولة . ومن المعروف أيضا أن جلن كنجهام Glenn Cunningham وهو من أعظم العدائين الذين عرفوا فى هذا المضمار قد عانى من حادث فى طفولته ، مما أثر على الساقين تأثيرا رديئا . ولكنه عكف على الجرى يعوض عن هذا النقص فأحرز تفوقا لا مثيل له .

التفسير بالكم :

مهما كانت قيمة تفسير العبقرية بالكيف ، فلا شك أن علماء النفس يحسون بقدر أكبر من الرضا عندما يتوصلون إلى مقاييس تحدد درجة العبقرية بالأرقام .

---

(١) OTTO KLINEBERG, SOCIAL Psychology, New York, Holt, Rine- hart and Winston, 1954, P. 468- 474.

(٢) الأسس النفسية للإبداع الفنى - مصطفى سويف - دار المعارف - ١٩٥١ - ص ١١٨ .

(٣) انظر :

WEXBERG, W. B., Individual Psychology, 1929 .

ذلك أن العلم فى معارج تقدمه لا يكتفى بالفروض والمزاعم والتفسير الشخصى ، بل إنه يصبو إلى معيار ثابت وعام شامل بحيث يكون هناك إجماع على الحقيقة الموضوعية التى يتم التوصل إليها . وهذا ما حدث بالنسبة للتقديرات الحسية على اختلافها ، فنحن قد نقول إن هذا السائل أشد حرارة من ذلك على أساس ما نحس به عندما نضع يدا فى أحدهما واليد الأخرى فى الآخر . ولكن الاعتماد على تقدير حرارة كل من السائلين عن طريق الإحساس باليد هو تقدير ظنى قد يختلف عليه الناس الذين يقومون بنفس الشىء، ولكن إذا استعان الراغبون فى التقدير بالترمومتر الحرارى ، فإن العامل الشخصى ينقشع فى الحال ولا يستطيع أى شخص أن يذهب إلى غير ما أفصح عنه الترمومتر الحرارى .

وهذا نفسه ما حدث بالنسبة لتقدير العبقرية فالتفسير بالكيف يعتمد على التقدير الشخصى ، بل وعلى ما يصل إليه الباحث النفسى من تفسير يناسب مزاجه الشخصى أو فلسفته فى الحياة . وليس الاعتماد على القياس غريبا على علم النفس ، بل إن ميلاد علم النفس ذاته كعلم إنما يرتبط ارتباطا تاريخيا بأول معمل قيست فيه الظواهر النفسية وقدرت بالأرقام على يد فندت Wundt فى عام ١٨٩٠ .

وأنت اليوم إذا كشفت عن لفظ عبقرية فى أحد قواميس علم النفس ، لوجدت أنه يشير إلى أعلى مستوى من القدرة العقلية المقاسة باختبارات الذكاء ، سواء فيما يتعلق بالقدرة العامة أم فيما يتعلق بالقدرات الخاصة المتعلقة بالابتكار والخلق . ذلك أن العبقرى هو الشخص الحاصل على موهبة ابتكار غير عادية فى مجال عقلى أو فنى ما .

وعلى الرغم من توافر مقاييس الذكاء بين أيدينا ، فإن من الصعب تعيين العبقرية بشكل إحصائى أو فى ضوء المقاييس السيكلوجية . ولكن بوجه عام يعرف علماء النفس العباقرة بأنهم أشخاص لديهم قدرة عقلية ممتازة نادرة ، ويقعون فيما بين القلة النادرة التى تحتل أعلى مستوى عقلى ، وربما تصل نسبتهم إلى واحد من بين ١٠٠٠٠ شخص ، ويكون الواحد منهم حاصلا على معدل ذكاء قدره ١٤٠ فأكثر.

بيد أن الحاصل على معدل ذكاء يصل إلى هذه الدرجة فأكثر لا يعتبر ضمن

العباقرة بالضرورة ، فلابد من وجود عناصر شخصية أخرى مصاحبة لمعدل الذكاء المرتفع حتى تنشأ العبقرية لدى المرء .

ويعتبر فرانسيس جولتون من أكثر دعاة الاعتماد على التقدير الرقمى الإحصائى فى تحديد العبقرية . والواقع أن المناقشة التى قدمها بكتابه « العبقرية الموروثة » genius Hereditary تعتمد اعتمادا أساسيا على التقدير الإحصائى . والواقع أن الفروق بعيدة المدى فى القدرات الإنسانية التى يحتل ضعاف العقل طرفها البعيد ، والعباقرة الطرف المقابل ، تعتبر فى نظر جولتون انحرافات عن القدرة المتوسطة . ويمثل العبقرى أحد الطرفين البعيدين فى الخط المنحنى . وبهذا المعنى فإن جولتون يعرف الإنسان العبقرى بأنه الشخص الذى حصل على مكانة لا يحصل عليها إلا ٢٥٠ شخصا بكل مليون شخص أو شخص واحد بين أربعة آلاف شخص .

وينحو ترمان Terman نفس المنحى، وهو بصدد تعريف العبقرية. فهو يعرف العبقرية بأنها تعنى الأفراد غير العاديين الذين وهبوا درجات من القدرة غير العادية سواء كانت القدرة عامة أم قدرة خاصة . ويشير ترمان إلى أن الموهبة التى حصل عليها العبقرى غير عادية ، ولكنها لا تعدو أن تكون زيادة فى الكم العقلى وليست زيادة نوعية فى الكيف . « فالعبقرى والأبله يفسران فى ضوء نفس القوانين العقلية. فكل منهما غير حاصل على أية سمة لم يحصل عليها الآخر بدرجة أو بأخرى » وبهذا المعنى فإن كلمة عبقرى طبقت بإزاء الأطفال الحاصلين على معدلات ذكاء عالية جدا، تبلغ ١٤٠ فأكثر. وبالنسبة للدراسات الوراثية التى اضطلع بها ترمان ومعاونوه ، هذا المعيار لتحديد العبقرية قد استخدم فى اختبار أولئك الأطفال الذين يمكن أن تدرس لديهم خصائص « العبقرية » . ومما يذكر أن الدراسات التتبعية التى قام بها ترمان ومعاونوه قد انتهت إلى أن أولئك الأطفال فى حياتهم فيما بعد الطفولة قد يتسمون بأنهم أرقى مستوى من الأشخاص العاديين ، ولكن هناك قليلا من الدلائل تشير إلى أن من الممكن درجهم فى فئة العباقرة .

وللتقدير الكمى للعبقرية ميزاته وعيوبه . وفيما يلى ميزات تقدير العبقرية بالأرقام:

أولا - إن الوقوف على استعدادات العبقرى فى وقت مبكر منذ الطفولة يسمح للمربى بأن يراعى ذلك فيما يتبعه من وسائل تربوية ، ومن رعاية للمواهب الفذة ، فيعمل على تفتيق إمكانياته والسماح لها بالبزوغ . ومن المعروف أن كثيرا مما يصيب الأفذاذ من أمراض عقلية أو نفسية ، إنما يرجع أولا وقبل كل شئ إلى ما يحس به الموهوب من إحباط نتيجة ما يحس به من تفاهة بتجاه الخبرات المقدمة إليه، فما لم يحس العبقرى بأن الخبرات المقدمة إليه تتحدى ذكاءه ، فإنه يكون عرضة إذن للإصابة بالعصابات المختلفة ، فيختل جهازه النفسى ، ويصاب بالضجر من الدراسة التى ينخرط بها .

وشاهد ذلك أن كثيرا من العباقرة لا يعبرون عن عبقريتهم من خلال المدرسة التى تكون قد فشلت فى توجيههم وتربيتهم ، بل يبدونها فى مجالات أخرى بعيدة عن المجال المنتظم للدراسة.

ثانيا - يستطيع علماء النفس الوقوف على كنه العبقرية إذا ما استمروا فى البحث عن الكميات المطلوبة من الذكاء وغيره من نوعيات وتحديد نسبها فى المركب السيكولوجى المسمى بالعبقرية .

ثالثا - يعمل التفسير بالكم فيما يتعلق بكنه العبقرية على جب كثير من الخرافات والمفاهيم الخاطئة التى يلوكها العامة وغير المختصين حول مفهوم لعبقرية .

رابعا - يمكن التوسع باقياس الكمى للعبقرية إلى النواحى الجسمية وعدم الاقتصار على النواحى العقلية وحدها . فربما تكون هناك مقاييس جسمية يجب أخذها فى الاعتبار لها صلة مباشرة بالعبقرية .

خامسا - يشمل التفسير بالكم تحديد النسبة المئوية من الناس الذين يمكن أن ندرجهم ضمن العباقرة . فإذا قلنا مثلا إن عدد العباقرة يقدرون بواحد من كل مليون شخص ، فإن هذا يكون تقويما رقميا أيضا .

سادسا - من الممكن أيضا أن نحدد العبقرية بمعايير أخرى غير المعايير

العقلية هى المعايير الدراسية . فإذا قلنا إن طفل الصف السادس الابتدائى الذى يستطيع أن يحل مسائل حسابية يزيد عددها عن عدد المسائل التى يستطيع التلميذ العادى حلها بمقدار عشرة أضعاف هو تلميذ عبقرى ، فربما يكون هذا معيارا آخر للعبقرية .

سابعا – ربما يتسنى وضع مقاييس متباينة تجمع كل ما ذكرناه وغيره بحيث تقاس العبقرية في ضوئها .

ثامنا – ربما أيضا تخضع العبقرية لمعايير خارجية أخرى ، مثل تقييم أعمال الشخص من جانب عدة أشخاص مختصين فى ذلك المجال والحكم عليه بأنه عبقرى أو غير عبقرى. ولا شك أن ما تفعله الجامعات ولجان فحص أعمال الدارسين والأساتذة هو أيضا تقدير مدى التفوق فى مجال معين .

تاسعا – ربما يكون أيضا عمل استفتاء مما يسمح بالوقوف على مدى عبقرية الشخص فى مجال معين يتسم بالشعبية . فربما يتم قياس العبقرية فى لعب كرة القدم فى العالم عن طريق إجراء استفتاء عالمى بين مشجعى كرة القدم .

عاشرا – قد تقاس العبقرية أيضا فى بعض الحالات بمدى الفائدة المادية التى تعود على الشعب من العمل وعدد المنتفعين منه . فإذا كان العائد من العمل كبيرا جدا ، وعدد المنتفعين منه كبيرا أيضا ، فإنه يكون عملا عبقريا . خذ مثلا لذلك اختراع الراديو والتلفزيون والسيارة والقطار والطائرة ... إلخ .

أما عيوب التقدير الكمى للعبقرية فإنها تتلخص فيما يلى :

أولا – أن الاقتصار على تفسير العبقرية بالذكاء كما فعل ترمان ومعاونوه شبيه بتفسير الماء بالأكسجين فقط أو بالأيدروجين فقط ذلك أن العبقرية مركب سيكولوجى يتكون من عدة مواهب ومن عدة حالات نفسية مركبة بعضها مع بعض .

ثانيا – إن التفسير بالذكاء يستبعد الظروف الاجتماعية التى تتجلى العبقرية من خلالها . ولا شك أن التطرف بالاعتماد على التفسير بالذكاء لا يقل خطأ عن التطرف بالاعتماد فى تفسير العبقرية على الظروف الاجتماعية وحدها .

ثالثا – لا ترتكز العبقرية على الذكاء وحده ولا على قدرة واحدة معينة ، بل

تعتمد على رد فعل معين لتصرفات أحد الأشخاص . إنها لا تتجلى فى نقطة البداية وهي المقومات العقلية والنفسية للمرء ، بل تعتمد على التفاعل والسلوك العملى فى الحياة .

رابعا - هناك فرق بين الخامة السلوكية التى هى الذكاء أو القدرات الخاصة التى يمكن أن يصنع منها السلوك وبين السلوك المتجسد نفسه . فليس معنى توافر الخامة السلوكية ظهور السلوك المتوقع من تلك الخامة . فقد تظل الموهبة فى طى الاستعدادات الكامنة التى لا تجد حظا من نور يخرجها إلى مجال الواقع .

خامسا - ترتبط العبقرية بشق طريق جديدة لم يسبق إليها أحد . وهذا لا يتوافر إلا بتوافر شرطين هما : الطرق الجديدة التى يمكن شقها ، والثانى توافر الشروط النفسية والاجتماعية التى تسمح للمرء بأن يشقها ، فلابد إذن من الاعتماد فى تفسير العبقرية على النطاق الاجتماعى الذى يعبر العبقرى من خلاله عن عبقريته ،وعدم الاكتفاء بالتفسير النفسى البحت .

سادسا - لا يسمح الاقتصار على التقدير الرقمى فيما يتعلق بالعبقرية بالوقوف على جميع مناحى العبقرية وتفسيرها . فهناك أشياء لا تخضع للتقدير الرقمى ، بل تخضع للوصف وتسجيل السمات .فوصف مزاج العبقرى مثلا لا يخضع للتقويم بالأرقام ، بل يخضع للتشخيص والوصف فحسب .

سابعا - إن عبقرية العبقرى لا تظهر للعيان إلا بعد فترة من حياته تطول أو تقصر ، ومعنى هذا أن عالم النفس لا يستطيع أن يقدم تقريرا رقميا تتبعيا حول تطور حياة العبقرى العقلية أو النفسية . ولا شك أن الاقتصار علي قياس ذكاء بعض الأطفال النابهين أو افتراض أنهم سيكونون عباقرة المستقبل أمر محفوف بالمخاطر ، لا يمكن أن نثق فى صحته . وشاهد ذلك أن أطفال ترمان ومعاونيه النابهين لم تثبت عبقريتهم ، بل كل ما تأكد من تتبع حياتهم فيما بعد الطفولة أنهم صاروا مجرد أشخاص مرموقين .

ثامنا - لم نسمع أن علماء النفس قاموا بقياس ذكاء العباقرة وهم فى أوج عبقريتهم، فلم يقدم علماء النفس مثلا معدل ذكاء نيوتن أو دارون أو بشار بن برد .

وكل ما قدموه فى هذا الصدد هو مجرد افتراضات بأن العبقرى شخص لابد أنه مرتفع الذكاء بشكل خارق للمألوف .

تاسعا – من دراسة العباقرة نجد أن طريقهم إلى العبقرية لم يكن الذكاء كما يفهمه علماء النفس – وهو القدرة على إقامة علاقات بين الأشياء أو القدرة على إقامة علاقات بين العلاقات – بل كان طريقهم إلى العبقرية هو الحدس ، وهو المعرفة المباشرة التى لا تعتمد على وقائع خارجية أو جزئيات، بل تعتمد على حس مباشر ووقوف طفرى على الحقيقة ، وهو شىء لا يخضع للقياس . وخير مثال لذلك ما وقع لديكارت فى الكشف عن فلسفته التى اعتبرت التحول الجذرى إلى الفلسفة الحديثة واعتبر هو بفضلها أبا للفلسفة الحديثة .

عاشرا – لا شك أن العوامل اللاشعورية تلعب دورا خطيرا فى العبقرية كما سبق أن عرضنا، ولم يسبق أن سمعنا من علماء النفس أنهم استطاعوا قياس تلك العوامل اللاشعورية أو أنهم حاولوا إخضاعها للقياس .

التفسير بالسلوك :

سبق أن قلنا إن القدماء كانوا يركزون تفسيرهم للعبقرية على إبراز أوجه الخلاف بين العباقرة وبين العاديين من الناس ، فى حين أن النتائج العلمية الحديثة تتجه فى معظمها إلى تأكيد أوجه الشبه بين العباقرة والعاديين على أساس أن الاختلاف بينهما – وهو ما لا يمكن إنكاره – إنما هو اختلاف فى الدرجة لا فى النوع [1] .

ولكن الواقع أن الاقتصار على التفسير بالكم كما سبق أن رأينا لا يضمن لنا كشف النقاب عن حقيقة العبقرية ، ولعل الصورة تكتمل إذا نحن نظرنا إلى جانب أو زاوية ثالثة هى التفسير بسلوك العبقرى . ولا شك أن هناك تداخلا بين التفسير بالكيف وبين التفسير بالسلوك ، ولكن الاختلاف بينهما هو أن التفسير بالكيف يعتمد أكثر ما يعتمد على ما ينتحى إليه الفيلسوف الذى يقوم بالتفسير ، بينما التفسير باالسلوك يقترب أكثر ما يقترب من واقع حياة العبقرى . وعلى أية حال فنحن لا نزعم أن تفسير العبقرية يمكن أن يعتمد على زاوية واحدة دون باقى الزوايا. فكلما كانت الزوايا التى نأخذها فى الاعتبار أكثر عددا كان تفسيرنا أقرب ما يكون إلى الصحة والحقيقة ، وبعيدا عن الفروض الجوفاء البعيدة عن الواقع .

---

(١) العبقرية فى الفن – مصطفى سويف – ص ١٠ .

ونستطيع القول بأن العبقرية - من زاوية السلوك - هى قدرة المرء الفعلية على الخلق والابتكار فى مجال من مجالات معينة ، سواء كانت تلك القدرة فطرية أم مكتسبة . المهم أنها قدرة بادية للعيان فى واقع الحياة العملية . فالعبقرية هى ملكة الابتكار أو الاختراع، فلكى يكون الشخص عبقريا يجب أن يكون قادرا على كشف النقاب عن شىء جديد فى مجالات العلم أو الفن الجمالى أو الفن العملى . وقد يكون الاكتشاف خطيرا فيكون العبقرى حاصلا على درجة عالية من درجات العبقرية . إذن فهناك عباقرة كبار ، وعباقرة صغار . ولكن الاستخدام الشائع للعبقرية ينحو إلى قصر هذه التسمية على أولئك الذين يقومون بالكشوف الخطيرة وبالاختراعات التى تهز الحياة الإنسانية والتى تغير مجرى التاريخ [(١)] .

إذن فالمهم فى العبقرية أن يتصف صاحبها بالأصالة فى الفكر وبحيث يتبدى ذلك فيما يسلك به فى الحياة العملية . وليس ما ينحو به العبقرى مجرد زحزحة بسيطة عن المألوف بل هو شىء غريب تماما ، بل شىء خارج نطاق ما يمكن أن توفره التربية بوسائلها المعروفة . ذلك أنها ليست مجرد موهبة عقلية كما قلنا بل إنها عطية فريدة لا تمنح للبشر إلا فى أندر النادر .

ولكن على الرغم من تجاوز العبقرى للمألوف والواقع ، فإنه يبدأ بلا شك من الواقع ، فى أعلى وأسمى صوره . فهو ببراعة خاصة وفريدة يحدث ترابطا معينا بين الطابع الشخصى والفكر الخلاق وبين الموقف الاجتماعى ، وبذا فإن الأفكار القديمة تنبثق عن معان وقوى جديدة لم تكن لتتوافر بغيره . والواقع أن جميع الكشوف والمخترعات الجديدة تحدث من خلال التزاوج المثمر فيما بين المعرفة التقليدية وبين الخطوط التى يشقها العبقرى ، بحيث يسحب تيار القديم إلى منحنى جديد من ابتكاره شخصيا [(٢)] .

ولكن عملية تحويل التيار هذه لا تكون مصحوبة فى الغالب بموافقة المجتمع وتأييده بل تكون فى بداية الأمر مصحوبة بمقاومة عنيفة ، بل وباتهام العبقرى

---

(١) Larousse Du XXe Siècle, Paris, 1930, Tome Troisième, P, 753.

(٢) CHARLES HORTON COOLEY, Social Processes, Southern Illinois University Press, 1966, P. 17 .

بالجنون والبلاهة، أو بالتخلف عن فهم المقومات التى يرتكز عليها القديم . وهذا ما حدث لجاليليو (١٥٦٤ - ١٦٤٢) فى برج بيزا ، عندما اتهمه العلماء وقتئذ بعدم فهم كتب أرسطو .

وهنا نكتشف فى ذهن العبقرى صورة ذهنية عن نفسه قد تختلف كثيرا أو قليلا عن الصورة التى يستطيع تقديمها للمجتمع الذى يعيش فيه . إنه قد يستطيع أن يقدم إليه صورة حقيقية وصادقة عن نفسه ، كما قد يعجز عن ذلك ، ولكن فى الحالتين يصر على الاستمرار فى طريقه التى يشقها لنفسه ويظل متشبثا بها حتى النهاية .

وبينما يكون الشخص العادى متأثرا جدا بتقديرات الآخرين وثنائهم على أعماله وسلوكه فإن العبقرى لا يهمه من الموقف السلوكى إلا أن يتطابق الواقع مع ما ارتسم فى ذهنه من صور. وأكثر من هذا أن العبقرى كما سبق أن ألمحنا - قد يتخذ من الموقف العدائى الذى يقابله مع الآخرين ، نقطة بداية لمعركة ضارية يجد فيها كل لذة وهو واثق من قدرته على الانتصار لما أوتى به من عبقرية عقلية جبارة . فهو ينظر إلى الآخرين باستخفاف لأنه يحس بالبون الشاسع بينه وبينهم . فإن العبقرى هو واحد من مليون شخص مثلا ، إذن فقيمته يجب أن تساوى مليون شخص مجتمعين .

ولقد يفسر موقف العبقرى هذا بأنه موقف مناهض لمبدأ التوافق الاجتماعى الذى طالما نادى به المربون وعلماء الاجتماع ، وجعلوه شرطا لنجاح الشخصية فى الحياة . ولكن الواقع أن هناك ثلاثة مستويات للتوافق الاجتماعى هى: تحت التوافق، التوافق ، وفوق التوافق ، فالشخص قد يكون قاصرا عن إحداث التوافق بينه وبين المجتمع من حوله ، فنقول إنه لم يحظ إلا بمستوى تحت التوافق ، وقد يكون الشخص عاديا فى توافقه للمجتمع من حوله فنقول إنه متوافق اجتماعيا . وفى بعض الحالات النادرة يكون الشخص أرقى من المجتمع الذى يستظله، فيأخذ فى تجريده فى ذهنه بحيث يجعل منه طبقات ومستويات هرمية . ويجعل فى قمة الهرم مستوى هو أعلى جميع المستويات . وطبيعى أن العبقرى لا يرغب فى التوافق مع المستويات الدنيا التى تمثل الدهماء ، بل يتشبث بأن يتوافق مع أرقى المستويات جميعا ، وهو المستوى الذى ربما لا يكون له وجود إلا فى ذهن العبقرى فحسب .

ولعل العبقرى هو الشخصية التى أستطاعت أن تحظى بصورة حقيقية عن ذاتها ، وليس هذا من الأمور الميسورة لكل إنسان ، بل إنه من الأمور التى أعلن صعوبتها الفلاسفة والحكماء . فنحن نجد البوذيين يعلنون مبدأهم القائل « إن الإنسان يصير كما تتصوره أنت » ولكن شتان ما بين تصورك وبين الحقيقة المستغلقة عنك ، وكذلك يعلن سقراط أن من المهام الشاقة أمام الإنسان أن يعرف ذاته ، وكذا يعلن نيتشه أن الإنسان أبعد ما يكون عن حقيقة نفسه .

وفى معظم الحالات تكون هناك مفارقة صارخة بين الصورة التى رسمها العبقرى لنفسه ، وبين الصورة الذهنية التى رسمها الناس فى أذهانهم عن ذلك العبقرى . فبينما هو يكون قد رسم لنفسه صورة فى أعلى مستوى ، يكون المجتمع قد رسم له صورة ضعيفة باهتة . ومن هنا فإن العبقرى يلجأ إلى خياله حيث يخترع مجتمعا آخر غير المجتمع الواقع يعوض به ما افتقده فى مجتمعه الذى ينكر عليه الاحترام والتقدير . وبذا يصر العبقرى على الاستمساك بالصورة الذهنية التى رسمها لنفسه . ولا يكون مستعدا لإبدال غيرها بها . ولقد يعمد العبقرى إلى إقناع نفسه بأن المجتمعات القادمة التالية لجيله سوف تعترف له بالعبقرية . وبذا فإنه يضم نفسه إلى تلك المجتمعات القادمة ويسلخ نفسه عن المجتمع الراهن وينسب نفسه إلى المستقبل بدلا من الحاضر . والواقع أن هذا يصح بالنسبة لكثير من العباقرة . نذكر منهم على سبيل المثال شوبنهور Schopenhaur الذى نشر كتبه فى عام ١٨١٩ ولكنه لم يلق التقديز المناسب لمقامه إلا بعد عام ١٨٤٨ . ولكن ربما يكون الشخص ليس من العبقرية فى شىء ، بل يكون مصابا بجنون العظمة ويكون انتظاره لتقدير الأجيال القادمة له ضربا من الجنون ، وتكون الصورة التى رسمها لنفسه صورة زائفة أبعد ما تكون عن واقعه الضحل الأجوف [1] .

ولا شك أن العبقرية التى يغتصبها العبقرى لنفسه من المجتمع حتى ولو لقى

---

(١) HANS GRATH and C. WRIGHT MIls, Character and Social Structure, Routledge and kegan Paul LTD, London, 1969 . P . 89 - 93.

فى سبيل ذلك الهوان والتعذيب أو حتى القتل ، لهى ضرورة لازبة لإثبات عبقريته . نذكر منهم على سبيل المثال جيوردانو برونو Giordano Bruno (١٥٤٨ - ١٦٠٠) الذى لقى حتفه بسبب عبقريته وتشبثه بأفكاره الجديدة . فالعبقرى يرغب فى أن يكون ذاته الحقيقية معبرا عنها فى الواقع الاجتماعى بغير تزييف أو حتى بغير تعديل . إنه يستمسك بالتلقائية فى التفكير وفى التصرف وفى الحكم ويجعل من ذلك نبراسا لحياته وسلوكا واقعيا فى علاقاته بالمجتمع من حوله ، وطبيعى أن هذا لمما يثير السخرية أو العداء فى قلوب المحيطين به ، ومن ثم فإنهم يعمدون إلى الاستهزاء به أو مقاومته بشتى الوسائل والأساليب . والواقع أنه على الرغم من أن علماء التربية ينادون بالحرية تكفل للطفل ، فإن أحدا منهم لا يكاد يجرؤ على الاعتراف بالحرية المطلقة لفكر الطفل . إن أكثر المربين تشبثا بالحرية - من أمثال روسو - يعودون إلى تقييد تلك الحرية، فروسو لم يكد ينادى بكفالة الحرية للطفل حتى عاد فاستلبها منه بنفس الكتاب « إميل » الذى يعد من أكثر الكتب مناصرة لتحرير الطفولة .

والواقع أن الصورة الذهنية التى يشكلها المرء لنفسه قد تكون أقل قيمة من الصورة التى ينسجها الناس له في خيالهم . فهناك بلا شك مجموعة كبيرة جدا من الناس الذين حسبوا ضمن العباقرة وهم فى حقيقة الأمر ليسوا سوى أشخاص ساعدت الظروف على درجهم فى نطاق العباقرة مع أنهم ليسوا من العبقرية فى شىء . خذ مثالا لذلك كريستوفر كولمبس .Columbus, C (١٤٥١ - ١٥٠٦) . الواقع إنه ليس من الممكن أن نعزو جميع النتائج المترتبة على اكتشافه لأمريكا بما فى ذلك قيام الولايات المتحدة كقوة دولية كبرى إلى عبقريته الفذة . فواقع الأمر أن كولمبس لم يكن حاصلا إلا على ذكاء منخفض نسبيا ، كما أنه كان قبطانا فاشلا ، أما عقله فكان مفعما بالخرافات ، ولم يكن حصيفا فى إنفاق نقوده أو حتى أموال غيره مما أدى به إلى السجن على يد الملك . ويعلل ولهلم لانج Wilhelm Lange العظمة التى يحظى بها بعض الناس بغير استحقاق إلى أن هناك فى الغالب حاجة تعتمل لدى العامة للبحث عن شخصية يكيلون لها التقدير والتعظيم وينيوطون بها الغموض والقوة الخارقة والذكاء النادر .

وهناك من يقولون نفس الشىء بإزاء نابليون . فيزعمون أن بعض الرجال يلبون نداء الساعة الراهنة ومن هؤلاء نابليون . ولكن الواقع أن نابليون يختلف عن كولمبس فى أن نابليون كان يحتفظ فى ذهنه بصورة مرموقة لنفسه ، وكان عاكفا على تحقيقها فى الواقع الخارجى . ونفس الشىء يقال عن جوته [1] . وهناك قلة من العباقرة تكون هناك صور متواضعة قد ارتسمت لهم فى أذهانهم بينما يحظون بتقدير كبير من جانب الآخرين . من هؤلاء سقراط الذى لم يزعم لنفسه أنه يعرف أكثر من أنه جاهل .

ومهما كان الاختلاف أو الاتفاق بين الصورة الذهنية التى يرسمها العبقرى لنفسه والصورة التى يرسمها له المجتمع ، فمما لا شك فيه أن هناك صراعا بين العبقرى والمجتمع الذى يعيش فى نطاقه . ويعتقد البعض أن ذلك الصراع الذى تتعرض له شخصية العبقرى ، أعنى ذلك الصراع بين أهدافه الخاصة وبين الهدف المشترك للجماعة هو الذى يحدث وضعا سلوكيا لدى العبقرى ينشأ عنه ما يمكن أن يسمى بالعبقرية. ولكن نشأة العبقرية بسبب اختلاف الصور الذهنية بين العبقرى والمجتمع وما ينشأ عن ذلك من صراع ليس أمرا مفروضا ومحتما . فلقد ينشأ عن هذا التباين والاختلاف شىء آخر هو الجنون ، أو تنشأ أية ظاهرة تدل على سوء التكيف ... وما من شك فى أن معظم الباحثين التقوا عند فكرة الصراع باعتبارها علة العبقرية .

فجينو سفرينى G. Severini يقول « من الجلى أن الصراع بين الفنان والمجتمع أمر فى غاية الأهمية ... ولكن إذا كان لدى الفنان أمر يقوله وإذا أتيح له القول فى حرية ، فإن الاتصال يمكن أن يتم دائما بين عالمه وعالم الآخرين » .

أما لنجفيلد H.S. Langfeld فيقول إن أحوال الفنانين تشير إلى حقيقة مؤداها أن الإبداع الفنى ينشأ بوجود صراع لا يمكن حله حلا مباشرا فيما يسمى بعالم الواقع العملى . ويمكننا أن نقول ببساطة أن الانفعالات تكون عند الجذور من

---

(١) Ibid, P. 412 .

الإبداع الإستطيقى . وعلى هذا الأساس يجب تصحيح القول الشائع بأن هذا الشخص كثير الانفعالات لأنه فنان ، بأن يعدل إلى القول بأنه فنان لأنه كثير الانفعالات . أو بعبارة أخرى لأن حياته زاخرة بضروب من الصراع لا يحسن التغلب عليها إلا فى ميدان الإبداع الفنى . والواقع أن الإبداع بمعناه الدقيق يقوم على حياة ملؤها مشكلات تثير القلق والاضطراب [١] .

وهناك موقف سلوكى آخر يتسم به العبقرى ، سواء فى مجال الفن أو مجال العلم أو الأدب أو غير ذلك من مجالات النشاط الإنسانى. ذلك الموقف هو الاستغراق الذهنى وفقدان الانتباه الإرادى . فالعبقرية تحول بين الإنسان وبين اكتساب العادات المتعلقة بالانتباه الإرادى . فالانتباه الذى يحرزه العبقرى ليس ناشئا
الاستغراق الذهنى وفقدان الانتباه الإرادى . فالعبقرية تحول بين الإنسان وبين اكتساب العادات المتعلقة بالانتباه الإرادى . فالانتباه الذى يحرزه العبقرى ليس ناشئا
عن عادة ذهنية مكتسبة ، بل عن إرادة العبقرية ذاتها لدى العبقرى . فالعبقرى فى استغراقه الفكرى لا يكون مسيطرا على فكره ، بل يكون فكره هو المسيطر عليه [٢]. وهنا لا نكاد نجد فرقا جوهريا بين العبقرى والمجنون . والفرق الوحيد الذى يمكن التماسه هو أن ما يقدمه العبقرى للمجتمع نتيجة ذلك الاستغراق يمكن أن يقنع الناس بقيمته ، بينما يعجز المجنون عن ذلك . وممن هنا أيضا فإن أصبع الاتهام بالجنون توجه إلى العبقرى بسبب فقدانه القدرة على الانتباه الإرادى ، وخضوعه لسلسلة متصلة من الصور الذهنية التى تفرض نفسها عليه ، صارفة كل اهتمام لديه عن الأشياء والأحداث من حوله .

ولقد لفتت عملية الاستغراق الفكرى هذه أنظار الكثيرين من المفكرين وعلماء النفس . ومن هؤلاء مثلا مكدوجال W. McDougall (١٨٧١ - ١٩٣٩) الذى يفسر العبقرية بالاتصال العقلى telepathy بين العقول . ففى رأيه أن عقل الفرد لا يبزغ منفصلا عن جميع العقول الأخرى، ولا يقتصر فى اتصاله بها على الأجهزة الجسمية المتعلقة بالتعبير والإدراك الحسى ، بل يجب البحث عن وسائط أخرى يتم

---

(١) الأسس النفسية للإبداع الفنى - مصطفى سويف - دار المعارف - ١٩٥١- ص ١١٧ .

(٢) WILLIAM JAMES, Psychology, A Fawett, Premier Book, 1966, P 207 .

بها التأثير المباشر بين العقول المتباينة . وثمة فى رأيه طريقان للتفسير : الأول أن هناك عمليات عقلية غيبية تعمل على التأثير فى بعض العقول كعقول الأنبياء والملهمين والعباقرة ، وذلك بواسطة عقل أقوى من عقول البشر ، والثانى - تركيز عدة عقول فى عقل واحد. ولكن مكدوجال يستبعد هذا الافتراض الأخير ويرجح الافتراض الأول على أساس أن العبقرى يأتى بالجديد الذى لا تمتلكه عقول الناس المعاصرين له (١) .

ويعرض مكدوجال للمحاولات التى تفسر ظاهرة العبقرية على أساس الافتراض الذى يفسر ما تتسم به من إحراز تفوق لم يسبقها إليه أحد من قبل . وأهم تلك المحاولات فى رأيه ما ذهب إليه وليم جيمس (١٨٤٢ - ١٩١٠). فجيمس ينظر إلى جميع العقول باعتبار أنها مرتبطة بعضها ببعض بطريقة مباشرة معينة ، تسمح بالتأثير المتبادل فيما بينها وفرض قوتها بعضها على البعض الآخر ، وبتعبير آخر فإن جميع العقول سواء تلك التى تقل عن عقول الناس العاديين أم العقول التى تعلو على عقول الناس العاديين ، إنما هى فى واقع الأمر لا تعدو أن تكون عقلا واحدا كبيرا . وبذا فإن عقول الأفراد ليست أكثر من تعبيرات جزئية عن ذلك العقل الواحد ، ولكنها مقيدة بالخصائص الفردية المتعلقة بالبنية الجسمية لأولئك الأفراد. وهكذا يفسر وليم جيمس العبقرية بأنها قبس من ذلك العقل العام الشامل لجميع العقول قاطبة . ولا يختلف العبقرى عن غيره من أفراد فيما يتعلق بإمكان استشفافه لقوة العقل العام الشامل إلا من حيث استعداده الجسمى لهذا التقبل (٢). فكأن عقول الأفراد بمثابة أجهزة استقبال تختلف فى مدى حساسيتها من جهاز لأخر . وكأن العبقرى هو جهاز استقبال على أكبر جانب من الحساسية ودقة الاستقبال .

ويعتقد مكدوجال أن نشاط العبقرى الذى يبدو وكأنه نشاط لا شعورى هو فى الحقيقة نشاط متأثر على نحو أو آخر بالنشاط الشعورى . وعلى الرغم مما يظهر من تلقائية تامة فى أعمال العبقرى ، فواقع الأمر أن نقطة البداية لديه تكون إرادية

---

(١) McDougall, Psychology, the study of Behavior, Oxford University Press, London, 1947 , P. 156 .

(٢) Ibid., P. 168 .

وخاضعة لمشيئته. نعم إنه بعد أن يخضع نفسه للتوجيه الذهنى فإنه يستغرق فى التفكير بحيث يصير مستغرقا تماما فيه . ويدلل مكدوجال على رأيه هذا بأن المشكلة التى تحظى بالحل فى أثناء نوم العبقرى هى غالبا ضمن المشكلات التى حاول التوصل إلى حل لها خلال يقظته . وحتى الأعمال العلمية الكبرى التى بزغت فى عقول العباقرة فجأة قد سبقها بلا شك محاولات علمية وفروض موجهة إلى ما يتعلق بتلك الأعمال (١). وحتى فى حالات الاستغراق الفنى فإن الفنان يتخذ الخطوة الأولى بمحض إرادته ، وما يفتأ ينساق مستغرقا فى فكره وتأملاته.

وهذا يذكرنا بما سبق أن قررناه فى كتاب آخر بصدد الإلهام المفاجئ الذى يواتى الكثير من العباقرة . فلقد قلنا « إن المخ البشرى لا يعمل ونحن فى حالة اليقظة فحسب ، وإنما يعمل باستمرار حتى وإن لم نكن على وعى بالعمليات الدقيقة التى تتم فى ثناياه الدقيقة . وكما قلنا فإن هذا الجهاز يحتفظ بما يصل إليه من رسائل ويأخذ فى الربط بينها على نحو معقد للغاية . وأكثر من هذا فبمقدوره أن يقيم علاقات بين العلاقات ذاتها ومن هنا ينشأ الفكر المجرد الذى اعتقد سقراط ومن على شاكلته أنه قد لا يستند إلى الجزئيات المحسوسة من البيئة الواقعية (٢) ».

ويبدو أن هذا يتمشى مع رأى مكدوجال الذى يقول: إن ما يمكن أن ينطق به الشخص من كلام ذكى بغير أن يكون معدا له من قبل تفسيره أنه قد حدثت عمليات هضم لا شعورية لما عبر عنه ذلك الشخص فى وقت أو آخر لا يستبينه بالضبط.

وخلاصة القول أن العبقرى فى سلوكه إنما يكون نتيجة عدة تفاعلات داخلية، ويكون سلوكه الخارجى المعبر عنه بمثابة تعبير عما يعتمل بداخله حتى وإن بدا أنه لا يعمل تفكيره بعمق فيما يعمله أو يخترعه . ذلك أن السلوك اللاشعورى لديه يسبق

---

(١) Ibid., P. 162.

(٢) كيف تتعامل مع غيرك - يوسف ميخائيل أسعد - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٧٢ ص ٢٠ .

سلوكــه الشــعــورى ، وأن إلهــامــه يجــد مــا يفــســره فى حــيــاته وخــبــراته وتفكيره واستعداداته .

العبقري في ضوء الوراثة والبيئة :

على الرغم من أن جولتون يؤكد أن العبقرية هى محصلة عناصر أربعة أساسية هى السمات traits والفكر intellect والحماس Zeal وقوة العمل، فإنه يعتقد أن الوراثة هى المسئولة عن تحديد النسب التى توجد من كل عنصر من هذه العناصر الأربعة لدى العبقرى . فلقد أوضح بكتابه الشهير « العبقرية الموروثة » الذى ظهر عام ١٨٦٩ أن العبقرية كما هى مقاسة بالمنجزات الباهرة التى اضطلع بها العبقرى ، إنما تنحو إلى التمركز بأسر معينة وليست موزعة بالتساوى بين جميع الأسر . فالشخصيات العبقرية يكون لها دائما أقارب عباقرة بنسبة أكبر مما يمكن تفسيره بمجرد الصدفة (١) .

ولقد أثارت الإحصائيات التى قدمها جولتون عدة محاولات لتتبع بعض الأسر للوقوف على أثر الوراثة فى كل من الضعف العقلى والعبقرية، فقام جودار Goddard بتتبع أسرة كاليكاك Kallikak كما قام دجديل Dugdale بتتبع أسرة جوكس Jukes وهما أسرتان ينتشر فيهما الضعف العقلى ، ومن جهة أخرى فقد قام ونشى Win-shy بدراسة أسرة إدواردس Edwards التى تنتشر بها دلالات التفوق والقدرات العالية والتوافق العقلى .

بيد أن جميع هذه الدراسات تعتورها صعوبة منهجية خطيرة . فلا شك أن هذه الأسر جميعا كانت تتسم بالاتساق النسبى ، ليس فقط من حيث الوراثة ، بل أيضا من حيث البيئة التى كانت تعيش فى نطاقها . والواقع أن تاريخ الأسر من هذا القبيل لا يمكن أن نفصل فيه بين عامل الوراثة وعامل البيئة مما يجعل تقديم الإحصاءات قليل الجدوى .

---

(١) Encyclopaedia Britanica, Vol. 10, 1972, P. 103 .

ولقد تكون دراسة فوس Voss لأحد الموسيقيين الذى كانت زوجته الأولى ذات مواهب موسيقية نسبيا . لاحظ فوس أن أطفال ذلك الموسيقار من زوجته الأولى قد أبدوا اهتماما أكثر وقدرة فى فنون الموسيقى ، بينما لم يبد أطفاله من الزوجة الثانية شيئا من هذا الاهتمام . ولكن من الواجب أن نلاحظ أن كلا من مجموعتى الأطفال قد نشأوا تحت سقف واحد ، وفى ظل نفس الظروف الاجتماعية والاقتصادية . وحتى فى الحالة التى تشكل فيها الأم جزءا هاما بالنسبة للطفل . فإننا لا نستطيع أن نتأكد مما إذا كان التأثير يعزى إلى الوراثة المتأتية عنها بيولوجيا، أم عنها تربويا فيكون تأثيرها عندئذ بيئيا [١] .

والواقع أن نيتشه يضرب فى نفس الاتجاه الذى يقول به جولتون ، فيقدم مفهوم السوبرمان superman. ويتفق الاثنان على أن العبقرية تتحدد بالعوامل الوراثية ، وأن العوامل البيئية ليس لها دور فى خلق عبقرية العبقرى [٢].

ومنذ أن أثار كل من جولتون ونتيشة تأثير الوراثة فى خلق العبقرية والبحوث تتدفق للكشف عن جلية الأمر ، ولكن جميع البحوث التى تم تقديمها فى هذا الصدد لم تكن حاسمة . فليس من السهل البت فى ترجيح كفة الوراثة أو كفة البيئة ، أو بتعبير آخر كفة العوامل البيولوجية أو كفة العوامل التربوية . بيد أن هناك اتفاقا شبه عام بأن العبقرية هى وظيفة تضطلع بها كل من العوامل الوراثية والعوامل البيئية . فالإمكانية الأصلية للمنجزات غير العادية تتأتى عن الوراثة ، ولكن ما إذا كانت تلك الإمكانية تخرج إلى حيز الوجود أم لا ، فإن هذا يعتمد - إلى حد ما على الأقل - على الفرصة التى تتاح للمرء وعلى ما يتلقاه من تدريب .

والواقع أن الدراسات التى تمت حول مشاهير الرجال ومشاهير النساء تظهر أنه لا يوجد قطر ولا توجد فترة زمنية لم ينتج خلالها بعض الأشخاص العباقرة . ولكن ربما تكون أكبر نسبة من العباقرة بالنسبة لمجموع السكان هى تلك التى ظهرت

---

(١) OTTO KLINEBERG. Social Psychology, New York, Holt, Rinehart and WINSTON, 1954, P. 240 - 1.

(٢) ENCYCLOPEDIA Americana New York, 1965, Vol. 12, 1965, P. 401.

بأثينا خلال الفترة الممتدة من القرن الخامس حتى القرن الثانى قبل الميلاد بوجه التقريب ، حيث كانت هناك دولة المدينة بعدد من السكان لم يكن يزيد عن ٢٥٠٠٠ مواطن . ولقد نذكر من بين عباقرة تلك الفترة بركليس وأفلاطون وأرسطو.

ومما لا شك فيه أنه قد وجد بجميع الأقطار وجميع الأجيال أسر وطبقات اجتماعية ومجتمعات محلية أنجبت عددا من العباقرة أكثر من غيرها . ومما لا شك فيه أن الناس الذين تعزى عبقريتهم إلى ما وهبوه من مقومات وراثية أو إلى ما أنجزوه من أعمال خارقة بعد نضوجهم ، إنما يكونون قد فاقوا بما ورثوه أو بما أنجزوه سائر الشعب ، بيد أنه ليس من االمستحيل أن نقرر بأية درجة من الحسم ما إذا كان هذا يعزى إلى الوراثة المتفوقة أم إلى البيئة الممتازة . والواجب أن نضع دائما نصب أعيننا أن العباقرة بجميع الأقطار خلال جميع العصور قد انبثقوا عن جميع الطبقات الاجتماعية ، ولم يكن الأمر مقصورا على طبقات اجتماعية بعينها [١] .

ولكن الواقع أن العبقرية - شأنها شأن التخلف العقلى - لا تكرر إلا نادرا بنفس الأسرة أعنى بين الأشقاء والشقيقات . ولقد يبدو أن وقوع العبقرية لم يكن سوى التماع مفاجئ . ولعل العبقرية توجد بكثرة لدى الأشخاص المنجبين من قوميتين مختلفتين مثل بلزاك وبيتهوفن ، أو بين أسرتين تعملان فى مجالات مختلفة، كأن يكون الزوج مشتغلا بالعلم أو أسرة الزوجة تعمل بالتجارة - بسمارك مثلا ، أو بين شخص سريع الاستثارة انفعاليا وشخص فاتر المزاج Phlegmatic - جوتة مثلا [٢] .

أما وكسبرج Wexberg فإنه يؤكد أنه لا يوجد أساس وراثى على الإطلاق بالعبقرية « والخبرة التى يتلقاها الفرد بنفسيته هى التى تؤكد أن منجزاته ليست نتيجة لموهبة موروثة ، وإنما هى نتائج للشجاعة والتدرب ». فالعبقرية لديه ليست نتاجا يقدمه سوبرمان بل هى نتائج الاجتهاد والدافع ذى الطبيعة التعويضية .

« فما يسمى « العبقرية » لا يمكن أن يفسر بأن نعرف أن الآخرين يمكن أن يحرزوا ما سبق أن أنجز فى ظل ظروف معينة » . ويعتقد وكسبرج أن الفروق فى القدرة الفطرية لا توجد ، بل الموجود فقط هو الفروق فيما يفعله الشخص بقدرته .

---

(١) Encyclopaedia Britanica Vol. 10, 1972, P. 103 .

(٢) WILLIAM A. O'CONNER, Psychology Without Tears.

والواقع أن موقف وكسبرج موقف متطرف بالتأكيد ، ولا شك أن قلة من علماء النفس مستعدون لقبول هذا الرأى المتطرف. فهذا الموقف يظل عاجزا عن تفسير وجود حالات كثيرة من التفوق . ففى مقابل موسيقى واحد عظيم أصم مثل بيتهوفن ، فإننا نستطيع أن نشاهد بسهولة مائة شخص تفوقوا فى الموسيقى ، وليس لديهم عاهة في السمع ، وفى مقابل شخص كان مصابا بالتهتهة فى الطفولة صار خطيبا لوذعيا مثل ديموستينس ، فإن هناك خطباء كثيرين تفوقوا فى الخطابة بغير أن تكون لديهم عوائق كلامية .ومن جهة أخرى فإن هناك أناسا كثيرين لديهم ضعف فى السمع بغير أن يستحيلوا إلى موسيقيين بارعين مثل بيتهوفن ، وهناك أطفال يتهتهون وليس بينهم من يصير خطيبا لوذعيا بعد أن يكبر ، إذن لابد أن هناك عوامل أخرى تميز العبقرى من الشخص العادى . والواقع أن هذا العامل قد يكون ما أشار إليه فرويد بأنه « لغز سيكلوجى » ، ولكنه بالتأكيد قدرة لها جانب موروث ، ولكن من الإجحاف أن نفسرها برمتها بالوراثة ، أو أن نقتصر فى التفسير على التدريب فى الطفولة والإحساس بالنقص فى ناحية ما من النواحى العضوية [1].

وليس من شك فى أن الاقتصار على التفسير بالوراثة والاقتصار على التفسير بالعوامل البيئية لهو مناف للحقيقة ، ويحكم على محاولة التفسير بالفشل والضياع . وفيما يلى خطر التفسير بالوراثة وحدها ، نتبعه بعد ذلك بأخطار التفسير بالعوامل البيئية وحدها .

وتتلخص أخطار الاقتصار فى تفسير العبقرية على العوامل الوراثية فيما يلى :

أولا – لا يمكن عزل المقومات الوراثية بالشخصية عن المقومات البيئية . فمن المعروف أن التفاعل الخبرى يتم بطريقة تراكبية ، وليس بدءا بالمقومات الوراثية فى كل موقف خبرى ، فإذا رمزنا للوراثة وللمقومات الوراثية بالرمز « أ » ولأول مؤثر بيئى بالرمز « ب» فإن الكائن الحى يصبح «أ» «ب» بعد أن يتم التفاعل بين المقومات الوراثية وبين أول مقوم بيئى . بيد أن التفاعل التالى لا يتم بين « أ» وبين المؤثر

(١) OTTO KLINEBERG, Social Psychology, New York, Holt, Rinehart and Winston, 1954, P. 468 - 473 .

البيئى الجديد « جـ» بل يتم بين المركب الوراثى البيئى الذى هو «أ» «ب» وبين المؤثر البيئى «جـ» ويصبح الكائن الحى هو أ ب جـ بعد أن كان أ ب فقط ، وهكذا يتم تفاعل خبرى جديد بدءا من آخر مستوى تراكبى وصل إليه الكائن الحى . وبناء على هذا التصور التراكبى يكون من المستحيل عزل المقومات الوراثية عن المقومات البيئية لدى العبقرى أو لدى الشخص العادى ، أو حتى لدى الشخص المتخلف عقليا .

ثانيا – الواقع أننا نفهم العبقرية بأنها المنجزات الخارقة للمعتاد ، وينبنى تصورنا للعبقرية على المنجزات التى لايستطيع الأشخاص العاديون الإتيان بها . وهذا فى حد ذاته اعتراف بأهمية البيئة ، وأهمية الخبرات التربوية التى تلقاها الشخص قبل إحرازه للعبقرية .

ثالثا – لا شك أن العبقرية ترتبط فى كثير من الأحيان بالعادات السلوكية ، وبضمنها العادات العقلية التى يحصل عليها المرء . ومن المقطوع به أن العادات العقلية التى يكتسبها الشخص لا تحول بينه وبين شق طرق جديدة واستكشاف حقائق متجددة بصفة مستمرة . ونذكر بهذا الصدد الفيلسوف الألمانى كانط الذى أخضع حياته لنظام صارم، وقد اكتسب مجموعة منتقاة من العادات اليومية والعقلية صارت ركيزة لما ابتكره بعد ذلك من مناح فلسفية جديدة .

رابعا – إن علم الوراثة توصل إلى تأكيد توريث الخصائص الجسمية ، ولكنه لم يؤكد توريث الخصائص العقلية والنفسية والأخلاقية المتصلة بسلوك المرء داخليا وخارجيا، فهذا العلم قصر همه على النواحى البيولوجية ولم يذكر شيئا عن النواحى العقلية والوجدانية .

خامسا – وحتى إذا كانت هناك وراثة للخصائص العقلية والنفسية ، فإن ديناميات هذه الوراثة غير معروفة .

سادسا – الواقع أن اللجوء إلى التفسير بالوراثة بمثابة عجز عن التفسير وعن التحكم فى خصائص العبقرية واستحداثها بالتربية ، ومن ثم فإن الناس يخبئون عجزهم عن التفسير بالقول المجهول المسمى بالوراثة .

سابعا – قد تكون هناك نزعات سياسية وتحيزات طبقية تحمل البعض

على تفسير العبقرية بالوراثة . فما دامت المسألة مسألة وراثة ، إذن يجب أن نعترف بأحقية بعض الأسر بالسيادة على غيرها من أسر ، وفى نفس الوقت لا يكون هناك أمل أمام المجتهدين لإحراز أى تفوق لأنهم لم ينزلوا من صلب أسر عبقرية.

ثامنا – إن الاقتصار على تفسير العبقرية بالوراثة معناه إبطال فاعلية التربية. وحيث إن التربية تستهدف الارتقاء بالإنسان عقليا ، فهى إذن عبث من العبث لأن ذلك الارتقاء لا يتأتى إلا بعامل خفى هو الوراثة .

تاسعا – إن القول بالوراثة فحسب معناه أننا إذا عزلنا الطفل بعيدا عن المؤثرات البيئية الاجتماعية ، فإنه يبدى مع هذا تفوقه . وهذا أمر مخالف للواقع. وشاهد ذلك أن الأطفال الذين عثر عليهم بعد أن كبروا نسبيا بالغابات كانوا مفتقدين لأبسط مقومات الإنسان العادى. فمهما كانت عوامل الوراثة لديهم عالية ، فإن الافتقار للتدريب المنظم واكتساب العادات المناسبة للحياة فى ظل الحضارة يحول دون بزوغ أو تبلور الخامات الوراثية التى فطروا عليها.

عاشرا – لو أن مسألة العبقرية متعلقة بالوراثة وحدها ، لكنا إذن وجدنا العباقرة ينجبون عباقرة مثلهم أيضا . وهذا مخالف للواقع . فحتى إذا كان أبناء العبقرى من الأسوياء فهم بالتأكيد ليسوا عباقرة مثله .

ولعلنا فيما يلى نذكر أخطاء الاقتصار على القول بالعوامل البيئية التربوية وحدها دون المقومات الوراثية لتفسير العبقرية :

أولا - لو أن التربية تستطيع وحدها خلق العبقرى ، لكان من السهل تخريج الآلاف من العباقرة فى كل جيل من المدارس والجامعات. وواضح أن كل ما تستطيع التربية النظامية عمله هو إتاحة الفرصة المناسبة لنمو المقومات الفطرية بالشخصية وإخراجها إلى حيز الوجود .

ثانيا – لو أن التربية والمثيرات البيئية كانت متمتعة بكل هذا التأثير ، إذن لكان من الميسور تحويل المتخلف عقليا إلى شخص سوى ، بل وإلى شخص عبقرى . والمعروف أن التربية مهما كانت ذات فاعلية، فإنها تقف عاجزة عن الارتفاع بالطفل إلى المستوى العقلى الذى جبل عليه لكى تدرجه بمستوى عقلى أعلى من مستواه العقلى الفطرى .

ثالثا - لو أن التربية كانت هى العامل الفعال فى استحداث العبقرية . إذن لكنا قد وجدنا العباقرة من خريجى المدارس والكليات النظامية دون غيرهم . والواقع غير هذا . فإذا أنت تصفحت حياة العباقرة إذن لوجدت أن معظمهم من غير خريجى المدارس والجامعات النظامية ، وخير شاهد على هذا بمجتمعنا المصرى العقاد وتيمور ، وكلاهما لم يتم تعليمه ولم يلتحق بجامعة، ومع هذا فقد تفوق الأول فى مجال التأليف الأدبى ، كما تفوق الثانى فى مجال القصة وبخاصة القصة القصيرة .

رابعا - لو أن التربية كان لها اليد الطولى فى استحداث العبقرية ، لكانت إذن قد استطاعت أن تخلص مما يعتور معظمهم من شذوذ فى السلوك يشار إليه أحيانا بأنه نوع من الجنون أو العصاب.

خامسا - إذا كانت التربية هى العامل المؤثر الوحيد فى استحداث العبقرية دون الوراثة لكانت مدارس المتفوقين فى العالم قد أنجبت عباقرة كثيرين . وهنا نذكر مرة أخرى ترمان ومعاونيه الذين ثبت أن لديهم ذكاء أعلى من ١٤٠ ، ولكن بتتبعهم فى مجريات حياتهم فيما بعد الطفولة ، ثبت أنهم لم يصيروا عباقرة ، بل صاروا مجرد أشخاص نابهين .

سادسا - إن كثيرا من العباقرة لم تكن المؤثرات البيئية المحيطة بهم مواتية أو مشجعة لظهور عبقريتهم ، ومع ذلك فقد شقوا طريقهم إلى العبقرية .

سابعا - وكثير من العباقرة كانوا مصابين بعاهات من المتوقع أنها كانت ستشكل حوائل وحواجز بينهم وبين العبقرية ، ولكن ما حدث كان عكس ما يفرضه منطق الواقع . ويبدو أن المقومات الوراثية هى التى حطمت الحواجز الجبلية بعاهاتهم الجسمية .

ثامنا - واضح أن فرض نوع من التعليم على الشخص الذى لم يتهيأ له وراثيا يحدث لديه نفورا بحيث يتعذر عليه تعلم ما يقدم إليه من خبرات . وشاهد ذلك ضخامة حجم العادم فى المناهج الدراسية لتلاميذنا وطلابنا . إن ما لا يستفيد

منه الطالب أو لا يستسيغه إنما هو شىء لا يماشى ما جبل عليه من استعدادات موروثة.

تاسعا - إن كثيرا من الفاشلين فى حياتهم الدراسية يبدأون فى النبوغ بعد ترك الدراسة النظامية بفترة تقصر أو تطول . ومعنى هذا أن شيئا من النمو يواتى أولئك الأشخاص ، وكأن هناك مقومات وراثية فى وقت معين حتى بعد أن يكون الشخص قد ترك المدرسة .

عاشرا - إن كثيرا من الأحكام التى يصدرها المدرسون على تلاميذهم بأنهم لا يصلحون للتعليم تكون خاطئة . وهذا يحدث أيضا بالنسبة لبعض العباقرة . فلقد حكم مدرسو إديسون عليه بأنه طفل أبله لا يصلح للدراسة، وسلموه لأمه التى عكفت بعد ذلك على تعليمه فى البيت . ومعنى هذا أن المدرسة قد لا تنجح فى تقييم قدرات التلميذ ، ولكن الوراثة الصالحة تنتهز الوقت المناسب لكى تظهر وتبزغ للعيان.

المرأة والعبقرية :

لقد أدى تعدد حالات العبقرية بين الرجال وندرة ظهور العباقرة بين النساء بالإضافة إلى الفكرة السائدة القديمة بأن الضعف العقلى ينتشر فيما بين الرجال أكثر من انتشاره بين النساء ، إلى القول بأن الرجال أكثر تنوعا وتباينا من النساء . ولقد استمرت النظرة إلى النساء باعتبارهن محصورات فى نطاق ضيق عما هو الحال بالنسبة للنطاق الذى يحتله الرجال ، فذاع الاعتقاد بأن الرجال يتوزعون على نطاق واسع ابتداء من الضعف العقلى حتى العبقرية ، بينما لا يحتل النساء بوجه عام إلا مكانة وسطا لا تنزل إلى درك الضعف العقلى ، ولا ترتفع إلى معارج العبقرية .

بيد أنه لم يُعمل مسح كامل حول ضعاف العقل من الجنسين حتى يتسنى الوقوف على الأعداد النسبية من كلا الجنسين بمستشفيات ضعاف العقل . وحتى فى حالة توافر تلك الإحصاءات . فإن الذائع أن من الصعوبة بمكان العناية بالذكور منهم بالبيت ، بينما يتيسر ذلك بأكثر سهولة بالنسبة للإناث . ولذا فإن صعوبة

رعاية الذكور ذوى العقل الضعيف بالبيت ساعدت على زيادة عدد ضعاف العقل منهم بالمستشفيات والمؤسسات الخاصة برعايتهم [١] .

والواقع أن نتائج اختبارات الذكاء لا تجلى عن فروق بين الذكور والإناث يعتد بها فيما يتعلق بمستوى الأداء العقلى . ومن الذائع بين علماء النفس أنه لا توجد فروق بين الجنسين فى هذا الاعتبار . بيد أنه يشار دائما أن ما يسمى بالعبقرية يعد شيئا نادرا بين الإناث . يقول كنكور Concourt فى هذا الصدد « إنه لا توجد نساء عبقريات، وحتى جميع النساء العبقريات هن فى الحقيقة رجال ». ولعله يقصد بقوله هذا أنه حتى فى حالة وجود امرأة عبقرية ، فإن العنصر الذكرى لديها يكون ظاهرا ، ومن هؤلاء روث بونور Roth Bonheur وجورج صاند George Sand وجورج إليوت Eliot George وكلهن نساء اتخذن أسماء رجال فى الكتابة والنشر . ولابد أن عنصرا ذكريا كان معتملا لديهن على نحو بيولوجى .

وهناك فى الواقع تفسير آخر لندرة العبقرية بين الإناث . فنحن نعلم أنه خلال العصور الحديثة جدا فقط أتيحت للمرأة فرص مماثلة للفرص المتاحة للرجال للمساهمة فى النشاط الاجتماعى الذي يمكن أن تظهر العبقرية من خلاله . ولقد ظلت المرأة حتى السنوات الأخيرة ، وما تزال فى كثير من بقاع الدنيا محرومة من الفرص المتاحة للرجل، وقد وضعت بإزائها المعوقات فيما يتعلق بالوظائف والترقى إلى المناصب الكبرى . وليس من الخطأ ما أطلق عن فئة النساء بأنها أكبر أقلية مظلومة فى العالم ، وذلك فى ضوء الفرص المتاحة لأفرادها ، وفرص الترقى بالسلم الاجتماعى المتاحة لهن .

والواقع أن هذه التمييزات فيما بين الرجال والنساء قد تفسر الظهور النادر نسبيا لعبقرية النساء فى ضوء الإحصاءات المتعلقة بالإنجاز المتفوق. أما بالنسبة لما قاله كنكور فإن هناك بالطبع حالات كثيرة من العبقرية تتجلى لدى نساء يتسمن بالأنوثة الوافرة مثل مارى كورى Marie Caria وأليزابيث باريت بروننج Elizabeth

---

(١) RICHARD T. La PIERE and nPAUL R. FRANSWORTH, Social Psychology, McGrow- Hill Book Comp., InC., New York, 1949, P. 243.

Browning أمـا بالنسبـة للنسـاء اللائى يعـتـقـد أن لديهن عنصـرا ذكـريا يعـتـمل بأضلعهن فالأرجح أنهن تلبسن بأسماء الـرجال وتشبهن بهم لأنهن كن يعلمن جيدا أن حظ الرجال فى الحيـاة الاجتمـاعـيـة أوفـر من حظ النسـاء ، وأنهن إذا دخلن مـيدان الكتابة مثلا بحقيقتهن النسائية فالأرجح أنهن سوف لا يحظين إلا بنصيب ضئيل من النجاح والتفوق [1] .

ولا ننسى ما للعامل الاقتصادى من أهمية فى توافر الفرص للرجال أكثر مما يتوافر للنساء لإظهار عبقريتهن . فالواقع أن العبقرية تظهر فى معظم الحالات فيما يمكن أن نسميه بالهوايات . فعمل العبقرى لا يكون غرضيا محدد الهدف ، بل يكون بمثابة استغراق ذهنى أشبه ما يكون باللعب أو الفن . فالعبقرى في عمله العبقرى لا يقيس نتاجه بما سيجلبه العمل عليه من فوائد تقدر بمبلغ معين من المال ، بل يكون مدفوعا لخدمة الموضوع الذى يتناوله بالبحث أو مدفوعا إلى إظهار البراعة فى العمل بغض النظر عما سيترتب على ذلك من نتائج . وإخال أن نابليون نفسه فى وضعه للخطط الحربية البارعة كان كمن يلعب الشطرنج . إنه كان يهتم باللعبة المثيرة، وبأن يبز كل اللاعبين فى الجولة أمامه . والواقع أن المرأة بوجه عام حريصة على أن تقدر النتائج العملية المباشرة أكثر من اهتمامها بلذة اللعب ولو كانت تلك اللذة مما يجلب الشهرة بأنها عبقرية . وحتى بالنسبة للأمور المجردة كالدين مثلا ، فإنك تجد المرأة كلفة بالتأملات الروحية المباشرة التى تجلب لها السعادة أو التى تصل بها إلى الجنة أو إلى النشوة الروحية والقداسة ، ولكنها لا تكلف كثيرا باللاهوت والفلسفة الدينية ، ولا تهتم كثيرا بأن تأتى بتفسير لاهوتى جديد أو أن تستحدث فلسفة دينية تدعم بها الدين . ونستطيع أن نسمى هذا العامل لدى المرأة بالعامل الاقتصادى سواء كان اقتصاديا يتعلق بالمال المنفق ، أم كان اقتصاديا يتعلق بالجهد المبذول .

---

(١) OTTO KLINEBERG, Social Psychology, New York Holt Rinehart and Winston, 1954, P. 288 .

ولا يمكن أيضا أن نغضى عما خضعت له المرأة وما تزال تخضع له فى كثير من البلاد من تقاليد اجتماعية وما فرض عليها من حجاب عن الأنظار لعدة قرون . والسبب الأساسى فى هذا هو غيرة الرجل من الرجال الآخرين ، وخوفه من إغوائهم للمرأة لتركه والانخراط فى ركبهم بالإغراءات المادية أو غير ذلك من الإغراءات يتوهم الرجل أنها يمكن أن تستلب قلب المرأة . ولقد ساعد على دعم تلك التقاليد الاجتماعية وضرب الحجاب على المرأة قرونا عديدة متصلة ما كان يستعين به الرجل من قسر وعقوبات بدنية يفرضها على نسائه كانت تصل فى بعض الأحيان إلى حد إحداث العاهات أو الانتهاء إلى الموت . ناهيك عما تفرضه التربية من قيود على البنت منذ وقت مبكر فى حياتها ، حتى لقد يحكم عليها في بعض المجتمعات بعدم الاختلاط بأحد من الجيران فتظل بعيدة عن الأضواء ، وتنقطع تماما عن المدرسة والدراسة . فكل هذه الأوضاع لا تسمح بلا شك للمرأة بأن تستكشف ذاتها الحقيقية ، وما يمكن أن تنطوى عليه شخصيتها من عناصر العبقرية .

وأكثر من هذا فإننا نزعم أن المرأة بطبيعتها تبحث عن شخصية عظيمة تتعلق بها وتكن لها الاحترام وتعلنه على الملأ ، وقد يصل ذلك الاحترام فى بعض الحالات إلى درجة تقرب من التعبد . وموقف المرأة حتى فى الحب يختلف عن موقف الرجل. إنها عندما تحب ترغب فى أن تعطى نفسها كلها لذلك الذى أحبته لدرجة العبادة . أما الرجل فى حبه فإنه يريد أن يأخذ ، وأن يستمتع . ونستطيع بلورة هذا الموقف بأن المرأة تحب شخص الرجل الذى يمتلك قلبها ، أما الرجل فإنه يحب جزئيات معينة فى المرأة التى تمتلك قلبه . نعم إنه يحب أيضا شخص المرأة ، ولكنه فى الأعم ينجذب إلى ما يحرك عوامل الوجدان المستمر . ولذا فإن البعض يقولون أن أصحاب الحب العذرى الذين لم يكونوا مهتمين بجسم المرأة إنما هم رجال ينطوون على هورمونات أنثية بنسبة أكبر مما يوجد لدى الرجل العادى . فالهورمونات الأنثية والهورمونات الذكرية توجد لدى الرجال والنساء على السواء ، ولكن الهورمونات الأنثية ترجح الهورمونات الذكرية عند النساء وبالعكس عند الرجال . وربما كان قول كنكور « بأنه لا توجد نساء عبقريات ، وحتى جميع النساء العبقريات هن فى الحقيقة رجال » ، يرتبط بما نقوله هنا . ففى بعض الحالات يحدث اضطراب فى إفرازات الغدد الصماء وبخاصة الغدد التناسلية، فتزيد نسبة الهورمونات الأنثوية

عن الحـد المنـاسب عند بعض الرجـال . وعندئذ تقتـرب طبـيـعـة المرأة مـن طبـيـعـة الرجل، أو تقترب طبيعة الرجل من طبيعة المرأة .

والمرأة الطبيعية التى تتوافـر لهـا الهـورمـونات الأنثوية والـهـورمـونات الذكرية بالقـدر المناسب لطبيعة المـرأة تهفـو إلى رجل تتعبده وتخضع له. وهذا الخـضـوع فى حد ذاته لا يسمح للعبقرية بالظهور. ذلك أن العبقرية تتسم فيما تتسم به بالثورة والعصيان والتلحف بالفردية ، وبالانتحاء إلى خط جديد لم يسبق إليه أحد ، ذلك أن العبـقرية ليست تقليدا متقنا لما سبق رسمـه ، بل هى خلق لجديد ، يأتى بعده آخرون ليقلدوه .

والمرأة فى طبيعتها الأصيلة تهفو إلى الحياة الرتيبة المستقرة ، ولا تميل إلى الثورة ضد نفسها . وهذا يتمشى بكل جلاء مع الاستقرار الأسرى الذى تتمسك به المرأة الطبيعية ولا ترضى عنه بديلا . أما الروح العبقرية التى تتمثل فى الأغلب فى فئة الرجال فإنها لا ترضى بالرتابة أو الخضوع لنفس الوتيرة من الحياة . فالعبقرى شخص دائم الثورة حتى ضد نفسه ، إنه يحس باستمرار بأنه مفتقر إلى جديد يخصب به حياته . فهو دائم الضجر من المألوف ، ويحتقر العيش تبعا لوتيرة واحدة. ولذا فإنك تجد أن نسبة كبيرة من العباقرة لا ينعمون بالحياة الزوجية المستقرة ، ويفشلون فى تنظيم الأمور الأسرية، وبخاصة ما كان متعلقا بميزانية الأسرة . وهذا كله متوافر للمرأة العادية السوية .

وشاهد ذلك أنك تجد المرأة حتى عندما تتشبث بالجديد فى ملبسها أو فى أدواتها أو أثاث منزلها ، أو حتى فى كلامها وأفكارها ، فإنه يكون جديدا بالنسبة لها وبالنسبة لمعارفها وأصدقائها وأسرتها فحسب ، ولكنه لا يكون جديدا بمعنى أنها تكون هى الخالقة له والمحددة لتقاطيعه وقسماته . إن الجديد بهذا المعنى الأخير مناف لطبيعة المرأة، بل إنه أيضا مناف لطبيعة الرجل العادى، ولكنه يشكل صميم كيان العبقرى الذى لا يتغذى إلا على الجديد الذى يكون قد حدده هو ووضع أساسه هو ، ولكن يجب ألا يفهم من كلامنا هذا أن العبقرى يكره أن يتعلم ما بتراث الإنسانية من ثقافة . والعكس هو الصحيح على طول الخط . ذلك أن العبقرى يلتهم كل ما فى الثقافة ، والتهامه هذا يكون بسرعة خارقة للعادة ، وما يفتأ بعد استيعابه

للقديم يكمل البناء بأن يقدم شيئا أو أشياء جديدة إلى الحضارات الإنسانية . فعمل العبقرى هو استمرار للحضارة وليس نقلة مفاجئة غير متصلة بالقديم . إنه تقدم بالحاضر إلى المستقبل ، ودفع بالموجود إلى ما هو معلق فى عالم الغيب ينتظر من يخرجه من نطاق الغيب ويضمه إلى عالم الواقع الراهن .

والمرأة السوية تتعلق قلبيا ببيتها ، وحتى إذا عملت فى مصاف الرجال فإنها تكون متلهفة للرجوع إلى بيتها تدير شئونها ، وحتى إذا رأيت كثيرا من النساء يتعمدن احتقار شغل البيت ، ويطالبن الأزواج بالإسهام فيه ، فإنهن لا يكن مستعدات فى جميع الأحوال لتسليم زمام الأمر بالبيت للرجل . إن المرأة تريد مساعدة الرجل لها بشرط أن تظل هى مديرة البيت . فالبيت هو محور اهتمام المرأة ، والإنجاب وتربية الأطفال من أهم المهام فى حياة المرأة مهما اشتغلت فى الحياة . وإذا كان اهتمام الرجل موجها إلى خارج البيت بالدرجة الأولى فإن اهتمام المرأة موجه بلا شك إلى البيت بالدرجة الأولى. وكل الجديد الذى تستورده المرأة من خارج البيت إلى داخله متمثلا فى التكنولوجيا - الثلاجة والبوتاجاز .. إلخ - فإنه بادئ ذى بدء من خلق قلة من العباقرة الرجال الذين صرفوا همهم إلى الجديد تماما ، أعنى الجديد على البيت ، بل والجديد على العالم.

والواقع أن تعلق المرأة بالبيت له مغزى سيكولوجى . فالمرأة تحيا « بالنحن » ولا تحيا « بالأنا » . وحتى عندما تستخدم المرأة لفظ «أنا» فإنها تقصد فى الواقع « أنا محور الأسرة » وهو يساوى « نحن » . إنها لا ترغب فى أن تعيش لنفسها وبنفسها ، بل تريد أن تتكافل مع النحن ، وأن تذوب فى « النحن » ويذوب « النحن » فيها ، وما دام الأنا ذائبا فى « النحن» ويذوب النحن فإن العبقرية لا تنشأ . فالواقع أن من شرط العبقرية كما سبق أن ذكرنا هو حدوث انشقاق بين الأنا وبين النحن .

والواقع أن الانشقاق بين الأنا والنحن الذى يتمثل بشكل واضح لدى العبقرى، إنما يتأتى عن زيادة العدوانية والتحدى لدى العباقرة . ولا شك أن المرأة العدوانية ترغب فى جذب قدر أكبر من الاهتمام إليها ، وكأنها بعدوانيتها تريد أن تدعم النحن ، وذلك بأن تدمج الخارجين عن نطاق النحن فى كيانه بعدوانيتها . ولكن الرجل العبقرى فى عدوانيته يرغب فى أن ينفض عن كاهله ذلك النحن الذى يقيد حريته ويعوق حركته .

ويرتبط هذا الموقف النفسى بعامل الخوف . فالمرأة تخاف على الآخرين ، وتخاف أيضا من الآخرين . فهى فى خوفها من الزوج قد يبطش بها فإنها تخاف عليه من الأذى قد يلحق به أو قد ينال من صحته . وواضح أن هذا الموقف مرتبط بالوضع الاقتصادى الذى ظلت المرأة حبيسته لعدة قرون عندما كانت مدينة للرجل بالإنفاق عليها وكفالة العيش الرغد لها ، أما اليوم فإن الوضع قد تغير من حيث الواقع الخارجى ، ولكنه ما يزال قائما من حيث الواقع الداخلى النفسى . فما تزال المرأة على الرغم من اشتغالها وتكسبها تخاف على الرجل وتخشى بأسه فى نفس الوقت . ولقد تجد فى هذا الخوف اكتمالا لأنوثتها وأدبا يجب أن تتحلى به . ولقد نجد كثيرا من السيدات المثقفات ينعين على المرأة التى تعلن تحديها للرجال متخذة من أساليب القوة والمجافاة ما يهدد الكيان الذكرى المتسم بالقوة .

وليس من الضرورى أن تبدي المرأة الخوف من الرجال جهرا وعلانية ، بل قد تبدى خوفها فى شكل محبب إليها وللرجل على السواء . ذلك الشكل هو الخجل والحياء، فالمرأة الخجولة الحيية أو المستحيية إنما تبرز مفاتنها وأنوثتها ، ولا يعيب عليها أحد ما تبديه من تخوف خفيف هو ما تعبر عنه بالخجل . فاحمرار وجنتى المرأة ليس سلوكا مستهجنًا ، ولكن احمرار وجه الرجل خجلا لا يسمح له بنيل احترام الرجال والنساء على السواء . ويجب ألا يكون لدى العبقرى أى بصيص من الخوف في الناحية التى تبدو عبقريته من خلالها . نعم إن العبقرى قد يكون شخصا خجولا وخائفا . ولكنه لا يمكن أن يكون كذلك فى الناحية التى تظهر فيها عبقريته .

وترتبط عبقرية الرجل فى كثير من الأحيان بالفشل فى الحب . وهنا نكتشف فارقا أساسيا بين موقفين : موقف الرجل الذى فشل فى الحب . وموقف المرأة التى فشلت فيه . إن المرأة التى تفشل فى الحب تظل تنعى حظها ، وتصب همها على بيتها أو على شخصها . أما الرجل الذى يفشل فى الحب ، فإنه ينصرف إلى موضوعات خارجية يعوض عن طريقها ومن خلالها عن فشله . نعم إن الرجل الفاشل فى الحب قد ينتحر أو قد يقدم على قتل حبيبته التى خانت حبه ، ولكن

الموقف المتسامى للعبقرى ينحو إلى التعويض عن الحب بالتفوق على جميع الناس فى الموضوع الذى اختاره ليعوض نفسه، بصب همه فيه عن حبه الضائع. وكأن لسان حال العبقرى يقول « لقد خنتنى يا حبيبتى وأعرضت عنى، فهأنذا أؤكد لك وللعالم بأننى كنت حقيقا بحبك الذى آثرت غيرى به دونى » .

وأخيرا لعل المرأة لا تكون عبقرية لأنها تهفو إلى خلق العباقرة ، فكل امرأة ترجو أن يصير طفلها شيئا مذكورا وخطيرا . والمرأة التى جبلت على مستوى خارق من الذكاء تبدأ أولا فى صرف ذكائها - إذا كانت امرأة سوية - إلى تفتيق ما لدى زوجها من مواهب ، ثم إنها لا تكاد تنجب حتى تصرف كل همها إلى أبنائها علها تخرج من بينهم عبقريا يكون مفخرة لها ، وعلما من أعلام العلم أو الأدب أو الفن ، أو داهية من دهاة السياسة أو قائدا مغوارا من قادة الجيش . وهنا نذكر أم نابليون التى كانت تشجعه وتحضه على الشجاعة وترعى مواهبه فوجد من تشجيعها ورعايتها غذاء ينمى استعداداته العبقرية ويبرزها للعيان ، بل ويبرزها للدنيا بأسرها.

دور الإلهام والحدس عند العبقرى :

يذهب بعض الناس إلى تفسير العبقرية بأنها ارتفاع شديد فى الذكاء وأنه لا دخل لأية عناصر أو مقومات عقلية أو نفسية أخرى غير القدرة العقلية الخالصة التى تدخل فى جميع العمليات والمناشط التى يضطلع بها الإنسان . ودعاة الذكاء فى تفسير العبقرية ينكرون بالأولى وجود مصدر غيبى خارجى يلهم العبقرى بما لا يتمكن الناس العاديون من الحصول عليه أو التوصل إليه أو الاضطلاع به أو إدراك كنهه أو معرفة فوائده أو مقوماته أو الوقوف على طرائق استخدامه . ولا شك أن من أهم المناصرين للذكاء فى تفسير العبقرية هو ترمان كما سبق أن ذكرنا .

أما التفسير الثانى للعبقرية فهو ينحو إلى اعتبار العباقرة شخصيات ملهمة ، وأن الإلهام الذى يصل إلى العبقرى إنما يأتيه من خارج نفسه ، أى من عالم آخر غير العالم الحسى الذى يحيط به ، بل إن الخبرات التى يصل إليها وينسبها إلى نفسه هى فى الحقيقة مضافة إلى ذاته إضافة ، وليست من ذات قوامه ولا من

صميم كيانه ، إنها خبرات نزلت إليه من عل، وإن كان قد هيأ نفسه لاستقبالها . والإلهام لدى العبقرى هو نفسه الإلهام الذى ينزل إلى الأنبياء ، ولكنه يتخذ زاوية أخرى غير الزاوية الوعظية الإرشادية نحو الطريق القويم . ولعل المناصرين للقول بالإلهام مصدرا للعبقرية يؤكدون لنا أن الخير كله والجمال كله يوحى به إلى نفر من الناس هم الأنبياء ، بينما يوحى بالجمال إلى الفنانين ، ويوحى بالخير للمصلحين الاجتماعيين . ومن هذه الزاوية يفسر كل ما فى حياة الإنسان من خير وجمال بأنه مستمد من عالم آخر غير العالم الحسى المحدود الذى نعيش فى كنفه.

ونستطيع أن نزعم بغير مبالغة بأن القول بالإلهام أو الوحى هو أقدم التفسيرات التى انتحت إليها الإنسانية منذ أقدم الحضارات الإنسانية . ومن المقطوع به أن الفلسفة اليونانية ترتبط فى جذورها بالقول بالإلهام . فالأشعار التى سبقت الفلسفة اليونانية القديمة كانت تعزى إلى الإله ديونيسس dionysus ، وقد مهدت الطريق للنظر فى علاقة الإنسان بالعالم . وبدءا من تلك الأشعار ظل اليونان ينظرون إلى الإنسان باعتباره مكونا من قسمين أساسيين متعارضين : الروح والجسد .

ولقد تقدم فيثاغورس من الشعر إلى الرياضيات ، فجعل الرياضيات مرتبطة بالروح كما ربط بينها وبين الموسيقى التى تعتبر خلفية أو واسطة ينزل الإلهام أو الوحى من خلالها، وعلى الرغم من أن علماء الرياضة ينزعون إلى تجريد الرياضيات كلها - بما فى ذلك نظريات فيثاغورس نفسه - من العنصر الإلهامى ، فإن تلاميذ فيثاغورس ومريديه لم يفعلوا ذلك ، بل جعلوا من التدريبات الروحية ومن الموسيقى وسيلة لإعداد النفس لتقبل الوحى والإلهام من الآلهة .

ولم ينفض أفلاطون يده من الإلهام والوحى ، بل قال بهما واستمسك بالقول بهما وجعل شرط الحكمة التى من خلالها ينزل الإلهام على الإنسان أن يكون خلوا من التعلقات بالجزئيات واللذات ومنصرفا إلى العالم المعقول ومتأملا لعالم المثل

ومستلهما له، ولكن النظر إلى الفلسفة باعتبار أنها نازلة إلى الإنسان بالوحى والإلهام لم يستمر على طول الخط حتى عند أرسطو . ونستطيع القول أن أرسطو كان أكثر ارتباطا بالواقع كمصدر لتقرير الحقيقة مما كان عليه حال أستاذه أفلاطون. بيد أن أرسطو - فيما نعلم - لم يناوئ الدين لعهده ، وعلى أية حال فإن المسيحية أفادت من كل من أفلاطون وأرسطو فى البرهنة على العقائد الدينية .

وفى القرن التاسع الميلادى ظهرت شخصية غريبة هى جون سكوت (٨٠٠ - ٨٧٧) لقد أخذ يناصر القول بحرية إرادة الإنسان ، مناهضا القول بالجبرية . وأكثر من هذا فإنه رجح كفة العقل على كفة الإلهام والوحى ، وقال بأن العقل والإلهام (أو الوحى) كلاهما مصدر للحقيقة ، ولذا فإنهما لا يمكن أن يتصارعا ، ولكن إذا حدث صراع ظاهرى بينهما ، فيجب ترجيح كفة العقل ، وأكثر من هذا فإنه يقول إن الدين الحقيقى هو أيضا فلسفة حقيقية ، والعكس أيضا صحيح ، فالفلسفة الحقيقية هى دين حقيقى . ولقد لقيت آراء سكوت انتقادا لاذعا من جانب الجهات الدينية المسيحية فى ذلك الوقت .

وفى الفلسفة الإسلامية نجد أن هناك شخصيتين بارزتين فى عالم الفكر الإسلامى أحدهما يناصر الوحى والإلهام وحدهما دون الفكر الفلسفى هو الإمام الغزالى ، وذلك فى كتابه « تهافت الفلاسفة »[1] ، والثانى ابن رشد الذى يناصر الفكر الفلسفى ولا يجد بينه وبين الوحى تناقضا بل تكاملا. وقد رد على كتاب الغزالى بكتاب أطلق عليه اسم « تهافت التهافت ».

أما فرانسيس بيكون (١٥٦١ - ١٦٢٦) فإنه اعتقد أن الفكر الفلسفى ينبغى أن يظل فى انفصال عن الوحى واللاهوت . ولقد قال بأن هناك حقيقتين . حقيقة واقعية فلسفية لا صلة لها بالوحى والإلهام ، وحقيقة أخرى فلسفية علمية تنبع من الإنسان فى استقلال عن مصادر الوحى الخارجى . واعتقد برتراند رسل أن بيكون بهذا المذهب يضرب فى أثر ابن رشد بالفلسفة الإسلامية .

أما جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٥) فإنه يخضع الإلهام للعقل . فعلى الرغم من

---

(١) على الرغم من أنه استعان فى دحض الفلسفة بالفلسفة ذاتها .

أن لوك كان مؤمنا بالوحى وكان متمتعا بجانب كبير من التقوى والإحساس الدينى الصادق فإنه يشترط إخضاع ما يوحى إلى الشخص به للفكر والتمحيص ، ويبرهن على هذا بأن الأشخاص المصابين بالملانخوليا (الاكتئاب) أو المخدوعين قد يظنون أو قد يقتنعون بأن بينهم وبين الله صلة مباشرة ، وأن ما يفكرون فيه هو إلهام من الله . ومن ثم فإن أولئك الذين يرتكنون إلى الإيمان بالإلهام وحده دون العقل الناقد والمحص كثيرا ما ينخدعون ويخدعون الآخرين معهم . ولذا فإن الإلهام ينبغى أن يمحص بالعقل والفلسفة [1] .

وهناك فى الواقع حالات لدى بعض العباقرة تؤكد استنادهم إلى الإلهام والوحى الخارجى . من ذلك حالة وليم بليك Willam Blake، لقد كان الإلهام الفنى يواتيه خلال ساعات الليل ، أى فيما بين التاسعة أو العاشرة مساء حتى الواحدة أو الثانية صباحا وربما الثالثة أو الرابعة صباحا . بينما كان فرلى varley جالسا إلى جانبه وهو أحيانا هاجع وأحيانا مستيقظ . وكان فرلى يقول مثلا « ارسم لى النبى موسى أو داود النبى » أو ربما كان يطالبه برسم مشابه ليسوع المسيح .. أو لإحدى الشخصيات التاريخية الأخرى العظيمة . . وكان من عادة بليك أن يجيب قائلا « ها هو » ثم يأخذ فى الرسم بينما تكون الورقة والقلم الرصاص بين يديه ، وكان يتم ذلك بأكثر خفة ورباطة جأش ، كأن هناك فى الواقع شخصا واقفا أمامه .. وكان الموقف يتطلب من بليك فى بعض الأحيان أن ينتظر حتى يظهر الشبح الذى لم يكن يأتى على الإطلاق فى بعض الأحيان ، وفى أحيان أخرى كان بليك وهو منهمك فى رسم الوجه يكف فجأة عن الاستمرار ، ثم يقول بلهجته الهادئة المعتادة ، وبنفس رباطة جأشه الحقيقية « إن السماء تمطر ولا أستطيع الاستمرار . لقد ذهب .. يجب على أن أنتظر حتى يعود مرة أخرى » أو يقول « قد تحرك ، إن فمه قد ذهب » . أو يقول « إنه يعبس ، إنه غير راض عن رسمى له » .

وهناك تأويل أخرى تزعم أن الرؤى كانت مصحوبة بهياج عقلى. فأحد أصدقائه وهو جيمس بورتر James Porter الذى تصادف يوما أن عرج على بليك، فوجده يتأمل بعض الرسوم التخطيطية للسير وليم والاس والملك إدوارد الأول وقد

---

(١) RUSSELL , B, History of Western Philosophy; George Allen and Unwin, Ltd, London, 3rd. imp.1948, P. 41, 52, 423, 447, 567, 631

قال بليك الذى كان فى حالة من النشوة بحيث كان مقطع الأنفاس تقريبا « لقد كنت جالسا فى تأمل البطل الأسكتلندى ، كما دأبت دائما بإزاء الأعمال البطولية .. فوقف أمامى عندئذ شبح فى هيئة نبيل ، وقد أدركت لتوى أنه السير وليم والاس .. فرجوته أن يظل لبضع دقائق وأنا أعلم أنه كان طيفا روحيا سرعان ما يختفى بالسرعة التى أتى بها، فابتسم البطل وقمت بوضع رسم تخطيطى له . وفى الحال اختفى الشبح ، ثم حل شبح إدوارد الأول الذى استمر أيضا مدة كافية لكى أرسمه» ولكن أكثر الشواهد دقة على الطبيعة الإسقاطية والإلهامية والذهنية لدى بليك قد وردت فى الملاحظة التالية لفرلى - وهى حول الرسم الشهير لشبح برغوث. ولقد تم هذا الرسم فى حضرة فرلى الذى يقول « لقد أحسست بالاقتناع من طريقته فى العمل بأن هناك صورة ذهنية واقعية أمامه ، ذلك لأنه انصرف بذهنه تماما ، وبدأ الرسم على قطعة جديدة من الورق وضع صورة منفصلة لفم البرغوث ، الذى قدمته الروح ، وقد حيل بينه وبين الرسم التخطيطى الأول حتى انتهى من رسم البرغوث ».

والواقع أن موهبة بليك لم تكن فطرية تماما ولم تكن مختصة به شخصيا ، إذ إنه علم زوجته أن ترى الأشباح . وفى الحالتين كانت الصورة الذهنية دقيقة . فلقد قام بليك باستدعاء الملك شارل مرتين حتى يكمل رسم خوذة معقدة كان يرتديها . وفى كلتا الحالتين اعتمدت الصورة الذهنية على التركيز . والفارق الرئيسى ليس كبيرا من حيث طبيعة الصورة الذهنية في حد ذاتها ، بل من حيث أصلها . ولقد كانت صور بليك تأتى من أعماق اللاشعور . ويبدو أن الأشباح كانت تستحضر على يد بليك بالصلاة . فجورج ريتشموند يحكى أنه ذات مرة عرج على فونتين كورت ، حيث وجد بليك منقبض النفس وهو يشرب الشاى . قال بليك « لقد فارقتنى قوة الابتكار منذ خمسة عشر يوما » وقال بليك وقد استدار إلى زوجته « هذا ما حدث لنا بالضبط . أليس كذلك ؟ منذ بضعة أسابيع تركتنا الأشباح . ما الذى نعمله إذن ياكيت ؟» أجابت كيت « فلنرجع ونصلِّ يا مستر بليك [1] ».

---

(١) ريد - هربرت : تربية الذوق الفنى - ترجمة يوسف ميخائيل أسعد - ص ٨١- ٨٣ .

هذا بالنسبة للإلهام الذي يتسم بوجود موضوع روحى خارجى يرسل صورا ذهنية إلى الملهم أو الموحى إليه . أما الحدس فإنه يختلف من حيث عدم وجود موضوع خارجى يضفى على الشخص من فيضه الروحى . ولعلنا فى هذا المقام نستعين بتعريف جيمس دريفر James Driver للحدس بأنه « إدراك أو حكم مباشر ، يصطبغ عادة بصبغة وجدانية انفعالية بغير أن تكون هناك خطوات عقلية واعية معدة من جانب الشخص لهذا الغرض » [1] .

أما كمبول يونج Kimball Young فإنه يميز بين عمليتين عقليتين: الأولى عملية القياس العقلى Inference وفيها يكون الشخص على وعى بالخطوات المنطقية فى المنطق الاستدلالى deductive والمنطق الاستقرائى inductive التى يستخدمها بصدد المعلومات المتوافرة بين يديه . وفى مقابل هذه العملية العقلية توجد العملية الثانية وهى الحدس intuition وهى عملية يصل بمقتضاها الشخص إلى نتائج تتطلب تطابقا عاطفيا وبصيرة نفسية بغير ما حاجة إلى خطوات منطقية يسير خلالها . والواقع أن الرجل المنطقى ينكر أهمية الحدس كطريقة للتوصل إلى الحقائق، ويعتبره ضربا من التخمين الذى لا يستند إلى أساس مكين يعتمد عليه . بيد أن الزعم بأن هناك تناقضا بين عملية القياس العقلى وبين الحدس هو زعم مفتعل ولا أساس له من الصحة. ذلك أنه حتى بالنسبة لأشد العمليات العقلية توجد بنفسية العالم المنطقى عوامل لاشعورية وبصيرة حدسية طفرية لا تسير وفق خطوات القياس العقلى الاستدلالى أو الاستقرائى .

ويعرف كمبول يونج الحدس بأنه طريقة لتشكيل المعتقدات والمزاعم والفروض، أو هو طريقة للتوصل إلى نتائج أو تعميمات ، لا تعرف خلالها جميع الخطوات التى تتبعها العمليات العقلية . فالحدس يتضمن باختصار كمية ذات شأن من القياس اللاشعورى [2] .

أما فرويد ، فإنه لا يثق كثيرا فى الحدس ، فهو يعتقد أن الحدس ما هو فى

---

(١) JAMES DREVER, A Dictionary of Psychology, Penguin Books, 1958, P. 142 .

(٢) YOUNG, KIMBALL, Personality and Problems of Adjustment, Appleton - Century Croft, New York, 2nd ed., 1952, P. 332- 325 .

الواقع سوى نتيجة لتجرد معين للفكر ، وليس هناك سوى أفراد قلائل يصبون اهتمامهم على الأشياء النهائية . أعنى المشكلات الكبرى للعالم والحياة . ويعتقد فرويد أن كل شخص واقع بلا محالة تحت تأثير بعض التفضيلات المغروسة بعمق فى نفسيته . بحيث يصدر عنها بغير أن يدرك مقوماتها ، فى أثناء تأملاته [١] .

أما يونج فإنه يعتقد أن هناك أربعة أنماط من الوظائف النفسية تعتمل لدى كل شخص، هى التفكير thinking والإحساس الوجدانى feeling والإحساس الجسمى sensation والحدس intuition. وتبعا لزيادة نسبة أى من هذه العمليات لدى الشخص فإنه يقع تحت النمط الحسى الوجدانى ، أو النمط الحسى ، والنمط الجسمى ، والنمط الحدسى . ويجعل يونج الفيلسوف كانط فى نطاق التفكير الانطوائى ، بينما يجعل داروين من نفس النمط التفكيرى ولكنه تفكير انبساطى. والشخص الواقع تحت النمط الحسى الوجدانى يكون مسوقا بانفعالاته أكثر من اهتدائه بالعقل ، ويكون حسه الوجدانى عنيفا وحادا إذا كان انطوائيا ، بينما يكون محكوما بمنطق العواطف إذا كان انبساطيا . ويقع فى نطاق النمط الحسى والجسمى والانطوائى الفنان الذى يصب اهتمامه إلى العالم الخارجى لما يتركه من انطباعات فى نفسيته . أما الشخص الذى يجد متعته واهتماماته فى الأشياء الخارجية لذاتها فإنه يقع فى نطاق النمط الحدسى الانطوائى ، بينما يقع لويد جورج Loyd George السياسى الذى كان يتمتع بقدرته العجيبة على التكيف للمستمعين وللموقف الذى يجابهه بأنه من النمط الحدسى الانبساطى [٢] .

أما برتراند رسل فإنه يعتقد أن ارتباط الحضارة اليونانية بالرياضيات من جهة وبالدين والوحى من جهة أخرى قد أدى إلى الاعتقاد بأن الفكر له الأولوية والرجحان على الحواس ، وبأن الحدس له الأولوية على ملاحظة الواقع الحسى .

ويذهب القديس توما الأكوينى إلى أن هناك ثلاثة طرق يستطيع الإنسان أن يصل بطريقها إلى معرفة الله هى : العقل، والوحى (أو الإلهام)، والحدس . وهو

---

(١) JOHN RICKMAN EDT. A. GENERAL Sellection for the Works of SIGMUND FREUD, Letchworth, Hert for dshire 1937, P. 191.

(٢) FLUGEL, J.C., A Hundred Years of Psychlalogy, Duckworth, 1948, P. 300.

يقصد حدس الأشياء التى سبق أن أعلنت بطرق الوحى . ولكنه لا يكاد يقول شيئا عن الحدس ويجعله معتمدا على الوحى تمام الاعتماد .

أما جون لوك فإنه يعتقد أننا لا نستطيع التوصل إلى أية معرفة من أى نوع إلا عن طريق من ثلاثة طرق: (١) الحدس (٢) العقل الذي نفحص به الاتفاق بين فكرتين أو الاختلاف بينهما (٣) الإحساس الذى ندرك به وجود أشياء معينة .

أما كانط فإنه يعتقد أن المعرفة هى إدراك الاتفاق بين فكرتين أو الاختلاف بينهما، ويعتقد أن هناك ثلاثة أنواع من المعرفة بالوجود الحقيقى هى : المعرفة الحدسية وهى تتعلق بمعرفتنا بأنفسنا ، ثم المعرفة البرهانية الحاسمة التى تتعلق بوجود الله ، ثم هناك أخيرا المعرفة الحسية التى تتعلق بالأشياء المقدمة إلى الحواس .

ويجعل كانط مفهومى المكان والزمان داخلين فى نطاق المعرفة الحدسية.

أما برجسون فإنه يعتقد أن الغريزة فى أحسن صورها تسمى بالحدس . وهو يعنى بالحدس الغريزة التى صارت مجردة عن الهوى ، ويكون المرء شاعرا بها وقادرا على تأمل موضوعاتها . والتوسع بها إلى غير نهاية . وعلى الرغم من أن تتبع أفعال الذكاء ليس من الميسور دائما ، فإن برجسون يزعم أن هذا ممكن إذا نحن بذلنا قصارى جهدنا فى سبيل ذلك ، ويرغب برجسون فى جعل الفكر يتجه إلى دخيلة الذات فيعمل على إيقاظ قدرات الحدس الذى لا يزال ناعسا بداخله . ويرى برجسون أن العلاقة فيما بين الغريزة والفكر أشبه ما تكون بالعلاقة بين الرؤية واللمس . فالفكر فى نظر برجسون سوف لا يقدم معرفة الأشياء البعيدة ، بينما وظيفة العلم في رأيه هي تفسير جميع المدركات فى ضوء اللمس touch.

والغريزة وحدها فى رأى برجسون هي المعرفة من بعيد ، فلها نفس العلاقة بالذكاء كما للمشاهدة علاقة باللمس .

والخاصية الأساسية للحدس هى أنه لا يقسم العالم إلى أشياء منفصلة بعضها عن بعض كما يفعل العقل ، ونستطيع أن نصف الحدس عند برجسون – جريا وراء برتراندرسل – بأنه تركيبى Synthetic وليس تحليليا analytic. فالحدس

يفهم الكثرة ، لا باعتبارها أشياء مجزأة مبعثرة ، بل باعتبارها أجساما خارجية تحتل مكانا . فليس هناك فى الواقع - فى رأى برجسون - أشياء ، بل هناك فقط عمليات. وهذه النظرة إلى العالم التى تبدو صعبة وغير طبيعية فى نظر العقل تصير سهلة وطبيعية فى نظر الحدس ، وتقدم الذاكرة مثالا صادقا لما يقصده برجسون . ذلك أن الماضى يصير بفضل الذاكرة حيا باستمرار فى الحاضر ويتفاعل معه . وبغير عقل فإن العالم إذن يموت أولا بأول ويولد فى كل آن من جديد. ويكون الماضى بغير وجود على الإطلاق . ولكن بفضل الذاكرة بما تتضمنه من رغبة، فإن الماضى والمستقبل يتضمنان وجودا حقيقيا ، ومن ثم يخلق امتداد حقيقى ووقت حقيقى . والحدس وحده هو الذى يستطيع أن يفهم هذا المزج الدقيق فيما بين الماضي والمستقبل . ولقد يظل الماضى والمستقبل فى نظر العقل شيئين منفصلين الواحد منهما عن الآخر . ولكن بهدى الحدس ، فإننا ندرك أن العالم بأسره ما هو سوى عمليات مستمرة تمتد من الماضى إلى الحاضر إلى المستقبل . وما تنتهى فلسفة برجسون فى الواقع إليه هو إعلان إفلاس العقل وانتصار الحدس [١] .

وإذا كنا فيما سبق قد عرضنا للإلهام والحدس كنشاطين نفسيين يستعين بهما العقل فى وقت أو آخر فى عمله العبقرى ، فلابد أن نعرض للنوع الثالث من النشاط النفسى لكى نكمل الصورة ، ولكى نكون قد عرضنا للأنواع الثلاثة الأساسية من النشاط النفسى الذى يجب أن يتوافر لدى العبقرى حتى يكتمل عمله . ذلك أننا لا نستطيع أن نزعم أن العبقرى يعتمد فى عبقريته على الإلهام وحده ، أو على الحدس وحده ، أو على الفكر القياسى وحده . ونقصد بالفكر القياسى استخدام القياس الاستدلالى الذى ينزل من الكليات إلى الجزئيات ، ومن أمثلة ذلك وضعك لنظرية معينة تقتنع بها كأن تقول « إن الأجسام الصلبة تتمدد بالحرارة » ، ثم تأتى بجسم صلب يقع عليه بصرك . فتقول لنفسك « بما أن الأجسام الصلبة تتمدد بالحرارة ، وبما أن هذا الذى أمسك به هو جسم صلب ، إذن فهو يتمدد بالحرارة إذا وضعته على النار » .

---

(١) RUSSELL, B., History of Western Philosophy, George Allen and Unwin, London, 3rd imp. 1948, P. 53, 482, 636, 728, 734, 821, 825-6-831 .

أما النوع الثانى من القياس فهو القياس الاستقرائى . فأنت هنا لا تضع أمامك نظرية من النظريات ، ولكنك تبدأ بتناول عدة قضبان من معادن مختلفة صلبة ، وتقوم بقياسها جميعها ثم تعرضها للنار ، ثم تعيد قياسها ، فتكتشف أنها تتمدد جميعا بالحرارة . فتقول: بما أنى جربت ولاحظت أنها على اختلافها تتمدد بالحرارة ، إذن أستطيع أن أستخرج نظرية مؤداها أن « الأجسام الصلبة تتمدد بالحرارة ». فكأن القياس الاستدلالى يبدأ من العام إلى الخاص . بينما يبدأ القياس الاستقرائى من الخاص إلى العام ، ومن الجزئيات إلى الكليات أو النظريات.

وليس من أحد يستطيع أن يزعم أن العبقرى يصل إلى الخطوة الأولى فى معارج العبقرية إلا إذا كان قد استطاع بالفعل أن يتمكن من هاتين العمليتين الذهنيتين . ولعلنا نزعم أكثر من هذا أن تمكن العبقرى الشديد من هاتين العمليتين الذهنيتين يجعلهما بمثابة عمليتين عاديتين عقليتين لاشعوريتين يتمرس بهما بغير وعى من جانبه . وكما نتعلم المشى أولا بإرادتنا ثم نمارسه بغير إدراك من جانبنا بعد ذلك ، بل وبطريقة لاشعورية ، كذلك يحدث بالنسبة للعمليات العقلية عند العبقرى . فالعبقرى يمارس القياس بغير إدراك واع من جانبه .

وأكثر من هذا فإننا نستطيع القول - كما سبق أن ذكرنا - أن العقل يعمل باستمرار سواء كنا مدركين لما نضطلع به من عمليات ، أم كنا فى غفلة عن ذلك. ففى أثناء النوم يعمل العقل ويستمر في التفكير فيما قابلناه فى أثناء يقظتنا من مشكلات وأشياء . ولقد يستطيع العقل، وقد تخلص من العوامل المشتتة لتركيزه أن يصل إلى حلول لما قابلناه من مشكلات ، ويسمى هذا بالحدس لأنه يرتكز على عوامل شعورية . ولابد أن نرد كل ما بداخلنا إلى عناصر خارجية حسية سواء تأتت لنا بطريق مباشر أم بطريق غير مباشر . فبغير الحواس الخمس وما تموننا به ، فإننا نكون كصفحة بيضاء لم يكتب عليها شىء على الإطلاق . ولكن بفضل ما تقدمه إلينا تلك الحواس فإننا نستطيع أن نقيم علاقات فيما بيننا ، بل ويمكننا - على نحو إرادى أو على نحو لاشعورى - أن نعمل مركبات ذهنية على جانب كبير من الدقة، حتى لقد يحسب البعض أن تلك المركبات لا تتصل من قريب أو من بعيد بما وصل إلى حواسنا لشدة تجرده عن عالم المحسوسات .

ولكن إذا صح هذا بإزاء الحدس ، فإنه لا يصح بالنسبة للإلهام . فنحن إذا كنا ملهمين ، لأننا نجد أن وجودا خارجيا لا قبل للحواس الخمس بتحديده قد أنزل علينا مفاهيم أو صورا أو مكتشفات لا يكون لها أساس لدينا على الإطلاق. ولكن مع هذا يجب أن تكون لدينا أهلية لتقبل الإلهام أو الوحى حتى نستطيع تقبله والإفادة منه . ولقد نزعم أن كثيرا من الناس ينزل إليهم الإلهام فى فن أو فى علم أو فى غير ذلك ولكنهم لا يستطيعون استقباله والإفادة منه، وذلك بسبب ضيق أفقهم وعدم استعداداتهم للإفادة منه ، خذ مثالا لذلك ، لو أن بليك لم يكن متمرسا بمبادئ الرسم ، وظهرت له تلك الأشباح الإلهامية ، لما استطاع رسمها ، ونحن نسمع على ألسنة كثير من الناس من حولنا أنهم شاهدوا أشباحا وشاهدوا رؤى ، ولكنهم لم يستطيعوا التعبير عنها بالرسم أو بالكتابة، بل وقف نشاطهم الإلهامى عند مجرد المشاهدة وقص ما شاهدوه على أصدقائهم وأقاربهم .

ولكن العبقرى يتميز بالقدرة على مشاهدة الرؤيا أو أستقبال الإلهام والامتداد به إلى آفاق من العمل بحيث يفيد به أكبر عدد من الناس وبحيث يحيله من مجرد مشاهدة ذهنية إلى واقع عملى يمارس ويخضع للتجارب أو التطبيق فى مناحى الحياة المختلفة .

وخلاصة القول أنه لا غنى للعبقرى عن الإلهام والحدس والقياس المنطقى حتى يتحقق له - بتكامل هذه المناشط الثلاثة بعضها مع بعض - ما يمكن أن يشار إليه بأنه عبقرية . ولعل ما يختلف فيه العبقرى عن باقى الناس بتقبله للإلهام وتمرسه بالحدس هو ما حدا بالبعض إلى اتهامه بالجنون ، وذلك بسبب خروجه عن المألوف واستحواذه على عمليات عقلية لا تتسنى للأشخاص العاديين .



الفصل الرابع

من جنون العباقرة

سبق أن ذكرنا أن بعض الفلاسفة اعتقدوا أن العباقرة مصابون بنوع من المرض العقلى ، والمرض النفسى، وقد ذهبوا إلى ذلك فى ضوء ما يشاهدونه لدى كثير من العباقرة من أمراض نفسية وعقلية متنوعة . فهناك من بين العباقرة من سيطرت عليهم الأفكار الثابتة Fixed ideas وبعضهم شملت حياتهم بعض الانفعالات بغير ما ضابط يلجمها أو قوة إرادة تحد منها ، أو أن بعضهم كان مصابا بالنسيان الجزئى لبعض أمور الحياة المألوفة مما يشاهد لدى المرضى العقليين أو المرضى بأمراض نفسية متنوعة ، ولعلنا فيما يلى نستعرض بعضا من قصص العباقرة التى تجلى عن بعض الجوانب الشاذة، وعن بعض الانحرافات عن الحياة العقلية والنفسية السوية.

فرنسيس بيكون Francis Bacon (١٥٦١ - ١٦٢٦) :

كان فيلسوفا وسياسيا وأديبا من مواليد لندن . صادقه الأمير أوف أيسكس ولكنه ما لبث أن خان هذه الصداقة لقاء مبلغ من المال ، وصار أحد المدعين العامين الذين عينتهم الملكة إليزابيث لمحاكمة أيسيكس بتهمة الخيانة العظمى . وقد كانت مرافعات بيكون ذات أثر كبير فى الحكم بإعدام أيسيكس . ولم تمض ثلاث سنوات حتى اتهم بيكون بالرشوة ، ولكن عفى عنه دون أن يسمح له بالعودة إلى البرلمان أو القضاء . فانصرف عنهما إلى الكتابة والفلسفة حيث نال شهرة جديدة .

ولقد كانت شخصية بيكون متميزة بالتناقض العجيب ، ذلك أنه كان قادرًا على وضع مؤلف قيم ككتابه « تقدم العلم » ثم هو يرأس غرفة التعذيب الخاصة بالبلاط الملكى .

ومما يؤثر عنه أنه كان في أستطاعته أن يردد من الذاكرة ما ورد فى كل كتاب من كتبه كلمة كلمة [1]

رينيه ديكارت René Descartes (١٥٩٦ - ١٦٥٠) :

فيلسوف ورياضى فرنسى اشتهر بكتابه « مقال فى المنهج » الذى كان له الأثر البالغ فى الفكر الغربى . وفيه مبدؤه المعروف « أنا أفكر إذن أنا موجود » وقد وصل إليه بالحدس والاستقراء . له عدة اكتشافات هندسية وفيزيائية .

شخصية ديكارت من الشخصيات المعقدة غاية التعقيد ، فمن الخطأ أن يلتمس لها مفتاح واحد . فهو من « أصحاب التأمل والنظر » كما يقول مالبرانش ، وفارس فرنسى من أهل الفروسية الفكرية كما يقول شارل بيجى ، مولع بالمغامرات الذهنية الخالصة ، وهو أيضا رجل عمل ، محب للحياة ، ذو عناية بصحة بدنه ورفاهيته ، مشغول بنجاح مذهبه خدمة للإنسانية كلها وهو فوق هذا كله « سيد » مهذب رقيق أو « جنتلمان » خبير بأهل زمانه ، يحلو له الحديث مع النساء ولا يحجم عن مبارزة الرجال من أجل سيدة يهواها، ولا يتحرج أن يتصل ببعض السيدات اتصالا غير شرعى ، وأن يولدهن إيلادًا غير شرعى أيضًا . ثم هو من أهل الأرستقراطية الفكرية ، يزدرى المعارف والمعلومات المستخلصة من بطون الكتب ، ويخصص بضع ساعات فى اليوم للبحوث العلمية ، وبضع ساعات فى السنة للبحوث الميتافيزيقية أو بحوث ما بعد الطبيعة .. وكان فوق هذا كله مسيحيا غير مقصر فى أداء فروضه الدينية ، ولا ننسى أنه كان من الحجاج إلى نوتردام ودولوريت ، وأنه تلقى الوحى الأول لفلسفته فى رؤيا مشهورة اعتقد أنها من عند الله ، وأنه أحرص الناس على الفرار من اللهو ومشاغل الدنيا ، والتماس الهدوء ليتسنى له التفلسف فى محاريبه الهولندية [2] .

---

(١) مع الخالدين - تأليف سمير شيخانى - دار المعارف بلبنان - ١٩٥٩ ص ٢٥٦ .

(٢) ديكارت - الدكتور عثمان امين - مكتبة الحلبى - الطبعة الثانية - ١٩٤٦ - ص ٥٠ .

فولتير Voltaire (١٧٦٤ - ١٧٧٨) :

كان فولتير رجلا عمليا يحب المال إلى درجة العبادة، وكان لا يبدأ الكتابة إلا عندما يضع أمامه مجموعة من أقلام الرصاص لا يقل عددها عن اثنى عشر قلما . وبعد أن ينتهى من الكتابة يكسر هذه الأقلام ثم يلفها بالورقة التى كان يكتب عليها ويضعها تحت وسادته عندما ينام [١] .

جان جاك روسو : Rousseau Jean Jacques (١٧١٢ - ١٧٧٨) :

كاتب فرنسى . ولد فى جنيف . له مؤلفات فلسفية واجتماعية . كان لمبادئه تأثير فى نشأة الثورة الفرنسية والرومانطيقية . أهم مؤلفاته « العقد الاجتماعى » و « إميل » و « الاعترافات » .

تعرف إلى السيدة دووارين فتعشقها فؤاده . وبادلته الحب وكانت ذات أثر عظيم فى توجيه أدبه . وقد خصص جزءًا من « اعترافاته » لوصف حياته السعيدة فى منزلها القروى الضخم . ومع مرور الوقت إذا بروسو يتعرف إلى خادم أمية تدعى تيريز لوفاسور، وأصبحت زوجته فيما بعد ، وأنجبت له خمسة أولاد أدخلهم أحد المياتم لتتعهدهم كسائر اللقطاء .

وكان روسو يعيش عيشة فقر وتقتير فى الكوخ الذى قدمته له السيدة دبيينه فى مونمورونسى .

وكان هذا المربى المشهور والكاتب العبقرى القدير يظن أن كل إنسان فى الوجود منافس له، حتى أنه كان يخشى البرق والرعد ويظن أن حدوثهما موجه ضده، وهو نوع من انتقام السماء . وكان لا يأكل إلا الطعام الذى يجهزه بنفسه لأنه يخشى إذا أكل طعام طاهيته أن يكون أحد منافسيه قد أغرى الطاهية ودست له السم فيه [٢].

---

(١) مع الخالدين – سمير شيخانى – دار المعارف بلبنان – ١٩٥٩ – ص ٥٧ – ٥٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٦٠ .

ويكفى أن تقرأ أية صفحة من كتاب الاعترافات [١] لتدرك لتوك أن روسو هو إنسان أسير لأحاسيسه الوجدانية ، وكان سوء صحته المزمن مؤثرا فى شكوكه المرضية ومتأثرا بها ، ولقد كان مشغولا دائما بأحاسيسه المتعلقة بالراحة والتعب ، وبما يحبه ويميل إليه، وبما يكرهه وينبو عنه من أشخاص وأماكن ومناخ ، ولقد كانت انفعالاته سواء كانت انفعالات حب أو غيرة أو غيظ ، مصطبغة دائما بمشاعره الجسمية اللحظية . وإنك لتلاحظ أن روسو كان غير مستقر العواطف أكثر مما كان حال وردسورث أو جوتة اللذين كانا مناهضين أيضًا للفكر الذى كان شائعًا خلال القرن الثامن عشر. والواقع أن عواطف وانفعالات هذين المفكرين كانت نابعة من بعض الخبرات الموضوعية المتعلقة بالعصر الذى كانا يعيشان فيه ، أما روسو فإن ما يعلنه من حب أو كراهية لشىء إنما يكون نابعا أولا وأخيرا من ذات نفسه بغير استناد إلى واقع موضوعى ذى بال . ولعل « الاعترافات » خير دليل على أنه يبدأ وينتهى دائما من مشاعره الوجدانية .

يقول روسو فى « الاعترافات » : « لم أكن أتخيل أنواعا أخرى من اللذة خلافا لتلك الملذات التى سبق لى أن عرفتها ... وفى الأخيلة التى كانت تستولى على ، فإن النوبة العارمة التى كانت تستولى على ، أو عشق الذات الذى كان يأخذنى كل مأخذ كان يسوقنى أحيانا إلى نوع معين من السلوك ، فكنت أتخيل نفسى مسوقا إليه بمساعدة أفراد الجنس المقابل ، بغير أن أحلم كثيرا بأن هناك امرأة ما فى الوجود يمكن أن تحقق هدفا غير الهدف الذى اشتهيت أن تنجزه لى [٢] .

جورج واشنطن Washington, (١٧٣٢ - ١٧٧٩) :

جنرال وسياسى أمريكى . أول رئيس جمهورية للولايات المتحدة الأمريكية (١٧٨٩ - ١٧٩٩) خدم فى الجيش الإنجليزى فى حرب السبع سنين ضد فرنسا (١٧٥٦ - ١٧٦٣) . قاد جيوش المستعمرات الأمريكية ضد إنجلترا فى حرب التحرير (١٧٧٦ - ١٧٨٣) .

وكان واشنطن يتسم بالكبرياء الصادرة عن خجله الشديد . ولقد كان غير موفق كخطيب فى المجالات العامة ، كما كان بطيئا فى الإفصاح عن مشاعره ، كما

---

(١) ROUSSEAU, The Confessions, Penguin Classics, trans by J. M. COHEN, 1954, P. 8-9

(٢) Ibid, P. 27 .

كان متعثرا فى تفكيره ، يقف عند الفكرة الواحدة فترة ، ولم يكن موهوبا بالنكتة السريعة أو بذلاقة اللسان . ولقد كان يحس بالارتباك فى وجود الغرباء ، بل إن وجودهم كان يجعله فى حيص بيص فيلتزم الصمت . ولم يكن يجد نفسه أو يبدى براعته إلا فى حضرة أصدقائه ومعارفه ، بل إنه فى وجودهم كان يبدو لطيفا بل وهوائيا بعض الشىء، وبوجه عام فقد كان واشنطن متحدثا عاديا ولم تكن حصيلته اللغوية كبيرة كما لم تكن لديه الأفكار الغزيرة .

وكان فى شبابه يهفو إلى التقرب من النساء الجميلات ، وكان فى مراهقته معذبا بالمشكلات الجنسية ، كما كان يعمد فى بعض الأحيان فى تلك الفترة إلى التعبير عن أحزانه بالشعر [1] .

تاليران : Talleyrand (١٧٥٤ - ١٨٣٨)

كان سياسيا داهية لا وازع له من ضمير ، ولكنه كان ذكيا ، حاضر البديهة مراوغًا ، متطرفًا فى آرائه ، وكانت له غراميات لا تحصى .

عمل تاليران وزيرًا لخارجية نابليون ، فوجد منفذًا لمواهبه . بيد أن تاليران لم يكن يهفو إلى إظهار البطولة ، بل كان دائمًا يتجنب الصراعات الحادة كلما أمكنه ذلك . وعندما كان يختلف مع نابليون ، فإنه كان يرضخ له بدلا من أن يقدم إليه استقالته . ولم يكن منزهًا عن أخذ الرشاوى بإزاء الأشياء التى كان ينوى بالفعل القيام بها ، وبهذه الطريقة جمع ثروة طائلة . بيد أنه لا توجد دلائل تشير إلى أن ما حصل عليه من رشاوى قد أثر على الإطلاق فى سياسته .

كان تاليران على الرغم من ذكائه الحاد حائزًا على الفضائل التى يتصف بها الشخص غير الذكى ، فلقد كان لطيفًا دمث الأخلاق ، وكانت الأشياء التى يبدى كراهيته لها قليلة ، كما كان كارهًا للحرب ، باذلا كل ما فى وسعه لتأجيل التبادل التجارى بين الشعوب المختلفة . ولقد اجتهد ولكن بغير جدوى فى أن يحد من أطماع نابليون، ولكنه فشل ، وكان يتوقع له السقوط فى النهاية بسبب الإفراط فى الطموح. ولقد بدأ تاليران إحاكة المؤامرات ضد نابليون باتفاقه مع البربون .

---

(١) SAUL K. PADOVER, The genius of America, McGraw Hill Comp., Inc., NewYork, 1958, P. 10 .

وفى عـام ١٨٠٨ عندمـا اجـتـمع نابليـون مع القـيـصــر إسكندر فى إيرفـورت لتقسيم العالم قدم تاليـران تحذيره إلى الإسكندر ضد نابليون الذى كان لا يزال فى خدمته كوزير لخارجيته . وعندمـا اكتشف هـذه الخيـانة عـزله نابليون مـن منصبـه ، ولكنـه لم يجـرده من ممتلكاته . وحـالما سـقط نابليـون عـاد إلى السلطة من جـديد ، ولكنه لم يظل مـدة طويلة ، وذلك بسـبب عـدائه الشـديد لـرجـال الدين والملكيين المتطرفين الذين عادوا إلى السلطة أيضًا .

وهناك فى الواقع أشياء غريبة كان تاليـران يتصف بها .فعلى الرغم من أنه كـان قـسـيـسًا فـإنه كـان مـتـزوجًا . وعلى الرغم من أنه كـان واحـدًا من طبـقـة الأرستقـراطية ، فإنه تزوج امرأة لا تمت لأصل رفيـع سواء قبل زواجها من تاليران أم بعـد زواجهـا منه. بيـد أن تاليـران ظل مـحـتفـظا خـلال جـميع هذه الظـروف برباطة جـأشه وهـدوئه ودماثة أخـلاقه ، مما جعل نابليون يشتط غضبا ويحتد عليه. ففى إحدى المناسبـات عندمـا أخـذ نابليـون يؤنبـه عـلى سكوته بإزاء سلوك زوجتـه ، فإن تاليـران استمـر ملتـزمـا هدوءه مما جعل نابليون يزيد احتـدادًا عليه ، بحيث أخذ يعيره بأنـه شـخص ضـعيف، وبأنه لا يستطيع وقف زوجته عند حدها . فما كان من تاليران إلا أن ابتسم بهدوء بغيـر أن تبدو عليه أى دلالة من دلالات الغضب . وبعد أن انصرف مـوكب الإمبـراطور التفت إلى الواقفين حوله وقـال باستخفاف « من المؤسف أن يكون رجل عظيم كهذا (يقصد نابليون) غير مؤدب إلى هذا الحد ».

والواقع أن هنـاك قليلا من الرجال عاشوا فى ظروف متغيرة كتلك التى عاشها تاليـران . فلقـد ولد فى ظل حكم لويس الخـامس عـشـر ، ومـات خـلال حكم الملكة فكتوريا . ولقد كانت له عـلاقات غرامية متعددة . ولعل الجانب الوجدانى يعتبر من مـفاتيح شـخصيته . وعندمـا تقدمت به السن ، صار الفكر الحـر والحـرية في الحب من غير سمات العصر . وصـار الاستمساك بالفضيلة هو السمـة الشـائعـة بفرنسـا وإنجلترا عـلى السواء . والعجيب فى شخصية تاليران قدرته على تكييف نفسه مع الظروف المتغيـرة متلبسا بما يتطلبه الحال من قواعد سلوكية معينة ، وقد عمد إلى التنسيق بين أحواله وتصرفاته وبين الكنيسة وهو على فراش الموت فى أروع طريقة

درامية يمكن لأحد أن يتصورها . وكانت آخر كلماته هى تذكرة الكاهن القائم على خدمته بأنه يجب أن يصلى عليه ويمسح بالزيت كما يفعل عادة مع الأساقفة .

ولا شك أن تاليران كان فى قلبه وخلال حياته كلها محتفظا بالنظرة التى شاعت لدى الطبقة الأرستقراطية المتحررة لعهد لويس السادس عشر . بيد أن معظم الرجال من هذا الطراز أبيدوا تحت المقصلة ، أو فى الحروب ، أو صاروا ضمن الرجعيين بسبب الخوف الذى انتشر خلال حكم الإرهاب . ولكن تاليران استطاع أن يتخلص من جميع هذه المصائب بفضل دماثته الشديدة ، وبفضل هدوئه الفلسفى الشديد ، ومن خلال إخضاعه كل تصرفاته لقوة الفكر . ولقد كان لحديثه جاذبية شديدة لدرجة أنه حتى بعد أن امتد به العمر كان بمقدوره أن يأسر قلوب النساء اللائى كن ينظرن إليه فى البداية على أنه شرير، ولكنهن ما يلبثن أن يخضعن لذكائه ولثقافته ولنظرته الواسعة ولعطفه وحدبه الحقيقيين . ومما لا ريب فيه أنه كان وغدا ، ولكنه أحدث أضرارًا بسلوكه السيئ أقل مما أحدثه كثير من الرجال الذين كانوا يتسمون بالاستقامة الصارمة [1] .

نابليون بونابارت : Napoléon Bonaparte (١٧٦٩ - ١٨٢١) :

ولد فى أجاكسيو . إمبراطور فرنسا (١٨٠٤ - ١٨١٥) . اشتهر فى حملة إيطاليا الأولى (١٧٩٤) والثانية (١٧٩٦) . قاد حملة على مصر (١٧٩٨ - ١٧٩٩) فانتصر فى معركة الأهرام . جلب من الفاتيكان إلى مصر أول مطبعة عربية (بولاق). قنصل أول (١٧٩٩) ثم قنصل مدى الحياة (١٨٠٠) . ربط الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية بالدولة (الكونكوردا ١٨٠١) نشر الدستور المدنى (١٨٠٤) سمى إمبراطورا (١٨٠٤) . اشتهر بانتصاراته فى أوسترلتز وفينا وفريدلاند وواغرام. عزل (١٨١٤) انزوى فى جزيرة ألبا . عاد إلى باريس بعد شهور قليلة . تحالفت أوربا ضده فهزم فى معركة واترلو (١٨١٥) . نفى إلى جزيرة سانت هيلانة حيث توفى .

---

(١) RUSSELL, BERTRAND, Freedom and Organization, George Allen and Unwin, London, 5 th. imp., 1952, P. 20 - 22 .

ويعتبر نابليون أعظم عبقرية عسكرية عرفها التاريخ . ومما يروى عنه أنه لم يكن يشرع فى رسم أية خطة حربية إلا وهو يمتص أقراص السوس وقد وصفه خادمه الخاص الذى كان ألزم له من ظله بأنه رجل غريب الأطوار ولكنه طيب القلب يستطيع المرء أن يخدمه .

كان خطه رديئا جدا لدرجة أن الكثيرين ظنوا أن بعض رسائله خرائط حربية [1] .

روبرت أوين : Rebrt Owen (١٧٧١ - ١٨٥٨)

من مؤسسى الاشتراكية العلمية . بيد أنه فى الواقع من حيث إنه مصلح اجتماعى فإن الكثيرين يعتبرون أنه لم ينجح على الإطلاق بالمعنى المباشر ، ولكنه نجح فى وضع الحجر الراسخ للاشتراكية وللحركة التعاونية ولحرية الفكر لدى الطبقة العاملة .

ولقد يكون الفشل الذى لاقاه أوين من الناحية العملية وفى تنظيماته العمالية هو الذى حدا به إلى ترك مكانته كقائد للعمال له احترامه والتحول إلى أسقف لطائفة صغيرة، فالواقع أنه فقد زعامته للعمال بعد عام ١٨٣٥ ، وكرس حياته للتأملات الدينية .

ويعزو برتراند رسل أسباب نجاحه وأسباب فشله على السواء إلى مصدر واحد هو ثقته الزائدة بنفسه. وكثيرا ما كان يحاول الاضطلاع بأشياء ميسورة عمليا، فكانت ثقته الزائدة بنفسه مصدرًا لقوته . ولكنه فيما بعد أخذ يحاول الاضطلاع بأشياء كثيرة خلال سنوات قليلة مع أنها تحتاج إلى سنوات كثيرة قد تصل إلى قرن تقريبا ، ومن ثم فإن فشله عمليا قد أخذ يتصارع مع ثقته بالنفس ، وانتهى به ذلك إلى الانزواء بعيدا عن العالم الواقعى . ولعل أحدا من الناس لا

---

(١) مع الخالدين - سمير شيخانى - دار المعارف بلبنان - ١٩٥٩ . ص ٣٣٩ .

يستطيع أن يكون مجدداً حقيقيا بغير أن يكون له رصيد كبير من الثقة فى نفسه حتى أكثر مما يمكن أن يتحمله الواقع العملى . ولكن هذا الموقف يكلفه الكثير ، ويصيبه بخيبة أمل طاحنة عندما يقف على البون الشاسع بين أخيلته الشخصية وبين الواقع الذى استطاع تطويعه لخدمة أغراضه وتحقيق مراميه .

ويعتقد برتراند رسل أن العباقرة والمبدعين قد يّظنون فى أنفسهم أنهم حاصلون على نفحة إلهية ، أو أنهم أشباه آلهة .. وهذا الموقف يقترب من جنون العظمة Megalomania . وهذا المرض نفسه يتجلى لدى أوين ، ولكنه فى شكل مخفف غير عنيف ، وبينما نجد أن العباقرة فى المجال الدينى قد أخذوا ينادون بكلمة الله ، فإن أوين ينادى بكلمة العقل ، واستولت عليه الدهشة لأنه وجد أن الناس هكذا عميان من الناحية العقلية ، مع تقديره الدائم لهم بأنهم حائزون على قلوب طيبة (١) .

بايرون : Byron, George Gordon (١٧٨٨ - ١٨٢٤) .

شاعر إنجليزى من أسرة ارستقراطية . وعلى الرغم من أن مكانته فى عالم الشعر ليست عالية جدا ، فإنه يحظى بتأثير كبير للغاية كثائر عمل على تحريك التيار الفكرى والاجتماعى فى الفترة التى عاشها ليس فى إنجلترا فحسب بل وفى أوربا بأسرها .

وواضح أن الواحد من الطبقة الأرستقراطية لا يمكن أن يصير ثائرا وناقما على الوضع القائم إلا إذا كان هناك شىء يستحق الدراسة فى مزاجه وفى ظروف نشأته بالأسرة وبالمجتمعات الأخرى التى انخرط فيها . والواقع أن ظروف بايرون كانت غريبة جدا . فأقدم ذكرياته ترتبط بالشجارات التى كانت تنشب بين والديه ، وقد كانت والدته من ذلك الصنف الذى يخشى من قسوته وسطوته ، وكانت تنال الاحتقار من معارفها وأقارب زوجها بسبب حطة أخلاقها ، أما مربيته فقد جمعت بين أشد أنواع القسوة وأشد الصرامة الدينية ، بينما كان شعوره الشديد بالخجل حائلا بينه وبين أن يماشى زملاءه بالمدرسة .

وعندما بلغ العاشرة بعد أن كان يعيش فى فقر ، وجد نفسه فجأة أحد اللوردات ومالكا لعزبة نيوستيد . أما عمه الذى ورث عنه اللقب والمزرعة فإنه كان

---

(١) RUSSELL, B., Freedom and Organization, George Allen and Unwin, London, 5th imp., 1952, P. 178-9.

يسمى « باللورد الشرير » . ذلك أنه قتل رجلا فى مصارعة فصار منبوذا من جيرانه منذ وقوع تلك الحادثة . والواقع أن أسرة بيرون كانت غير حافلة بالقانون ، كما أن أسرة جوردون – وهى أسرة أمه – كانت على نفس النحو لا ترعى للقانون حرمة . وطبيعى أن تشيع السعادة فى قلب بيرون بعد أن نزل عليه اللقب من حيث لم يكن يتوقع ، فتخلص من مسكنه الذى كان يقطن فيه بأبردين ، وصار على استعداد لأن يتلبس بالنهج السلوكى الذى دأبت أسرته على اتباعه .

وعلى الرغم من سلسلة نسبه ، فإنه يتجنب إقامة العلاقات مع الطبقة الأرستقراطية. وكان يحس نفسه من الناحية الاجتماعية بأنه ليس واحدًا من أبنائها. وأما أمه فكانت مكروهة للغاية من معارفها وأسرتها، وكان ينظر إليه بنظرة شك من حيث صحة نسبه إلى والده . وكان بيرون يعرف جيدا أن أمه من السفلة ، وكان يخشى أن يكون هو أيضا مصابًا بنفس هذا النقص الأخلاقى، ومن ثم فإنه أخذ فى إبداء هذا المركب العجيب من التعاظم الأجوف والثورة الطاحنة التى كانت تتسم بها شخصيته .

ولعل إحساسه الشديد بالخجل وإحساسه بالحدب والود قد جعلاه يبحث عن متعته فى العلاقات الغرامية ، ولكن بينما كان يبحث لاشعوريا عن أم وليس عن عشيقة ، فإن جميع علاقاته باءت بالفشل إلا علاقاته بأوجستا .

وكان إحساسه بالذنب معتملا بعمق فى نفسه ، فكان يقول لنفسه إنه ورث الشر عن والدته . فالشر إذن كان يجرى فى عروقه ، وأنه ولد إذن للشر والخطيئة. وإذا كان المفروض أن يكون ذا شهرة ، فلابد أن تكون شهرته كرجل خاطئ ، ولابد أن تكون عصياناته فاضحة وجسيمة . بيد أن حبه لأوجستا كان حبا صادقا؛ لأنها كانت من نفس عينته ومن دمه ، ولأنها كانت فى نفس الوقت بمثابة أخت كبرى له، وتقوم بالعناية بأموره وترعى عواطفه . وإلى جانب هذا فقد حققت له الإحساس بوخز الضمير، وجعلته يحس بأنه على رأس الخطاة جميعًا ، وكأنه الشيطان نفسه.

وإذا كان بيرون قد تجرأ أن يتقمص فى أشعاره شخصية الشيطان نفسه ، فإنه لم يتجرأ بأن يتعالى فيتقمص شخصية الإله كما يحدث فى بعض حالات جنون العظمة . إنه كان يحس بالانسحاق الشديد بحيث كان يجعل نفسه فى الحضيض

فى مكانة الشيطان . فالعظمة التى كانت تعتمل لديه هى عظمة مقلوبة ولكنها عظمة أرستقراطية على أية حال، حتى ولو كانت عظمة الشيطان نفسه .

ومعروف أن جنون العظمة وتقمص شخصية الإله قد أصابا نيتشه الذى يقول « إذا كانت هناك آلهة ، فكيف أستطيع أن أتحمل ألا أكون واحدًا منها . إذن لا توجد آلهة على الإطلاق لأنى لست إلها » [١] .

شيللي : Shelley, Percy Bysshe (١٧٩٢ - ١٨٢٢)

كان الشاعر شيللى ينظر باحتقار إلى ملاذ الطعام على الرغم من بوهيميته حتى لقد كان ينسى غالبا ما إذا كان أكل أم لا .. وكان زاهدًا تماما فى الأطعمة الفاخرة .

وكانت حياة شيللى عبارة عن فترات متعاقبة من النوم والقراءة ة.. وكان يبلغ به الإعياء من فرط السهر أن النعاس كان يغلبه فى النهار فينام فجأة فى أى مكان كالطفل . وقد روى صديقه تريلونى أنه ترك شيللى فى الساعة العاشرة من صباح أحد الأيام وكان واقفًا بجوار مدفأة غرفة مكتبة يقرأ .. ثم عاد إليه فى الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه فوجده ما يزال واقفًا بجوار مدفأة غرفة مكتبه يقرأ .. ثم عاد إليه فى الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه فوجده ما يزال واقفا فى الموضع نفسه يقرأ وهو بادى الشحوب والإعياء ، وعلم منه أنه لم يغادر مكانه أو يجلس أو يأكل منذ تركه فى الصباح [٢] .

ويحكى مدفن فى كتابه « حياة شيللى » Life of Percy Bysshe Shelley أن هذا الشاعر كان يستطيع أن يلقى بحجاب على عينيه وأن يجد نفسه فى حجرة مظلمة حيث كان يعيد تشكيل جميع ملامح أحد المناظر فى صيغة أكثر نقاء، وأكثر اكتمالا مما كانت مقدمة إليه فى الأصل إلى حواسه الخارجية » . ويجب أن نذكر أن

---

(١) RUSSELL, B., History of Western Philosophy; George Allen and Unwin, London 3rd imp., 1948, P. 774 .

(٢) مع الخالدين – سمير شيخانى – دار المعارف بلبنان – ١٩٥٩ .

شيللى كان يعانى من الهلوسات التى كان لها فى بعض الأحيان أثر ضار على حياته . ويمكن الوقوف فى الواقع على القيمة العالية التى ينوطها بمثل تلك الصور الذهنية عندما يتمكن من السيطرة عليها ويحسن قيادها [1] .

بلزاك « هونوريدي » Balzac, Honore de (١٧٩٩ - ١٨٥٠)

كاتب وقصصى فرنسى . له « الكوميديا البشرية » و « أوجينى غراندة » . ودرس أحوال عصره دراسة دقيقة .

أثر عنه أنه عندما كان يسير فى الشوارع لا يدع رقم البيت إلا ويسجله ثم يجمع الأرقام بعد ذلك، فإذا كان مجموع مضاعفات الرقم ٣ سار فى طريقه ضاحكا مستبشرا ، ومعنى ذلك أنه كان يتفاءل من رقم ٣ ، وإلا فإنه كان يغير اتجاهه إلى شارع آخر .. [2] .

شوبنهاور « أرثور » Schopenhauer , Arthur (١٧٨٨ - ١٨٦٠)

ولد فى دانتزيغ . فيلسوف ألمانى . صاحب مذهب التشاؤم، وتعليله وجود التناقض بين عالم الإرادة وعالم العقل .

وكان شوبنهارو يعتقد « أن الرجل العظيم ليس هو القائد الفاتح المغوار بل هو ذاك الذى يفضل الموت على البقاء » ولكنه مع ذلك كان شديد المحافظة على حياته. لقد هرب من وباء الكوليرا عندما تفشى فى برلين ، ومن وباء الجدرى فى نابولى ، وقضى آخر ٣٧ سنة من عمره فى فرانكفورت فى خوف مستمر من القتل والسرقة.

ويروى عنه أنه كسر ذراع خادمته لأنه وجدها فى غرفة نومه ترتب سريره ، وكان قد حذر بأنه لا يريد أى إنسان أن يدخل غرفته مطلقًا. وكثيرًا ما كان يسجن نفسه فى غرفته عدة أشهر . وقد اضطرت والدته أن تبقى على باب غرفته يومين كاملين دون أن يأذن لها بالدخول .

---

(١) ريد - هربرت - تربية الذوق الفنى - ترجمة ميخائيل أسعد - ص ٧٨.

(٢) مع الخالدين - سمير شيخانى - دار المعارف بلبنان - ١٩٥٩ - ص ٧١ .

ومما يعرف عنه أنه كان يتحدث إلى نفسه بصوت مرتفع أثناء سيره فى الطريق [1] .

كانت والدة شوبنهاور سيدة ذات مطامح أدبية ، وقد أقامت فى ويمار Wei-mar قبل نشوب معركة جينا . وهناك أقامت صالونا أدبيا ، وألفت الكتب وأقامت أواصر الصداقة مع شخصيات أدبية كثيرة . أما صلتها بابنها شوبنهاور فكانت مشوبة بعدم الاكتراث وبقلة الاهتمام به ، وكانت تتربص بأى خطأ يصدر عنه ، كما كانت تحذره من الكلام المنمق الطنان ومن الشفقة الفارغة ، بينما كان هو متبرما من علاقاتها الغرامية بأصدقائها . وعندما شب عن الطوق ، وجد نفسه قليل الثراء ، وصار بعد ذلك متبرمًا بعلاقاته بأمه ، مما انتهى به إلى كراهيتها . ولعل آراءه المناهضة للنساء راجعة - ولو جزئيا على الأقل - إلى مشاجراته مع أمه [2].

جورج صاند : George Sand (١٨٠٤ - ١٨٧٦)

كان لجورج صاند الكاتبة الفرنسية المعروفة ، وقائع غرامية لا تحصى فى الفترة الممتدة من وفاة زوجها البارون دودوفان حتى تعرفها بشاعر الغزل الرقيق ألفريد دوموسيه [3] .

ألكسندر دوماس : Alexandre Dumas (١٨٠٤ - ١٨٧٠)

مؤلف قصصى له كتاب « الفرسان الثلاثة » و « الكونت دى مونت كريستو» كان يتبجح بأن عدد أولاده يبلغ الخمسمائة ، وبالرغم من بدانته وقبح شكله ، فقد كان زير نساء .

كان شهوانيا أكولا ماهرا فى الطهو مهارته فى نسج الروايات ، إلا أنه لم يذق فى حياته القهوة أو أى شراب ، ولم يدخن التبغ مطلقًا ، وكثيرًا ما كان ينسى مواعيد طعامه لانهماكه فى الكتابة .

---

(١) المرجع السابق - ص ٢٦١ .

(٢) RUSSELL, B., History of Western Philosophy, George Allen and Unwin, 3rd imp., 1948, P. 782.

(٣) مع الخالدين- ص ٧٥ .

ومن شذوذه أنه كان شديد العناية بانتقاء أنواع الورق وألوانه وأصناف الأقلام. من ذلك أنه كان يكتب على ورق أزرق وبأقلام خاصة ، فى حين كان يسطر قصائده على ورق أصفر وبأقلام غير الأقلام الأولى . أما مقالاته الصحفية فكان يستخدم فى كتاباتها الورق الوردى ، ولم يستعمل مطلقًا الحبر الأزرق ، ولم يجلس يوما ما إلى منضدة لتأليف رواية، بل كان يستلقى علي المقعد ويسند كتفه إلى إحدى الطنفس الوثيرة . ولما تقدم فى السن ازداد شغفه بالنساء ، وتعددت مغامراته وغرامياته حتى بلغت حد الفضيحة، واضطر ابنه إلى الابتعاد عنه ممتعضا . ولما قل ماله تفرق عنه الجميع، فقضى شيخوخته فى فقر وعزلة ، واضطر إلى رهن مجوهراته وملابسه [1] .

تشارلس ديكنز : Dickens , Charles (١٨١٣ - ١٨٨٠)

من مشاهير القصصيين الإنجليز . أبدع فى وصف حياة البسطاء والأولاد البائسين. له « دافيد كوبر فيلد » و « أوليفر تويست » . . كان خفيف الروح ، يطلع على أصدقائه بأنباء تدهشهم وتذهلهم فى آن معًا ، وعرف بغرابة أطواره وقوة ملاحظته وسرعة غضبه ، وتشدده فى تربية أولاده. فكان يقيم البيت ويقعده ، ويملؤه صياحا وتهديدا إذا ما وقع نظره على قطعة من الرياش فى غير موضعها ، أو إذا أتت إحدى بناته أمرا أو أهملت شأنا من الشئون المنزلية مهما يكن طفيفا .

ومن أبرز الدلائل على غرابة أطواره أنه كان يغادر منزله وسط الظلام ويتوه فى شوارع لندن كالمجنون ، قاطعا ١٥ أو ٢٠ ميلا فى الليلة الواحدة دون أن يكون له أى مأرب من هذه « النزهة » الليلية . وكم مرة دخل بيوت أصدقائه من نوافذها وهو يرتدى ملابس البحارة ، أو يرقص الرقصات التى تنسجم وأنغام الناى .

زار ديكنز الولايات المتحدة الأمريكية فأدهشتها منه حركاته المستهجنة النابية التى يمجها الذوق ، وثيابه المخملية القرمزية أو الخضراء اللامعة . ففى إحدى المآدب التى أقيمت له دس يده فى جيبه وتناول مشطا راح يسرح به شعره ولحيته وشاربيه على مرأى من الحاضرين المشدوهين المتقززين .

---

(١) نفس المرجع - ص ٦٣ .

وكان ديكنز نهبا لعوامل الضعف والقوة ، متقلبا ، يعجز عن رؤية الحياة (أو رؤية نفسه) متناسقة الأجزاء مما جعل رواياته جميعًا تبدو كأنها بركان ثائر من العبقرية والنبوغ محاط بمستنقعات من الوهن والبلاهة [1].

دوستوفسكي : Destoievsky, Feodor (١٨٢١ - ١٨٨١)

كاتب روائى روسى . كان له التأثير العظيم فى الحركة الفكرية الروسية المعاصرة . له روايات تمتاز بالتحليل الأخلاقى النفسى منها « الجريمة والعقاب » و « بيت الموتى » و « الأبله » وغيرها .

هجر دوستوفسكى وطنه روسيا هربا من دائنيه الكثيرين . وأقام فى الخارج زهاء أربعة أعوام كانت المقامرة فيها شغله الشاغل . وكان كلما خسر كتب إلى زوجته يستنجدها ، فتبعث إليه بالمال وهى عالمة بوجوه إنفاقه . وكان يقول لها فى رسائله مطمئنا إياها « لا عليك . فسيجىء وقت أصبح جديرا بك ، فأكف عن سلبك مالك كاللص السافل » [2] .

تولستوي : Tolstoy, Leo (١٨٢٨ - ١٩٢٠) :

كاتب قصصى روسى.حاول إصلاح المجتمع عن طريق العدل والمحبة وعدم الزيف .. صور العادات وانتقد المساوئ الشائعة ، أشهر رواياته « الحرب والسلام» و «وأنا كارنينا » .

كان فى مطلع شبابه أنيقًا ينفق أمواله على البذخ والفخفخة ، فيرتدى أفخر الحلل، أما فى الشطر الأخير من حياته فكان يرتدى ثياب الفلاحين الخشنة ، ويصنع أحذيته بيديه . ويكنس غرفته بنفسه ، ويأكل على مائدة عارية طعامه البسيط مستعملا صحنا وملعقة من الخشب.

عاش فى شبابه حياة وصفها بأنها حياة فاسدة ، ماجنة ملأى بالموبقات ، ولكنه فى أواخر أيامه ، حاول أن يتبع فى حياته تعاليم السيد المسيح ويحيا حياة القديسين .

---

(١) نفس المرجع - ص ٨٠ .

(٢) نفس المرجع - ص ٨٥ .

وفى صباه فشل فى الدراسة بالمدرسة، ويئس مدرسوه الخصوصيون من أمر إدخال أى علم فى جمجمته الكثيفة ، إلا إنه بعد ثلاثين سنة وضع روايتين من أشهر الروايات التى عرفها العالم هما اللتان ذكرناهما قبلا [1] .

إديسون : Edison, Thomas Alva (١٨٤٧ - ١٩٣١) :

فيزيائى أمريكى مخترع الآلات الكهربائية ومنها المصباح الكهربائى ، وهو أول من حقق عمليًا الفونوغراف . كما أنه اخترع آلة تصوير سينمائية وجهازًا لاقطًا للراديو .

كان إديسون ضعيف الذاكرة، لا سيما فى شبابه... ففى المدرسة كان ينسى كل ما كان يتعلمه؛ ولذلك كان دائما يأتى فى مؤخرة زملائه من حيث الدرجة .

ويئس منه أساتذته ، وصرحوا بأنه خفيف العقل أبله ، لا فائدة من تعليمه . أما الأطباء فتكهنوا بأنه مصاب بمس ، نظرا لشكل رأسه الغريب .

والواقع أن إديسون لم يقض فى المدرسة سوى ثلاثة أشهر طوال حياته ، وتولت والدته تعليمه فى البيت فكان عملها رائعًا .

وازدادت ذاكرة إديسون قوة على مر الأيام لا سيما فى الشئون العلمية ، فكان يحفظ عن ظهر قلب كل الحقائق العلمية التى تزخر بها المجلدات الضخمة فى مكتبته الخاصة [2] .

واضطر ذات يوم للذهاب إلى المحكمة ليؤدى ما عليه من ضرائب . ولبث وقتا طويلا فى الصف منتظرا دوره فلما جاء دوره لم يتذكر اسمه، ولحظ أحد الواقفين بجانبه ارتباكه. فذكره بأن اسمه توماس إديسون . وقد صرح بأنه لم يكن ليستطيع تذكر اسمه ، حتى ولو كانت حياته معلقة على ذلك . وكان فى كثير من الأحيان ينسى تناول طعامه ، ظنا منه أنه تناوله .

فان جوخ : Van Gogh, Vincen (١٨٥٣ - ١٨٩٠) :

مصور هولندى . عاش فى فرنسا . بلغ بتصويره الأشياء غاية ما يبلغ إليه التصوير من قوة وحياة .

---

(١) نفس المرجع - ص ٨٧ - ٨٨ .

(٢) نفس المرجع - ص ٣٠٤ .

وعلى الرغم من شبح الجنون الذى عاش فى ظله . فإنه لم يمل يوما عمله الفنى ، ولم يتوقف عن الخلق والإبداع .

وفى إحدى نوبات جنونه هدد زميله بول غوغان بالقتل ، ثم قطع فان إحدى أذنيه ، وخشى أن يعاوده هذا الجنون الخطر فانتحر بإطلاق الرصاص على نفسه [١] .

تشارلس دارون : Darwin, Charles (١٨٠٩ - ١٨٨٢) :

إنجليزى عالم بالطبيعة ، صاحب نظرية التطور فى الأجناس الحية. قال إن ذلك نتيجة « اختيار طبيعى » لصالح الأجناس الأكثر أهلية للبقاء .

والواقع أن السنوات العشرين الأولى من حياة دارون لم تكن تنبئ بما انتهى إليه من صيت ذائع وتبجيل شديد فى الأوساط العلمية . وكان والد تشارلس هو أكثر الناس تشككا فى مستقبل ابنه. كان يقول له « إنك لا تهتم بشىء أكثر من قضاء الوقت فى الرماية والصيد والاهتمام بالكلاب والإمساك بالفئران، ولسوف تكون عارا وشنارا لنفسك ولأسرتك» ، وكان الأب معذورا فيما كان يقوله لابنه؛ لأنه لم يكن يتعلم شيئا بمدرسة بتلر بشروسبرى ، كما أنه تنحى عن دراسة الطب بأدنبره . ولم تتعد هواياته الحقيقية خلال هذه الفترة جمع الحشرات والرماية . بيد أنه كان شخصية جذابة فى أثناء وجوده بكامبردج مما سمح له بالالتحاق بالجمعية الرياضية، والتعرف على شخصيات من ذوى المواهب الممتازة، نذكر منهم بصفة خاصة جون هنسلو Henslow الذى أيقظ تشارلس من سباته الفكرى وأثار اهتمامه بالتاريخ الطبيعى . وكان لهنسلو الفضل فى تزكية دارون كعالم طبيعى ليكون عضوا برحلة تدور حول العالم فى باخرة علمية أعدت لهذا الغرض .

ويقول تشارلس دارون إن بداية هذه الرحلة كانت بمثابة « حياة ثانية لى سأنخرط فيها ، وفعلا كانت هذه الرحلة ميلادا جديدا لى بدأت بعدها فترة حياتى الباقية » [٢] .

---

(١) نفس المرجع – ص ١٤٨ .

(٢) ABRAM KARDINER and EDWARD PREBLE; They Studied Man, Secker and warburg, London, 1961, P. 18 - 19 .

وليس عجيبا أن نقول إن هذه الرحلة كانت فى االواقع ميلادا جديدا للفكر التطورى الذى كانت أراهيصه قد بدأت قبل داروين على يدى لامارك وغيره من علماء آمنوا بالمبدأ التطورى .

بسمارك : Bismarck (١٨٥١ - ١٨٩٨) :

من مشاهير السياسيين الألمان ، وأحد الذين جاهدوا لتحقيق الوحدة الألمانية ولجعل ألمانيا فى مقدمة الدول الاستعمارية فى القرن التاسع عشر.

ويعتقد برتراند رسل أن بسمارك قد ورث ذكاءه عن أمه وليس عن أبيه ، كما ورث عنها فى نفس الوقت قلقه وعدم استقراره . لقد كانت والدته من أسرة منشنز ولم تكن أسرة أرستقراطية ، لقد كانوا أساتذة وموظفين . وكان والدها وزيرا تحت إمرة فردريك الأكبر ، ثم عزله خليفته باعتباره يعقوبيا ، ثم أعاده فردريك وليم الثالث باعتباره صهرًا لستين . لقد كانت أم بسمارك امرأة ذكية ومتحضرة وطموحة ومسايرة للعصر . ولذا فإنها لم تكن سعيدة بزوجها ولا قانعة به ، وذلك لعدم اكتراثه بإحراز النجاح والتفوق فى الحياة .

ولد بسمارك الطفل (أوتو) فى عام ١٨١٥، وأحب والده ووطنه جدا ، بينما كره برلين وأمه معًا . وكان فى طفولته الأولى سعيدا بعزبة والده كنيبهوف Kneiph-of فى بوميرانيا Pomerania متخذا من قطعان البقر ولاعبى كرة القدم والخيول والكلاب أصدقاء له . وعندما بلغ سن الدراسة ، قامت والدته باختيار مدرسة راقية له تسير تبعًا لمبادئ بستالتزى . ولقد عانى من تلك المدرسة بسبب سوء التغذية والنظام الصارم الذى كان متبعا بها ، واستمر أوتو يعانى من سوء الهضم طوال حياته . وعندما بلغ المراهقة كانت التقارير المدرسية التى تصل إلى الأسرة عنه تتهمه بأنه يتكلف الكبرياء والغطرسة ، وأنه غير متمتع بأية فكرة عن الاحترام الصحيح لمدرسيه . والواقع أن بسمارك لم يكن يعرف كيف يحترم الناس أو أفكارهم. وظل على هذا الحال طوال حياته [١] .

---

(١) RUSSELL, B., Freedom and Organization, George Allen and unwin, London, 5 th imp., 1952, P. 118 .

هربرت سبنسر : Spencer, Herbert (١٨٢٠ - ١٩٠٣).

فيلسوف إنجليزي من المدرسة الاختبارية . تأثر بمذهب التطور . من آرائه أن المرء لا يستطيع الوصول إلى معرفة الله .

لقد كان هربرت سبنسر شديد الإعجاب بوالده ، وظل تحت تأثيره في مرحلة شبابه . شجع الأب ابنه على أن يولي العلم الطبيعي اهتمامه الأكبر ، وأخذ الابن يبدي اهتمامه الشديد بالتاريخ الطبيعي والكيمياء والفيزياء مع استبعاد شبه تام للتاريخ والكلاسيكيات . وظل هذا الاضطراب في التوازن بين الاهتمامات خلال حياته كلها . وكان هذا سببا أساسيا في كل من نجاحه وفشله بالنسبة لنظامه الفلسفي الذي وضعه والذي أطلق عليه اسم « الفلسفة التركيبية » .

لقد كان هربرت سبنسر في طفولته كلفًا أشد الكلف بالظواهر الطبيعية . وكان دائب البحث وراء الأسباب الطبيعية التي أحس أنها تكمن بالضرورة خلف كل حادثة . وكانت اتصالاته الاجتماعية قليلة مع غيره من الأطفال ، بينما كان يقضي كثيرا من ساعات النهار في أحلام اليقظة . ونجده يصف هذه العادة في مذكراته حيث يقول « لقد كنت في طفولتي البعيدة منغمسا في عادة أحلام اليقظة لدرجة أني عندما كنت أتوجه إلى السرير الليلي ، كنت أجد في تلك الأحلام مصدرا هاما لإشباع رغباتي، وكنت أضع نصب عيني أني سأمكث أطول وقت ممكن في انهماك في تلك الأخيلة قبل أن أنخرط باالفعل في النوم ، وعندما كنت أستيقظ في الصباح كنت أثور على نفسي لأني انخرط في النوم قبل أن أشبع نهمي من تلك الأخيلة. والواقع أن هذه الأحلام كانت قد صارت أحلام يقظة بالمعنى الحرفي للكلمة ، لأنها ملأت شعوري وأنا في حال اليقظة أيضًا . وحتى وأنا بالطريق كنت أحس بأني في حالة من التفكير المجرد لدرجة أني كنت أتحدث بصوت مرتفع بينما أنا سائر بالشارع . وهذا كان يجذب انتباه المارة الذين كانوا يلتفتون نحوي في دهشة ». والواقع أن هذا الميل إلى الانخراط في أحلام اليقظة ظل معتملا في حياة سبنسر كلها حتى بعد أن نضج وصار يشار إليه بالبنان .

باستير Pasteur, Louis (١٨٢٢ - ١٨٩٥) :

عالم فرنسى أكب على دراسة الأمراض المنتشرة واكتشف دواء الكلب وغيره بالتلقيح . ومما يروى عنه أنه فى يوم زفافه اجتمع المدعوون والعروس وذووها والكاهن ولكن العريس لم يحضر ، وهرع إليه أحد أصدقائه يبحث عنه فى المختبر فألفاه منكبا على أنابيب الاختبار ، مستغرقا فيما كان يدونه من ملاحظات على ما يجرى حوله ، فبادره الصديق بالسؤال: هل نسيت موعد زفافك ؟ فكان جواب باستير « كلا ولكننى لم أتم عملى . وهل تتوقع منى أن أدع الاختبار قبل نهايته [١] ؟» .

نيتشه : Nietzsche, Friedrich (١٨٤٤ - ١٩٠٠) :

فيلسوف ألمانى. أخذ بمذهب التطور ، وقال إن الحياة ليست غير تنازع البقاء وبقاء الأصلح . وأن الإنسان الأعلى " Super Man " هدف يجب الوصول إليه. كان من مؤسسى النزعة القومية الجرمانية . يتلخص مذهبه بما يدعى « إرادة القوة » .

كان منطويًا على نفسه ، منعزلا عن الناس والمجتمع . انتهت حياته بالجنون الذى أبعده أكثر فأكثر عن عالم العقلاء (١٢ سنة) حتى مات .

كان نتيشه يحتقر المرأة ويزدريها ، وكان خجولا فلم يعرف بنت حواء عن كثب ولم يختبرها ، وهو القائل بلسان بطله زرادشت « إن النساء غير قادرات على حفظ الصداقة ، فهن قطط أو عصافير أو بقر ، وجدن من أجل الترفيه عن المحارب الذى يجب أن يحذر من يحتلن عليه فيقع فى حبائلهن ، وتقطع دونه سبل النجاة » ويخلص زرادشت إلى القول : « أذاهب أنت إلى المرأة ؟ إذن ، لا تنس السوط » [٢].

ينشتاين : Einstein, Albert (١٨٧٩ - ١٩٥٥):

فيزيائى أمريكى. ولد فى ألمانيا . وضع « النظرية النسبية الخاصة » ثم « العامة » (١٩١٦) نال جائزة نوبل فى الفيزياء (١٩٢١) .

---

(١) مع الخالدين – سمير شيخانى – دار المعارف بلبنان – ١٩٥٩– ص ٢٨٣ .

(٢) نفس المرجع– ص ٢٨٩ .

كان ذا تفكير منظم مع أنه كان يكره النظام فى شئون حياته اليومية والبيتية، يؤمن بمبدأين اثنين لا ثالث لهما : أحدهما التحرر من القواعد أيا كانت ، والآخر التحرر من آراء الآخرين أيا كانت . وكان يعيش حياة هادئة بسيطة، ولا يأنف من ارتداء الملابس العتيقة التى تحتاج إلى الكى ، وقلما كان يضع قبعة على رأسه ، يصفر ويغنى بأعلى صوته فى الحمام ، كان يحلق ذقنه وهو جالس فى المغطس (البانيو) مستخدما الصابون نفسه الذى يغتسل به لحلق ذقنه من دون سائر أنواع الصابون الخاصة بالحلاقة . ومن العجيب أن يؤكد هذا العالم الذى حاول حل معضلات الدنيا وأسرارها أن استعمال نوعين من الصابون يجعل الحياة كلها معقدة. كان زاهدا فى المال وفى الألقاب وزاهدا فى المديح والتبجيل [١] .

أوسكار وايلد : Oscar Wilde (٠٠٠ - ١٩٠٠) :

كان هذا الشاعر والروائى الإيرلندى رسولا لعقيدة الفن للفن . كان غريب الأطوار تماما . كان شعره طويلا كشعر النساء ، كما كان يكره الألعاب الرياضة ، ويجهر بذلك ، ويزين غرفته بريش الطواويس والزنابق ، وصحون البورسلين الزرقاء، وغير ذلك من التحف الفنية . وعلى الرغم من أن زملاءه الطلبة القوه ذات يوم فى النهر وهاجموا غرفته وحطموا محتوياتها بعد أن قلبوها رأسا على عقب ، فإنهم لم يستطيعوا أن يضعوا حدا لغرابة أطواره . وقد أنكر أصدقاؤه بادئ ذى بدء كل ما تردد من قصص حول شذوذه الجنسى ، ولكنهم لم يستطيعوا تكذيب ذلك عندما حكم عليه سنة ١٨٩٥ بالسجن سنتين لجريمة أخلاقية . فكانت تلك نهاية حياته فى إنجلترا . ولما خرج من السجن غادر وطنه إلى القارة الأمريكية ومنها توجه إلى فرنسا [٢] .

موسوليني (بنيتو) Mussolini, Benito (١٨٧٣ - ١٩٤٥) :

من رجالات الدولة فى إيطاليا . مؤسس الحزب الفاشيستى (الاتحادى) . وقع معاهدة لاتران (١٩٢٩) . هزم فى الحرب العالمية الثانية وقتل .

---

(١) نفس المرجع - ص ١٤٨ .

(٢) نفس المرجع - ص ١٠١ - ١٠٢ .

كان موسولينى داهية ، وعبقريا وساحرًا ومجنونًا فى آن واحد . ولم يكن موسولينى سهل القياد بل كان أشبه بالجواد الجموح الذى يصعب تطبيعه . ولقد كان الإطراء هو الوسيلة الوحيدة لكسب ثقته . ولم يكن ليثق بأحد، وأكره ما كان يكرهه أن يدلى إليه بنصائح مهما تكن قيمة . لم يقر يومًا بأية معارضة ، فإذا ما أبرزت رأسها سارع فى الحال إلى قمعها والقضاء عليها مهما كلف الأمر . ولم يكن ليعترف بأخطائه . وكثيرا ما كانت خطبه تتضمن تنبؤات وتكهنات يتحقق بعضها فيقوم يعلن أن حدسه لم يخطئ ، ضاربا صفحا عن سائر التكهنات التى لم تؤيدها الوقائع . وأما القاعدة التى كان يحلو لموسولينى أن يسير عليها فى حياته فهى إحراز الانتصار تلو الانتصار ليستلفت أنظار العالم . ولم يكن له خطط ومشاريع يأخذ بها، بل كان يعمل حسب مقتضيات الظروف . وكان من أبرز صفاته الحسد والحقد وشهوة الانتقام، وتقلب الرأى وعدم الاستقرار .

قامت عبقريته فى الدرجة الأولى على الوسيلة التى كان يستخدمها فى سبيل التسلط على الجموع الشعبية واجتذابها إلى الحظيرة التى يدعو إليها ويبشر بعقيدتها [1] .

هتلر : Hitler, Adolf (١٧٨٩ - ١٩٤٥) .

زعيم الحزب الوطنى الاشتراكى (النازى) . مستشار ألمانى (١٩٣٣) . ورئيس أعلى للدولة الألمانية (١٩٣٤) . خاض الحرب العالمية الثانية، انتحر فى حصار برلين .

تعددت الأقوال فى شخصية هتلر وتضاربت ، ولكنها تجمع على أن من أغرب المظاهر فى شخصيته إيمانه العميق فى كل ما يقول .

ومن غرائب أطوار هتلر المتناقضة أنه مزيج من التفكير الهادئ العميق ، ومن الانفعال العنيف المتكبر الناشئ عن الغيظ والحنق .

وفى كتاب « هتلر يتكلم » حلل الهر راوشننغ ، وكان مقربا من هتلر، وأول رئيس نازى لمجلس الشيوخ فى دانتريغ ، شخصية دكتاتور ألمانيا النازية بقوله : « يجمع هتلر بين جاذبية الطبيب الماهر والمشعوذ الكبير . إنه رمز انبعاث العالم الفطرى فى أوربا الغربية » .

---

(١) نفس المرجع - ص ٢٣٨ .

وكان هتلر كثير المطالب والولع ، لا يعرف معنى العمل المنظم . إنه صاحب أفكار عارضة وتأثرات سريعة ، ولا يكاد يشعر بها حتى يبادر إلى تحقيقها بسرعة ، فكل شيء فيه زلازل واهتزازات وصواعق .

وأجمل ما فيه حبه للنزهات الخلوية في الغابات والجبال ، فساعات العزلة والنزهة كانت تقوم عنده مقام الصلاة ، يصغى خلالها إلى حفيف الأشجار ووقع قطرات الماء ويسمع أصواتا غريبة ... لقد كان يبكى إذا مات عصفور ، ولكنه لم يكن يحجم عن تعذيب ملايين البشر .

ووصف السفير الفرنسي في برلين فرنسوى بونسه شخصية الفوهرر ، زعيم الرايخ الثالث ، فى تقرير رفعه إلى حكومته فى تشرين الأول عام ١٩٣٨ بقوله :

« لا ريب عندى فى أن هتلر ذو خلق متقلب متبلبل متجزئ ... فالرجل الذى تراه أمامك هادئا وديعا ، يشعر بجمال الطبيعة ويحدثك على مائدة الشاى عن أكثر المشاريع السياسية تعقلا وحكمة ، هو نفسه الرجل الذى يستأثر بقراراته وبأعماله ، ويندفع فى مغامرات جنونية إلى تنفيذ مطامع جبارة لا تعرف حدا .

ولقد اقترن اسم هتلر بعدد وافر من النساء على الرغم من الأسطورة التى كانت تصوره بأنه يكره النساء .

أصر هتلر على حياة العزوبة. وقد اختلفت الآراء فى تعليل هذا الإصرار. وأجمع الخبراء النفسيون على القول بأن عاطفة الحب ليست مفقودة فى نفس هتلر، ولكنها تذهب إلى غير المرأة، فهتلر يهوى نفسه ، ويهوى العظمة والسؤدد ويهوى الطموح والسعادة، وقد جعل ألمانيا عشيقته التى يهفو إلى رضائها .

ونشرت الصحف الشيء الكثير عن علاقة هتلر بإيفا براون التى قيل أنه تزوجها فى ٢٧ نيسان ١٩٤٥ أى قبل مصرعه بأربعة أيام [١]

★ ★ ★

---

(١) نفس المرجع - ص ٢٤٠ .



الفصل الخامس

الحضارة والعبقرية

العباقرة هم صناع الحضارة :

نقصد بالحضارة جماع المستحدثات فى جميع المجالات التى تتعلق بالإنسان عبر العصور المتعاقبة . وحرى بنا أن نعرض لأهم تلك المجالات التى تتكون الحضارة من مجموعها على النحو التالى :

أولا – الدين : فالمجتمعات الإنسانية على تباينها وعبر العصور البعيدة اعتنقت الأديان ، فآمنت بقوى روحية تعلو مرتبة عن مرتبة الإنسان ، ولها علاقة وطيدة بالإنسان سواء من حيث نشأته على هذه البسيطة ، أم من حيث رعايته والحفاظ عليه ، أم من حيث تأديبه فى الدنيا ومعاقبته فى الآخرة . وظهرت الأديان السماوية الثلاثة ، أعنى اليهودية والمسيحية والإسلام التى تؤمن جميعًا بإله واحد خالق السموات والأرض مع وجود تباينات فيما بينها فى التفاصيل . وهناك الأنبياء والرسل والفقهاء والعلماء والفلاسفة الدينيون والرهبان والمتصوفة وجميعهم يشاركون فى دعم الدين والقيام على خدمته .

ثانيا – السحر : والسحر هو جماع الفنون التى بمقتضاها يتم تسخير بعض القوى الروحية إما لجنى بعض الفوائد لمن يحاك السحر لصالحه وهو ما يسمى بالسحر الأبيض، وإما لإيقاع ضرر على شخص أو على مجموعة من الأشخاص وهو ما يسمى بالسحر الأسود . ولقد يرتبط السحر بالتنجيم عندما يحاول الساحر تغيير مجرى الأحداث المستقبلية لصالح شخص معين يكشف التنجيم عن وقوع أحداث لصالحه فيحاول الساحر المنجم إبعاد الخير عنه .

ثالثا – الفلسفة : والفلسفة هى تفسير الوجود والخلوص إلى نظرات عامة

مطلقة غير متقيدة بزمان أو مكان . ولقد نشأت الفلسفة أول ما نشأت باليونان بالقرن الخامس قبل الميلاد . وما تزال الفلسفة تمثل ركنًا أصيلا بين المعارف الإنسانية ، ومن المعروف أن العلوم الوضعية جميعًا كانت واقعة فى إطار الفلسفة إلى أن تحقق لها الاستقلال وصار لكل منها هويته الخاصة به .

رابعا - العلم : والعلم هو اكتشاف قوانين النوعيات المحددة من الوجود ، وهو تصنيف الكثير فى فئات تخضع لقانون واحد أو لخصائص مشتركة متطابقة . وعندما يطبق العلم على الواقع يصير تقنية ، وعندما تستحيل التقنية إلى آلات وأدوات تستخدم فى المجالات المتباينة فإنها تصير تكنولوجيا . فالقطار والتليفزيون والآلة الحاسبة تكنولوجيا .

خامسا - الفن : والفن هو الشعور الوجدانى بالتناغم والانسجام والتقدير لنسب تتعلق بالمساحة أو الحجم أو النغم أو الحركة . والفن هو أيضا استحداث الجمال فى شتى المجالات التى تثير الشعور بالانسجام والتناغم والتقدير .

والواقع أن العباقرة هم أولئك الذين أمسكوا بدفة العمل فى جميع هذه الميادين الحضارية الخمسة . فالأنبياء عباقرة لأنهم هيئوا لتلقى رسالات السماء ، وكذا فإن السحرة عباقرة من حيث إنهم يستطيعون إخضاع القوى الروحية لأعمالهم السحرية حتى وإن كانت عبقريتهم للشر وليست للخير ، فليس شرط العبقرية أن تكون للخير . والفلاسفة عباقرة لأنهم يشقون أسمى طريق نحو معرفة الكون . والعلماء عباقرة بهذا المعنى أيضا . وأخيرا فإن الفنان النابغة عبقرى لأنه يحس بما لا يحس به الآخرون من جمال ، ولأنه يستطيع أن يخلق الجمال فيما ينتجه من أعمال فنية فى نفس الوقت .

بيد أنه لكى يكون الشخص عبقريا فى مجال ما من هذه المجالات الخمسة ، فلابد له من الاتصاف بمجموعة من الخصائص التى نحددها فيما يلى :

أولا - الارتفاع الشديد جدا في الذكاء : لقد قام علماء النفس بوضع معايير للذكاء وصنفوا فئات الناس من حيث مدى تمتعهم بهذه الموهبة الفطرية إلى فئات وجعلوا العباقرة فى أعلى درجة من الذكاء . ويمكن أن يعرف الذكاء ببساطة بأنه

القدرة على إدراك العلاقات بين الأشياء أو إدراك العلاقات بين العلاقات . فالعبقرى يستطيع أن يقيم علاقات دقيقة بين الخبرات التى سبق له كسبها ، وهى العلاقات الدقيقة جدا والتى لا يستطيع من هم أقل منه ذكاء الوقوف عليها أو إدراكها .

ثانيا – المواهب الخاصة : وإلى جانب الذكاء لابد أن يكون العبقرى متمتعا بقدرة أو بموهبة خاصة فى المجال الذى تتبدى عبقريته فيه . فبيتهوفن مثلا تبدت عبقريته فى الموسيقى وأينشتين فى الفيزياء وداروين فى علم الأحياء وسقراط فى الفلسفة ... إلخ .

ثالثا – الاهتمام بالأساسيات : والعبقرى لا يلقى بالا إلى تفاصيل الأشياء بل إلى أصولها . إنه لا يهتم بالقشور بل باللب . فهو دائم التعلق بالأهم فى كل شىء. ولذا فإنك تجده يبحث دائما عن أهم من المهم الذى يشغل باله حتى إذا وقف عليه فإنه ينحى المهم جانبا لكى يركز ذهنه فى الأهم .

رابعا – العناد والإصرار ومواصلة العمل : والعبقرى لا تلين له عريكة ولا تفتر له همة ولا يتوقف عن بذل الجهد ، حتى ولو كان ذلك البذل على حساب صحته وحيويته إنه الجندى المغوار الذى يواصل الحرب بالرغم من جراحاته الثخينة. ويموتَ العبقرى وفى يده أدوات عمله العبقرى . فهو كالشمعة التى تظل مضيئة حتى آخر نقطة تحترق فى قوامها .

خامسا – التأكيد المستمر للذات : والعبقرى شخص يؤكد ذاته بصفة دائبة بما ينجزه ممن أعمال . ولكى يحقق ذاته ويؤكدها فإنه يركز كل همه فى العمل العبقرى الذي ينهمك فيه من قمة رأسه حتى أخمص قدميه . إنه لا ينظر إلى النتائج التى يحرزها أو الفوائد التى يجنيها ، بل يذوب فى قوام العمل ذاته ، فالنتائج التى يتوخاها هى نتائج نفسية داخلية وليست نتائج اجتماعية كتصفيق الناس له أو الاعتراف بفضله . فهو أعلى من تقدير الناس.إنه يهتم بتقدير نفسه لا بتقدير الآخرين له .

وبعد أن عرضنا بسرعة للخصائص النفسية للعبقرى ، فإننا نتساءل عن خصائص الإنجازات العبقرية فى مضمار الحضارة . ولعلنا نحدد تلك الخصائص فيما يلى :

أولا – ارتياد آفاق جديدة : فالعمل العبقرى لا يوصف بهذا الوصف إلا إذا كان جديدا . فالعبقرى يبحث عن خط لم يرتده أحد من قبل ويضرب فى إثره . إنه لا يحب أن يسير فى ركب السائرين ، بل يحب أن يسير وحده فى مجاهل لم يسبق لأحد أن خاض فيها أو ضرب فى آفاقها الوعرة . ففيثاغورس بهذا المعنى عبقرى لأنه أول من اخترع الهندسة . ولكن الخط الجديد الذى يشقه العبقرى قد يكون واقعا فى إطار منطقة معرفية عرفت بشكل عام ، ولكن تفصيلة من تفصيلاتها يختص العبقرى بارتيادها وحده. والشأن هنا كشأن اكتشاف منطقة بالصحراء وتحديد معالمها ، ولكن شخصا يأتى فينقب فيها ويغوص فى أعماقها ويقف على محتويات بطنها . إنه يكون إذن قد ارتاد آفاقا جديدة لم يسبقه أحد إليها .

ثانيا – الصدى الذى يحدثه العمل الجديد : وليس بكاف أن يقوم العبقرى بالضرب فى خط جديد ، بل لابد أن يحدث ذلك الخط الجديد صدى سريعا أو بعد حين ، فمندل فى الوراثة لم يلق التقدير السريع لمكتشفاته ، ولكن عبقريته قد تأكدت مع اهتمام الناس بما كشف النقاب عنه .

ثالثا – التفكير التجديدى التعديلى المستمر : ولا يكتفى العبقرى بما تم له التوصل إليه أو بلوغه من حقائق جديدة أو من إنجازات عبقرية ، بل إنه يستمر فى عملية ديالكتيكية (جدلية) بين جديد يتوصل إليه وبين قديم نسبيا بلغه وأنجزه. فهو دائم التفاعل بين فكره المتجدد دائما ، بل وبين فكره وبين أفكار الآخرين من المبدعين فى المجال الذى لم يأخذه فى اعتباره ويوله اهتمامه . ومن هنا يتسلح العبقرى بالتفكير التجديدى التعديلى باستمرار . فما يراه اليوم لا يكون بالضرورة هو ما سوف يراه غدا، وذلك فى ضوء المعطيات الجديدة التى تتأتى له باستمرار .

رابعا – القفزات أو الطفرات الإلهامية : والواقع أن العبقرى لا ينهج فى تفكيره وفق ما يسير عليه الشخص العادى ، بل هو يقفز أو يطفر إلى نتائج يقف

عليها بالحدس أحيانا أو بالإلهام أحيانا أخرى ، ولعلنا لا نخطئ إذا ما قلنا إن خبرات العبقرى تكون بمثابة كائنات حية تتزاوج فيما بينها فتنتج أجيالا جديدة من الخبرات تتباين تباينا بعيد المدى عن الخبرات التى تزاوجت فيما بينها ، أعنى الخبرات التى هى بمثابة الآباء والأمهات للخبرات الجديدة التى هى بدورها بمثابة أولاد لتلك الخبرات الكبيرة، وتكون مهمة العبقرى هى التعبير خارج نطاقه عن تلك الخبرات الوليدة الجديدة فيجسدها فى الواقع الخارجى . ولقد نفسر خبرات العبقرى بتفسير نقتبسه من الكيمياء ، فنقول إن الخبرات التى يتوصل إليها العبقرى المستقاة من الخارج بمثابة مواد كيميائية تتفاعل فيما بينها فتظهر مركبات خبرية جديدة لا تحمل خصائص العناصر التى تفاعلت فيما بينها . ولقد نفسر تلك الطفرات بتفسير ثالث وهو فى هذه المرة تفسير رياضى . فنقول: إن العبقرى يحدث توافيق وتباديل دقيقة فيما بين خبراته ، فيقع فجأة على نوع من التوافيق والتباديل التى لا يصل إليها الأشخاص العاديون .

خامسا – الخيال قبل الواقع: فالعبقرى شخص يسبق بخياله ما يتم له الكشف عنه أو إنجازه . والخيال يتضمن فرض الفروض التي هى ضرورة لازمة لأى عمل فلسفى أو علمى، أو لأى اكتشاف أو اختراع حضارى . وكلما كان الخيال أكثر خصوبة كان العمل العبقرى أكثر جرأة وجدة وابتكارا .

التكنولوجيا والعبقرية :

يرجع الفضل إلى العباقرة الذين طوعوا العلم لخدمة الإنسان ، سواء بالتخفيف من آلامه ، أم بتوسيع رقعة الرفاهية أمامه ، أم بزيادة إنتاجه النباتى والحيوانى، أم في المعمار أم فى المواصلات والاتصالات وغير ذلك الكثير جدا من شئون الحياة المتباينة . ولسوف نكتفى فى هذه العجالة بالتعرض لبعض الإسهامات التى اضطلع بها العباقرة فى بعض جوانب الحضارة على النحو التالى :

أولا – فى مجال الصحة : اكتشف وليم هارفى فى القرن السادس عشر الدورة الدموية ، وقد شكل هذا الاكتشاف تقدما ضخما فى الإلمام بالتشريح . وفى عام ١٧٩٦ تغلب جراح إنجليزى هو إدوارد جنر على مرض الجدرى وذلك بتحصين

الناس بمصل مأخوذ من بقرة سبق أن طعمت بجدرى البقر، وهو شكل خفيف من المرض الذى يصيب الماشية .وبفضله قضى على هذا المرض بالعالم تقريبا . وفى عام ١٨٤٧ اكتشف جراح إسكتلندى هو جيمس يونج سمبسون فائدة الكلوروفورم فى التخدير، وبذا فإنه صار أبا للجراحة الحديثة . وكذا فإن الجراح العظيم لستر اكتشف مبدأ المطهرات أو مضادات العفونة التى تمثلت لديه فى حامض الكربوليك . وبعد ذلك قام دافيد بروس وهو من مواليد أستراليا باكتشاف الطفيل الذي يسبب حمى مالطة وقد وجده فى لبن الماعز . وبفضل باتريك مانسون وروناالد روس وغيرهما أمكن التغلب على أمراض المناطق الحارة والتغلب على مرض الملاريا . أما رونتجن فإنه اكتشف أشعة إكس فى عام ١٨٩٥. وبعد هذا بثلاث سنوات استطاعت مدام كورى اكتشاف الراديوم وقد استخلصته من معدن اليورانيوم . وهذه مجرد أمثلة بسيطة للعباقرة الذين ساهموا بعبقريتهم فى مجال الطب .

ثانيا – فى مجال النقل : عندما نذكر العباقرة الذين ساهموا بعبقريتهم فى مجال النقل يخطر على بالنا جورج ستيفنسون الذى قام باختراع المحرك. وقد طبق بصدده مبدأ جيمس وات بصدد الآلة البخارية . وفي عام ١٨٢٥ تم مد أول خط حديدى فيما بين ستوكتون ودار لنجتون ، وكانت سرعة أول قطار هى اثنا عشر ميلا فى الساعة . وفى عام ١٧٨٧ قام وليم سيمنجتون باختراع أول سفينة بخارية. أما رائد صناعة الطرق الحديثة فهو رجل إسكتلندى اسمه جون لودون ماكادام. وهناك رجل إسكتلندى آخر هو كركباترك ماكميلان اخترع الدراجة البخارية ، وظهرت أول دراجة بخارية فى عام ١٨٨٦، وظهرت فى السنة التالية أول سيارة بموتور . وفى عام١٩٠٣ قام الأمريكى أورفيل رايت باختراع أول طائرة . وبعد ذلك بست سنوات قام الفرنسى بليريو بعبور المانش بطائرة من اختراعه ، وأول من عبر الأطلسى ألكوك وبراون فى عام ١٩١٩ .

ثالثا – فيس مجال الاتصالات :كانت أول خطوة عظيمة فى مجال الاتصال هى اختراع التليغراف الكهربى على يد هويتستون فى عام ١٨٣٦ . أما الخطوة التالية المدهشة فقد اضطلع بها العالم الأمريكى أسكيدر جراهام بل الذى قام

باختـراع التليفـون . وفى بداية هذا القرن استطاع ماركونى الإيطالى نقل الموجات الكهربية المغناطيسية عبر الأثير بغير أسلاك . وكانت هذه هى بداية ذيوع التلغراف والتليفـون اللاسلكى ، أعنى الراديو ، وفى الأربعينيات استطاع جون لوجى بيرد الأسكتلندى أن يقدم أعظم هدية إلى البشرية. أعنى التلفزيون وقد أنتج التليفزيون الملون ، ووعد بأننا فى ذات يوم سنرى الصور الملونة عبر التليفون .

رابعا – في مجال الصناعة : بدأت الحرب الكيميائية باختراع البارود على يد روجر بيكون ، وكان هذا الاختراع بمثابة مقدمة لاختراع المسدسات والبنادق والمدافع والقنابل الضخمة . وفي عام ١٧٦٩ قام جيمس وات باختراع أول آلة بخارية، وقد استخدمت فى بادئ الأمر بمناجم الفحم . وفى هذا القرن (القرن العشرين) تم اختراع البلاستيك، وقام الدكتور بايكيلاند بتطويره بحيث لا يصير قابلا للاشتعال . والكثير من التطبيقات التكنولوجية المتدفقة لا تعزى إلى اختراع عبقرى بالذات ، بل تعزى إلى فرقاء من التكنولوجيين العباقرة الذين يعكفون فى مختبراتهم يجرون التجارب بعيدا عن الصخب وتقوم مؤسسات صناعية كبرى برعايتهم .

خامسا – فى مجال صناعة الملابس : فى عام ١٧٦٩ قام ريتشارد أركريت باختراع إطار الغزل ، وبعد ذلك بدأ تشغيل النول الآلى القوى كما بدأت صناعة القطن الضخمة، وبخاصة فى مانشستر . وفى عام ١٨٢٣ اخترع ماكنتوف تقنية لجعل الأقمشة منيعة النفاذ بالماء (ووتربروف) . ولقد استطاع بعض العلماء صنع الصوف من اللبن . فالكازين الموجود باللبن يعالج ببعض المواد الكيميائية ويغزل فى خيوط . وثمة نسيج شبيه بالحرير يسمى رايون قام باختراعه عالم أمريكى هو الدكتور لهنر منذ ما يقرب من خمسين سنة . بيد أن حرير المستقبل سيكون النايلون وقد بدأ تصنيعه للأغراض التجارية منذ عام ١٩٤٠ .

وبعد أن عرضنا لبعض الإسهامات التى قدمها بعض العباقرة في هذه المجالات الخمسة ، نسأل عن العوامل النفسية والاجتماعية التى تحمل العبقرى على المساهمة فى التكنولوجيا . ولعلنا نبدأ بالعوامل النفسية فتحددها فيما يلى :

أولا - إن العبقرى بحكم تكوينه النفسى شديد الحب للكشف عن المجهول من الأمور: فهو إذا تناول شيئا فإنه يأخذ فى تقليبه على أوجهه الكثيرة ، كما أنه يحاول دائما أن يقف على خصائصه التى تميزه عن سواه . ولا شك أن الكشف عن المجهول يعد المرحلة الأولى من مراحل التقدم التكنولوجى . ذلك أن المعرفة تسبق الأداء ، والوقوف على الخصائص المخبوءة يسمح بتوظيف الشىء الذى يكشف النقاب عن خصائصه .

ثانيا - إن العبقرى يتلهف لخلق الجديد: بينما ينبو عن القديم أو العادى أو المألوف، ومن هنا فإنه يدأب على محاولة الإتيان بالجديد . ولا شك أن العبقرى يجد فى التكنولوجيا مجالا فسيحا يبدى فيه إبداعيته . وكلما تسنى للعبقرى التوصل إلى اختراع أو اكتشاف جديد ، فإنه يبدأ فى محاولات جديدة لكى يضيف إلى ما توصل إليه مخترعات ومكتشفات جديدة يضيفها إلى رصيده السابق .

ثالثا -يتسم العبقرى بشدة حساسيته للحاجات والمطالب الاجتماعية التى يحتاج إليها المجتمع ويتطلبها تقدمه . ومن هنا فإنه يستشعر من بعيد تلك الحاجات والمطالب ،ويأخذ فى اختراع أو اكتشاف الأشياء التى تفى بها . وعلى الرغم من أن معظم العباقرة لا يتصفون بالروح الاجتماعية وبمخالطة الناس والاندماج فى أوساطهم أو ارتياد منتدياتهم ، فإنهم يكونون على وعى أكثر ممن يندمجون ويخالطون الآخرين . فلديهم قدرة فائقة على التقاط تلك الحاجات والمطالب من بعيد كما لو أنه قد ركب فى ذهن كل واحد منهم رادار يلتقط به تلك الحاجات والمطالب .

رابعا - يستطيع العبقري استيعاب جميع الخبرات الأساسية السابقة فى المجال الذى يهتم به . ومن هنا يستطيع الاستمرار فى سلسلة بدأت حلقاتها ولكنها لم تكتمل بعد . فهو يحس بأن سلسلة الخبرة فى مجال اهتمامه لابد أن تكتمل ، بل إنه بحسه المستقبلى يستطيع أن يتخيل الحلقات التالية التى يجب أن تتلو آخر حلقة تم التوصل إليها وتحقيقها .

خامسا – لعل أن يكون المبدأ الذى يضعه العبقرى نصب عينيه هو المبدأ الاقتصادى الذى يستهدف الحصول على أكبر قدر ممكن وبأقل تكلفة ممكنة . وعلى هذا فإنه يقوم باستحداث تكنولوجيا جديدة تخفف من الآلام والمتاعب وتزيد من الرفاهية وتوفر الجهد والطاقة .

وبعد أن عرضنا لهذه العوامل النفسية التى تدفع العبقرى إلى المساهمة فى المستحدثات التكنولوجية ، فإننا نتناول مجموعة العوامل الاجتماعية التى تدفع بالعبقرى إلى تلك المساهمة على النحو التالى :

أولا – إن المجتمع المتقدم هو الذى يستطيع أن يفرز العباقرة وأن يهيئ لهم الجو والمجال المناسب لإبداء عبقريتهم . فالموهوب من الأطفال أو الشباب يلقى عناية خاصة بحيث تتاح له فرص النمو الخبرى السريع ، وبحيث تتحدى المدارس والجامعات ذكاءه وعبقريته الأمر الذى يجعله يصل إلى المستوى الذى يستحقه من إحراز العلم والخبرة ، وإنك لتجد المؤسسات العلمية والصناعية تتسابق فيما بينها للاستحواذ على العباقرة. ولعلك تلاحظ أن أمريكا تستقطب العباقرة من البلاد الأخرى وتهيئ لهم أحسن الفرص للابتكار والإبداع فى المجالات التى يختارونها، كما توفر لهم الإمكانيات والظروف المناسبة للعمل .

ثانيا – تهتم المجتمعات المتقدمة بتحقيق التعاون بين العباقرة بحيث يستقل كل واحد منهم بوحدة فى مجال البحث ، وبحيث يتم التعاون أيضا فيما بين الباحثين المتباينين لتحقيق هدف واحد كبير يجمعهم جميعا فى نطاقه .

ثالثا – لا تنكص المجتمعات المتقدمة عن الإفادة بالمخترعات السابقة فى التقدم إلى الأمام . من ذلك مثلا الإفادة من الكومبيوتر الذى تحشد فيه المعلومات فيوفر جهد الباحثين للتفرغ للجديد الذى لم تبلغه البشرية بعد . ومن ذلك أيضا الإفادة من الفنون البيولوجية كهندسة الوراثة وما يمكن أن تفضى إليه النتائج وما يمكن أن توفره من ركائز لبحوث جديدة.

هندسة الوراثة والعبقرية :

كانت الوراثة إلى عهد قريب جدا منطقة محرمة أو مجالا مبهما غامضا لا يستطيع أحد الاقتراب منه والتأثير فيه أو تغيير ملمح واحد من ملامحه . ولقد ظل هذا المجال لغزا من الألغاز التى لا تقبل حتى مجرد التفسير إلى أن قام جريجور

هذا المجال لغزا من الألغاز التي لا تقبل حتى مجرد التفسير إلى أن قام جريجور مندل (١٨٢٢ - ١٨٨٤) بإجراء التجارب على النباتات والحيوانات وخلص إلى أن الوراثة تخضع لقوانين محددة ولا تسير اعتباطا . بيد أن القيام بتفسير الظاهرة شيء ، والتدخل فى مقومات الشيء المدروس شيء آخر .

بيد أن ثورة علمية تكنولوجية جديدة قد اندلعت فى النصف الثانى من هذا القرن عندما بدأ العلماء فى التدخل بالتأثير والتعديل والتغيير فى المقومات الوراثية ذاتها . فلم تعد المسألة مجرد ملاحظة ودراسة للظواهر أو مجرد الكشف عن خبايا الوراثة ، بل تعدت هذا النطاق إلى ما هو أخطر من ذلك بكثير . لقد تدفقت التجارب المتلاحقة التى يتم التأثير بمقتضاها في الكوروموزومات التى تحمل الجينات (الإرثات) . وطبيعى أن تتسع رقعة المعلومات المتعلقة بخصائص الجينات المتباينة ، فعرف تخصص كل إرثة أو كل جينة . وبعد هذه المعرفة المسهبة والدقيقة لخصائص الجينات ، ظهرت تكنولوجيا جديدة فى مجال الوراثة أطلق عليها اسم « هندسة الوراثة » .

والمقصود بهندسة الوراثة التحكم فى الجينات الموجودة بالخلايا ، سواء كان التحكم باستبعاد جينات رديئة ، أم بإضافة جينات جيدة منقولة نقلا من كوروموزومات خلايا أخرى موجودة بكائن حى آخر ، ولقد أمكن الامتداد بهندسة الوراثة إلى أبعاد تدعو إلى الدهشة وتثير العجب . فلقد أمكن تخليق نوعيات جديدة من الثمار تجمع فى مقوماتها خصائص نوعين أو أكثر من الثمار . وكذا أمكن إضافة إرثات نمو إلى بعض الكوروموزومات فصارت الأشياء الصغيرة كبيرة ، ومعنى هذا أن هندسة الوراثة ستفضى إلى نتائج تتعلق بالكم والكيف معا .

ولا شك أن التجارب المعملية تبدأ على النباتات فالحيوانات ثم أخيرًا تخضع الإنسان للتجريب . فهل سيحاول العلماء التخطيط لتخليق إنسان جديد عن طريق التحكم فى إرثات الكروموزومات ؟ إننا نرجح ذلك مستندين إلى الأسباب الآتية :

أولا – فى ضوء ما سبق حدوثه من تجارب على الإنسان وبخاصة أطفال الأنابيب والحفاظ على الأجنة لعدة سنوات بالثلاجات ، فإننا لا نقول بدعا إذا ما زعمنا أن التجارب على الإنسان سوف تستمر وتتزايد وتتعقد .

ثانيا - إننا نعتقد أن هيبة الإنسان وتقديسه ورفع مستواه عن سائر الكائنات الحية قد تزلزلت وآخذة التزلزل أكثر فأكثر وذلك لعدة عوامل من أهمها ظهور نظريات التطور المتباينة والتى وإن دحض بعضها أو عدل ، فإنها كاطار عام للتفسير ما تزال تلقى قبولا فى معظم الأوساط العلمية . ناهيك عن أن الانفجار السكانى من جهة ، وذيوع الآلية الإلكترونية من جهة أخرى بحيث لن تعود هناك حاجة إلى معظم القادرين على العمل، وبالتالى انتشار البطالة أو البطالة المقنعة على نطاق واسع قد أديا إلى التقليل من قيمة الإنسان ، بل قد أديا إلى احتقاره والدعوة إلى التخفيف من قوة الانفجار السكانى بوسائل منع الحمل من جهة ، وإلى إباحة الإجهاض من جهة ثانية ، وإباحة وسائل الموت الرحيم بالنسبة للأمراض المستعصية من جهة ثالثة .

ثالثا - هناك كثير من أصحاب الرأى بدءا بفرانسيس جالتون (١٨٢٢ - ١٩١١) ينادون بضرورة تطبيق وسائل تحسين النسل (EUGENICS) قد أخذوا ينادون بضرورة التدخل فى العوامل الوراثية لهدفين أساسيين : الأول - عدم السماح بولادة ضعاف العقل أو مشوهى الخلقة ، والثانى - إنجاب أجيال مرتفعة الذكاء وصاحبة مواهب فذة .

رابعا - إن المستويات العليا من الحضارة وبخاصة بعد ظهور الكومبيوتر وغيره من وسائل وفرت الكثير من الجهود العقلية والمعلومات المحفوظة تتطلب اليوم ضرورة ظهور طبقة من الناس الأذكياء جدا يتسنى لهم مواصلة التقدم بالآفاق المعرفية إلى مستويات أعلى من مستويات الكومبيوتر . وبتعبير آخر بزوغ الحاجة الملحة للسيطرة على تلك الآلات بحيث لا تظل متفوقة على المستوى العقلى للإنسان الحالى.

خامسا - لابد من نقلة جديدة للبشرية، وقد وصلت إلى قمة الحضارة الحالية بحيث صار من الضرورى الولوج فى باب حضارة تالية أعلى مرتبة من الحضارة الحالية . ولعل الحضارة التالية أن تكون هى حضارة إنسان الكواكب الخارجية بعد أن ظلت حدود حضارته الحالية تقف عند كوكب الأرض فحسب . وإنسان الكواكب

لابد أن يكون نوعية جديدة لا تتأتى إلا عن طريق الهندسة الوراثية وفنونها التى سوف تستمر فى التقدم والتعقيد .

على أن تطبيق فنون هندسة الوراثة بصدد الإنسان بقصد الحصول على نوعية جديدة من الناس هم العباقرة لا يلقى الترحاب المطلق من الجميع ، بل إن أصواتا عالية تدوى محذرة من مغبة تطبيق هندسة الوراثة على الإنسان بداءة، ومحاولة تخليق كائنات إنسانية جديدة عبقرية . وقد استندت تلك الأصوات المعترضة على الحجج التالية :

أولا - إن إخضاع الإنسان لفنون هندسة الوراثة ينزل بمستواه إلى مستوى فئران التجارب . والإنسان كائن مقدس فى نظر كثير من أصحاب الرأى والعقيدة فكيف نعبث بالإنسان ونتدخل فى أخص مقوماته ؟ أليس فى ذلك التدخل هدم أو على الأقل مساس بالقيم الدينية ؟ ألا يعتبر مثل ذلك التعديل فى الإرثات تعديلا لما رسمته العناية الإلهية ؟ لا شك أن الغالبية العظمى من رجال الدين - ينظرون بتوجس شديد إلى جميع التجارب التى تجرى حاليا والتى ستجرى فى المستقبل على الإنسان حتى ولو كان القصد من ورائها الارتفاع بمستواه العقلى، أو تجنب إنجاب كائنات إنسانية ناقصة الذكاء أو شائهة الخلقة أو متخلفة النمو .

ثانيا - لقد ثبت من التدخلات السابقة فى المقومات الطبيعية أنها تفقد خصائصها الطبيعية ، والخوف كل الخوف من أن يؤدى الأخذ بفنون هندسة الوراثة إلى زلزلة « الاتزان الوراثى » بالنسبة للإنسان . ذلك أن الارتفاع الشديد بالذكاء لا يتواكب حتما مع الارتفاع بالجوانب الأخرى من الشخصية الإنسانية ، ومن ثم يحدث التصدع فى القوام الإنسانى ويفقد اتزانه الوراثى .

ثالثا - هناك توزيع هارمونى منسجم ومتوازن بالنسبة لمعدلات الذكاء البشرى . فماذا يكون حال البشرية إذا ما فقد ذلك التوزيع هارمونيته وتوازنه ؟ افترض أنك قلبت الهرم الموجود حاليا والذى تتشكل قاعدته من الناس العاديين ، ثم يأتى الأعلى ذكاء فى الدرج التالى ، ويقع العباقرة - وهم ندرة نادرة تقدر بواحد فى كل مليون شخص - فى قمة الهرم . افترض أنك عكست الآية وجعلت قاعدة الهرم العريضة

تتشكل من عباقرة ، وجعلت فى قمة الهرم متوسطى الذكاء من الناس . ألا يؤدى مثل هذا القلب إلى نتائج نفسية واجتماعية واقتصادية فى غاية الخطورة ؟

رابعا – ثم ما الحاجة النفسية أو الاجتماعية إلى جعل الناس عباقرة أو إلى إنتاج أجيال من الناس عباقرة ؟ ألست ترى أن الغالبية العظمى من العباقرة كانوا أشقياء بعبقريتهم ؟ ألا يعتبر العبقرى شخصية شاذة بحاجة إلى معاملة خاصة شأنه شأن ضعيف العقل ؟ فهل إذا زادت رقعة العباقرة بالمجتمع سيكون هذا لسعادة المجتمع أو لسعادة العباقرة أنفسهم ، أم أنه سيكون من أسباب شقاء المجتمع وشقاء العباقرة فى نفس الوقت ؟

خامسا – من الملاحظ أن العباقرة ينظرون بمنظار منطقى أو قل بمنظار كمى كيفى إلى الأمور . ومن هنا فإنهم يستبعدون فى الأغلب العطف والحنان . ذلك أن المنطق إذا ما تغلب على العاطفة ، فإن الكثير من القيم تذبل ولا يكون لها معنى . فما بالك بالعبقرى الذى يشتعل رأسه بالفكر ؟ إنه إذا ما تسلم مقاليد أى مجتمع فإنه بلا شك سوف يصير طاغية فلا يبقى ولا يذر ، بل إنه سوف يكون شديد القسوة على الضعفاء والأقل منه ذكاء والأضعف منه حيلة. إنه قد يجعل من نفسه إلها أو شيطانا . وفى الحالتين سيرى أنه على طريق الصواب دائما ، فلا يعترف بالديمقراطية وسيلة لإقامة العلاقات الاجتماعية ، لأن الديمقراطية تعترف بالجميع كأصحاب أصوات وكمشاركين فى الرأى ، كما أن العبقرى الحاكم سيكون منكرا للمساواة بين الناس ، بل سيرجح كفة الأذكياء على كفة الأقل ذكاء . ولقد يستخدم ذكاءه الخارق فى الشر . ويكفى أن تتناول قضايا التهريب والاختلاس والتزوير لترى أن المجرمين الأذكياء أخطر بكثير من المجرمين متوسطى الذكاء أو منخفضى الذكاء. فالواقع أن الحياة السوية ، والزواج الناجح ، والأبوة أو الأمومة الصالحة قلما تتماشى مع العبقرية . فمن الصعب أن يكون العبقرى زوجا صالحا أو أن تكون المرأة العبقرية زوجة صالحة . ناهيك عن أن العبقرى يضيق ذرعا بالحياة النمطية والقيام برعاية الأطفال وتحمل مسئولياتهم والنزول إلى مستواهم فى التفكير وفى التصرفات ، ويكفى أن تستعرض حياة حفنة من العباقرة لكى تتأكد من هذه الحقيقة .

وقت الفراغ والعبقرية :

ماذا يعنى وقت الفراغ بالنسبة للعبقرى ؟ إنه يعنى أشياء كثيرة لعل من أهمها ما يأتى :

أولا - أنه يعنى أنه يتخلى خلاله من جميع المشاغل والهموم فيصير وجها لوجه مع نفسه ، ومع الموضوعات أو الموضوع الذى يوجه إليه اهتمامه دون أن تحول حواجز أو عقبات بينه وبين إمكانياته وقدراته وبين تلك الموضوعات التى يتناولها .

ثانيا - أنه يعنى تحرر العبقرى من القيود الاجتماعية بسائر أنواعها . ذلك أن العبقرى شخصية صعبة المراس ، لا يتكيف تمام التكيف مع مقررات المجتمع . تلك المقررات الرتيبة والمتكررة أبدا ، وقد قلنا إن العبقرى شخص عدو لدود لكل قديم وصديق غاية الصداقة مع الجديد الذى لم تطأه قدم من قبل .

ثالثا - أن وقت الفراغ بالنسبة للعبقرى معناه الحرية التامة فى قضاء ذلك الوقت بالطريقة التى يريدها، بغير أن تفرض عليه أى التزامات مهما كانت الطريقة التى يقضيه بها . فالهواء الذى يستنشقه العبقرى هو الحرية بذاتها ، وأعنى هنا الحرية الفردية التى تتخفف أو حتى تتحلل من المؤثرات الاجتماعية . ومن هنا فإن العبقرى لا يصلح لشغل المناصب التى تقيد صاحبها أو التى تلزمه بالقيام بوظائف معينة .

رابعا - أن وقت الفراغ بالنسبة للعبقرى يعنى عدم الالتزام باستثماره على نحو معين، ذلك أن العبقرى كمن يبحث فى الصحراء عن جوهرة معينة مفقودة . فهو يبحث ولكن بحثه لا يضمن له العثور على تلك الجوهرة ، فلقد يقضى العبقرى الأيام والأشهر بل والسنوات بغير أن تتبدى عبقريته فى عمل فذ يشار إليه بالبنان . ولذا فإننا نزعم أن بعض العباقرة عاشوا عمرا طويلا بغير أن تتجلى عبقريتهم فى أى مجال من مجالات الحياة .

خامسا - ووقت الفراغ بالنسبة للعبقرى معناه تهيئة المناخ المناسب لالتقاط اللحظات الإلهامية التى تعتبر لحظات كشف عن مخبوء من المخبوءات العلمية أو

الفنية أو الأدبية . فالعبقرى بهذا المعنى ليس عبقريا طوال الوقت ، بل هو عبقرى خلال اللحظات الإلهامية التى تقدم نفسها إليه، أو تلتمع فى آفاقه فيسارع إلى التقاطها وأسرها وتقديم تصورات ذهنية عنها .

وبعد أن عرضنا لما يعنيه وقت الفراغ بالنسبة للعبقرى ، فإن علينا أن نتساءل عن العقبات التى تقف حائلا بين العبقرى وبين تمتعه بوقت الفراغ . ولعلنا نحدد تلك العقبات فى النقاط التالية :

أولا - أن العبقرى ليس بالضرورة صاحب جاه وسلطان ، بل إن كثيرا من العباقرة كانوا يعانون من شظف العيش ومن قسوة الحياة . ومن هنا فإن التزام العبقرى الفقير بالبحث عن وسائل الرزق ، إنما يكلفه الكثير ، ويكون اشتغاله فى أى عمل يلتزم به ، إنما يعنى فى نفس الوقت إضاعة جانب هام من عبقريته .

ثانيا - ومن المعروف أن الغالبية العظمى من الأعمال بالوظائف المختلفة تتضمن فى جانب كبير منها أعمالا ومهام نمطية ، الأمر الذى يرهق ذهن العبقرى بحيث إذا خلا إلى نفسه بعد انتهاء العمل ، يكون فى حالة عصبية لا تسمح له بصفاء الذهن وخلو البال ، ناهيك عن مشاكل العمل ومسئولياته التى قد تثقل ذهن العبقرى وتضربه بالشلل والجدب والتوقف عن الإبداع .

ثالثا - إن لحظات الإلهام ليست مطواعة للعبقرى ، بل هى تلتمع التماعا وقتما يحلو لها . فلقد تلتمع تلك اللحظات الإلهامية فى أثناء وقت العمل الذى يكون العبقرى مشتغلا فيه بأعمال روتينية ، مما يحول دون استثمارها والتقاطها والإفادة منها .

رابعا - أن وقت الفراغ كما يريده العبقرى هو وقت يمتد خلال الأربع والعشرين ساعة . فهو قد ينهمك فى عمل إبداعى حتى الفجر ، ثم يركن إلى السرير للنوم حتى الظهر . من هنا فإن عبقرية العبقرى لكى تثمر يجب إتاحة الفرصة الكاملة لها . فيعفى العبقرى من أى التزامات بالمواعيد حتى يتسنى له تحقيق الاسترخاء والراحة اللذين يتبعهما التوتر اللازم لتحقيق قفزة عبقرية عظيمة .

خامسا - أن العلاقات الاجتماعية ومن ضمنها العلاقات بالأقرباء والأصدقاء كثيرًا ما تفسد المناخ المناسب لكى تثمر العبقرية ثمارها . فلقد يهبط الضيوف على العبقرى وهو فى عزلته حيث يكون منهمكا فى مسألة أو فى كشف علمى أو فى تصميم اختراع جديد ، فيفسد كل شىء . وقد يؤدى وجود أولئك الضيوف ولو لبعض الوقت القصير إلى تعكير صفو العبقرى وإشاعة الضيق والتبرم وقلب مزاجه رأسا على عقب ، فلا ينتج شيئا مما اعتزم إنتاجه من نتاجات عبقرية.

وبعد أن عرضنا لهذه العقبات الخمس التى تواجه طريق العبقرى فى العادة ، تقدم بعض التوصيات أو المقترحات التى تكفل للعبقرى الإنتاج فى وقت فراغه على النحو التالى :

أولا - يجب على الدولة ممثلة فى وزارة التربية والتعليم أن تكشف عن العبقرية منذ نعومة الأظفار ، وبعد ذلك خلال الأعمار المتباينة ، ثم تعمل على توفير المناخ المناسب للعباقرة (الموهوبين) وهو مناخ الحرية الثقافية لهم . فتحيطهم بمصادر الخبرة العديدة والمتنوعة ، وتتيح لهم الحرية للاختيار من بين متغيرات متباينة؛ ذلك أن مثل هذه الحرية وعدم إخضاع الموهوبين للنظم الجامدة هو من حيث الجوهر توفير وقت فراغ يقوم الموهوب بملئه كما يشاء ، وبالطريقة التى يرغب فيها .

ثانيا - لا يجب الضغط على الموهوبين من الأطفال والمراهقين وإلزامهم بالتعلم إلا بصدد مواد المهارة فقط ، أعنى القراءة والكتابة والحساب والوسائل المتعلقة باستخدام الأدوات والآلات . أما المضمون المعرفى والخبرى - كائنا ما يكون - فيجب إتاحة الفرصة الكاملة أمام الأطفال الموهوبين للانتقاء والدراسة بالطريقة التى يجدونها منسجمة مع مواهبهم وبالسرعة التى تتماشى مع عبقريتهم دون التقيد بجدول زمنى ، وبغير استعمال لأى من الضغوط التربوية التى دأب كثير من المعلمين على التذرع بها فى التعليم كالضرب أو التخويف بأية وسيلة .

ثالثا - عدم إرهاق العبقرى بالأعمال التى تستلزم التقيد بمواعيد أو حتى بالتعليم لعدد من الساعات التى تستنفد طاقاته الإبداعية . ذلك أن الكثير من

أساتذة الجامعات العباقرة قد ضيعوا ما جبلوا عليه من عبقرية بسبب الإرهاق فى إلقاء المحاضرات . وكذا فإن مطالبة العبقرى بالإنتاج الثقافى الكمى أو الزمنى يعتبر عاملا لتضييع العبقرية . فالكاتب الذى يحمل فى ذهنه عبقرية نادرة ولكن الصحافة تلزمه بالكتابة كل يوم إنما يفقد عبقريته بسبب حرمانه من الفراغ المطلوب لاستثمار العبقرية .

رابعا - لابد من توفير العيش المناسب للعبقرى حتى يتفرغ تفرغا تاما لمنجزاته العبقرية . ولكن يجب عدم محاسبة من يسمح له بالتفرغ بتقديم تقارير عن إنجازاته خلال فترة تفرغه من الوظيفة . ذلك أن العبقرية تنبو عن الإلزام ولا تخضع للرقابة ، بل إن الرقابة والمتابعة يعملان على إفساد العبقرية وجعلها جدباء بغير ثمار .

خامسا - يجب عدم رسم خطوط تلتزم بها عبقرية العبقرى ، بل إننا نستطيع أن نجرؤ فنقول إن العبقرية لا تقبل الخضوع للأحكام حتى ولو كانت أحكام كبار الأساتذة . ذلك أن عبقرية العبقرى قد تثمر ثمارا شاذة من المألوف مما يجعلها عرضة للهجوم والاستهجان، وتكون مرفوضة من جانب الأوساط ذات الاختصاص . وهذا هو عين ما حدث بإزاء عبقرية سيد درويش . لقد نعتت موسيقاه لوقته بالإسفاف والخروج عن المألوف . وكذا فإن ديكارت أبا الفلسفة الحديثة قد لاقى هجوما شديدا من جانب أصحاب الاختصاص فى ميدانه لأنه يقدم جديدا لم يسبق أحد إليه ، وقد يستعين بمنهج فكرى جديد تماما، لا يصادف هوى فى عقول وقلوب المعاصرين له ، فيضربونه تارة بالتفاهة ، وتارة ثانية بالجهل ، وتارة ثالثة بالخروج على القواعد المعترف بها من الثقات .

ولكن يجب على العبقرى فى ظل الظروف الفعلية المحيطة به مهما كانت أن يرعى عبقريته ، وذلك باتخاذ مجموعة من الاحتياطات والإجراءات نحدد أهمها فيما يلى :

أولا - الإقلال من العلاقات الاجتماعية كلما أمكن ذلك وعدم السماح لأحد باقتحام خلوته التى يستثمر فيها عبقريته .

ثانيا - البعد عن مصادر الإثارة أو الإزعاج أو الغواية أو اللوم أو إقلاق البال، فكلما بعد العبقرى عن الأشخاص المثيرين ، كانت أمامه فرصة سانحة أوسع لاستثمار عبقريته .

ثالثا - عدم إضاعة الوقت فيما لا يجدى أو فى الرخيص من المعرفة ، والبحث دائما عن الأكثر قيمة حتى بصدد وسائل الترفيه . وعلى العبقرى أن يتجنب إضاعة الوقت فى الكتب غير الدسمة ، بل عليه أن ينكب على ما هو أرفع مستوى من خبراته الحالية . ذلك أن الوقوع فى مصيدة تحصيل الحاصل هو إفساد للمواهب الفذة التى يختص بها العبقرى .

التحديات الحضارية والعبقرية :

وجد الإنسان أول ما وجد فى حضن الطبيعة ، ولكنه أخذ يعمل ذكاءه فى مقوماتها . وكانت نقطة البداية للحضارة البشرية هى أول فأس اخترعه يدق به الأرض ويقطع الأشجار ، كما أن الصناعة بدأت عندما استطاع الإنسان لأول مرة فى االتاريخ أن يشعل النار بإرادته وأن يطفئها أيضا بإرادته . وليس من ريب فى أن شخصا عبقريا من بين مجموع الناس البدائيين هو الذى اخترع الزراعة البدائية ، وأن شخصا عبقريا آخر اخترع الصناعة البدائية خرج من بين صفوف البدائيين .

وسارت القافلة البشرية وهى آخذة فى إحلال البيئة الحضارية محل البيئة الطبيعية ، وهكذا وصل الحال بالإنسان إلى درجة أنه صار بعيدا كل البعد عن أمه الطبيعة ، بينما صار قريبا كل القرب من أم بديلة هى الحضارة الإنسانية.

وليس من شك فى أن الإنسان لا يستطيع أن يرجع إلى حضن أمه الطبيعة بعد أن بعدت به الشقة كل البعد عن حضنها ، وقد ارتمى فى حضن أمه البديلة ، أعنى الحضارة الإنسانية .

وللحضارة الإنسانية أبعاد ثلاثة : ماض يتمثل في التراث الحضارى ، وحاضر يتمثل فى المدنية القائمة ، ومستقبل يتمثل في الحلول المتوقعة ، والتصورات التى يستشرفها العباقرة . على أن العباقرة لا يستشرفون المستقبل الحضارى من فراغ ، بل يستشرفونه بمطالعة تراث الماضى ومدنية الحاضر . ولعل أن تكون هناك

عمليات ديالكتيكية تعتمل فى أذهان العباقرة بين الأبعاد الثلاثة هذه ، وينجم عن تلك العمليات الديالكتيكية نتاجات عبقرية تخرج الحضارة من المآزق التى تجد نفسها بإزائها .

ونستطيع فى الواقع أن نقول أن الحضارة البشرية - وهى كما قلنا صارت الأم البديلة لبنى الإنسان بعد أن فقدوا أمهم الطبيعية إلى الأبد - تتعرض من حين إلى حين آخر لخطر داهم يهددها ، وبالتالى يتهدد أبناءها بالفناء ، فلا تجد ، نقذا لها يخرجها ويخلصها من الخطر الداهم إلا فى فكرة عبقرية تصدر عن شخص عبقرى ، فتجد مسارها من جديد إلى أن تصطدم بمأزق جديد فتناشد لاشعوريا أبناءها علها أن تجد فى واحد منهم عبقريا يسعفها بالحل الناجع . وفيما يلى نعرض بعض الطرق التى وقفت تعترض طريق الحضارة وتهددها بالفناء هى وأبناءها الآدميين على النحو التالى:

أولا - الوحوش المفترسة والطيور الجارحة : فكما أن الإنسان يغتذى بلحوم الحيوانات ، فإن بعض الحيوانات وبعض الطيور تجد فى لحمه طعاما شهيا . وفى حقبة زمنية بعيدة ، أحست البشرية بأنها عرضة للفناء لأن الحيوانات المفترسة على البر وفى البحر والطيور الجارحة فى الهواء تبحث عنه لتلتهمه ، وقد زاد عددها وقويت أجسادها، كما أن حركتها ودهاءها وحيلها تهدد وجوده أينما يكون . هنا وفى هذا الموقف الخطر والمهدد ، انبرى أحد العباقرة المجهولين واخترع السهام التى تطلق من بعيد . فاستطاع الإنسان أن يصوب سهامه نحو الحيوان المفترس وعلى الطير الجارح وهو مختبئ فى كهفه . وجاء عباقرة آخرون فجعلوا السهام مسمومة ، وتتالى العباقرة وكل منهم يطور السلاح أو يخترع سلاحا جديدا حتى اخترع العبقرى روجر بيكون البارود. وتوالت الأسلحة النارية كما قلنا . وبذا تحققت سيطرة الإنسان على الحيوانات المفترسة وعلى الطيور الجارحة بشكل ساحق.

ثانيا - المجاعات : ومن المآزق الحضارية التى واجهت البشرية فى حقب زمانية متباينة الجفاف وما يتبعه من موت النبات والحيوان ، وبالتالى فقدان الإنسان لموارده الغذائية . فماذا صنع العباقرة بإزاء القحط وما يتبعه من مجاعات ؟ اخترع

العباقرة وسائل حفظ النبات واللحوم ، وأيضا حفظ المياه خلف خزانات وأيضا حفر الآبار، ومن المؤكد أن عباقرة الماضى قد تغلبوا على المجاعات بما اخترعوه من وسائل وقائية ومن وسائل علاجية لمجابهة هذا المأزق الخطير .

ثالثا – الأمراض والأوبئة : ومن المآزق التى جابهت البشرية تلك الأمراض المستعصية والأوبئة التى كانت تحصد الناس بالآلاف كل يوم . فما كان من الحضارة إلا أن أخذت تستنجد بالعباقرة من أبنائها ، فسارعوا إلى فنون الطب ينهضون بها ويخترعون العقاقير الناجعة والعقاقير الواقية .

رابعا – البرد القارس والحر اللافح : ومن المآزق التى واجهتها الحضارة الإنسانية ما كان يقع من تغيرات شديدة التباين فى درجات الحراراة . فثمة مناطق كانت حارة فصارت شديدة البرودة ، ومناطق أخرى كانت شديدة البرودة فصارت حارة جدا . فاخترع العباقرة الوسائل الناجعة لتعديل درجات حرارة الجو بحيث يعيش المرء فى جو معتدل بدرجات حرارة ملائمة لوجوده ، بل وباعثة على سعادته وانتعاشه . فاخترعت وسائل التدفئة ووسائل خفض درجة حرارة الجو .

خامسا – تهديد الإنسان لأخيه الإنسان : لقد شكل الأفراد تهديدا بعضهم لبعض فى المجتمع الواحد ، وشكلت المجتمعات تهديدا بعضها لبعض أيضا . فاخترع العباقرة التربية والقانون لترويض الأفراد ، كما اخترعوا المحافل الدولية والمنظمات كمنظمة الأمم المتحدة والمعاهدات الدولية، وذلك بقصد حماية الأفراد بعضهم من بعض ، ثم حماية المجتمعات بعضها من بعض . وعلى الرغم من استمرار العدوان الفردى من بعض الأفراد على أفراد آخرين ، وبالرغم من استمرار الحروب بين بعض الأقطار ، فمما لا شك فيه أن هذه الوسائل التى اخترعها العباقرة من بنى الإنسان قد قللت الجرائم بالمجتمعات المتباينة . كما أنها قلصت الحروب إلى حد بعيد .

وبعد أن عرضنا لأهم المآزق الحضارية التى هددت الحضارة البشرية منذ قيامها بدءا بالقبائل البدائية حتى اليوم ، فإننا نعرض لبعض المآزق الحضارية أو

التحديات التى تجابه بنى الإنسان والتى تستدعى قيام بعض العباقرة باختراع حلول ناجعة لها . والتحديات الحالية هى على النحو التالى :

أولا – الكوارث الطبيعية : من ذلك عدم هطول الأمطار على هضبة الحبشة بالمعدلات الطبيعية ، مما نشر الجفاف وبالتالى المجاعات بالأقطار التى تعتمد على هذه الأمطار . لقد كان السد العالى مانعا حصينا ضد هذه الكارثة بالنسبة لمصر . ولكن هل ستتفتق العقول العبقرية عن وسائل أخرى تضمن عدم الجفاف ؟ إن المطر الصناعى تحقق بالفعل ، ولكن هل سيكون ميسورا على المستوى العالمى ؟ وهل سيتم التوسع فى عمليات تحويل المياه المالحة إلى مياه عذبة ؟ وهل سيتسنى للعباقرة اختراع الوسائل التى توقف تآكل شواطئ البحار وغزو الصحارى للأراضى الزراعية ؟ وهل سيتسنى للعباقرة اختراع الوسائل الكفيلة بإلجام البراكين والزلازل ؟ إن السنوات القليلة القادمة كفيلة بالرد على هذه التساؤلات .

ثانيا – أمراض السرطان وغيره من أمراض مستعصية : من التحديات التى تهدد الإنسان والتى ربما تأتت عن الحضارة ذاتها تلك الأمراض التي ربما ساعد التلوث على انتشارها والامتداد بها . إن العباقرة من علماء الهندسة الوراثية عاكفون الآن على أبحاثهم وتجاربهم لكى يحصنوا الأجنة ضد تلك الأمراض المستعصية اليوم والتى ستكون سهلة العلاج عن طريق هندسة الوراثة فى الغد القريب والقريب جدا . وما دام الإنسان يستطيع توفير التحصين قبل التلقيح أو فى المراحل الأولى من تكوين الجنين ، أو حتى بعد الميلاد مباشرة ، فإن المرء سيكون إذن فى مأمن من الإصابة بتلك الأمراض .

ثالثا – حوادث الطرق وحوادث الطيران والملاحة : ومن التحديات الحضارية أيضا التى يعكف العباقرة من العلماء على مدارستها والخلوص من دراساتهم إلى التخطيط لمخترعات جديدة ناجعة فى حوادث الطرق والطيران والملاحة . إن تطوير وسائل النقل وتطوير الطرق نفسها وتطوير الطائرات والبواخر ومعداتها يشغل بال كثير من الشركات والمؤسسات والحكومات التى تهيمن على تلك الوسائل والتى تحتضن العلماء العباقرة ، وتوفر لهم كل المعدات ووسائل التجريب للتوصل إلى حلول أنجع لتلك المشاكل .

رابعا – مشكلة الغذاء علي المستوي العالمي : إن هذه المشكلة تهدد البشرية بالفعل . فثمة نذر خطيرة تشير إلى أن العالم مقبل على مجاعة محققة إذا لم

يسارع العباقرة بالنجدة بما سوف يخترعونه من وسائل . ثمة الهندسة الوراثية وما يمكن أن تفضى إليه من مضاعفة أحجام الثمار وكميات المحاصيل الزراعية ، وثمة أيضا محاولات فى هذا المضمار لاستنباط وتخليق محاصيل وثمار جديدة مختلفة المذاق، وثمة أفكار حول تجارب زراعية على سطح بعض الكواكب الأخرى ، وثمة تجارب لزراعة قيعان المحيطات والصحارى بعد تطوير جينات بعض المحاصيل الزراعية ، إلى غير ذلك من أفكار وتجارب يضطلع بها العباقرة كل فى مجال تخصصه .

خامسا – مشكلات التعليم والتربية : وهذه المشكلة أيضاً ترتبط بالهندسة الوراثية من حيث وضع مواصفات معينة للمرء قبل ميلاده . وهناك تساؤلات حول إمكان تشريب الإنسان ببعض الخبرات عن طريق التأثير المباشر فى المخ . لقد أجريت تجارب من هذا القبيل على الفئران وأشارت إلى نتائج إيجابية . فهل سيتسنى ذلك للإنسان ؟ وهل سوف يتلاحم الطب مع التربية فى تشكيل شخصية وأخلاق المرء ؟ إن عبقرية العباقرة سوف تجيب عن هذا التساؤل .



الفصل السادس

كيف نحافظ على العباقرة من الجنون ؟

الكشف المبكر عن العبقرية:

لعلنا نستطيع أن نلاحظ من الأمثلة التى سقناها فى الفصل الرابع ، وأيضا الأمثلة الأخرى التى سقناها فى سياق هذا الكتاب فى الفصول الأخرى، أن العباقرة كانوا في الغالب يشقون طريقهم فى الحياة بجهودهم الخاصة وبالاعتماد على إصرارهم وعنادهم فى سبيل الوصول إلى إثبات وجودهم وإخراج ما لديهم من عبقرية كامنة إلى حيز الوجود الاجتماعى الواقعى . لقد اعتقد بعض علماء النفس أن الصراع بين العبقرى ومجتمعه فى سبيل تحقيق عبقريته والبرهنة عليها يعد شرطا فى حد ذاته لخلق العبقرية . وكأن العبقرية هى نتيجة للخلاف بين العبقرى وبين من حوله من أشخاص مسئولين عنه .

ولكننا نختلف مع هؤلاء فيما ذهبوا إليه ، ونعتقد أن العبقرية ليست جنونا فى حد ذاتها ، وإنما المسألة ببساطة تتلخص فى أن الطفل الموهوب شأنه شأن أى طفل آخر معرض للإصابة بالأمراض النفسية والعقلية إذا ما أحيط بالجو الاجتماعى الذى لا يماشى اهتماماته ، والذى يتعارض مع سعادته، ويقف حائلا دون استمرار صحته النفسية والعقلية على خير وجه .

ومن ثم فإننا لا نرى أى تعارض بين أن يكون الشخص عبقريا فذا، وبين أن يكون على جانب كبير من الصحة النفسية السوية . بيد أننا لا نجعل من العبقرية حصنا يحمى العبقرى من الشذوذ أو الانحرافات النفسية أو الأخلاقية . ذلك أن العبقرية تتصل بالجوانب المنطقية والقدرة على التعبير بدقة متناهية . وإذا كان

العباقرة الذين عانوا من ظروف اجتماعية غير سعيدة يعبرون عن عبقريتهم بالكلمة أو الصورة أو النغمة عن تلك الظروف ، فمما لا شك فيه أيضًا أن العبقرى السليم النفس والسعيد فى حياته يستطيع بدوره أن يقدم لنا صورة عبقرية للجوانب الإيجابية من الحياة . فليست العبقرية مركزة فى الجوانب السلبية من الحياة وحدها كالفقر والمرض والظلم والجوع ، بل هى أيضًا تنصب على الجوانب الإيجابية كالغنى والصحة والعدالة والشبع .

وأكثر من هذا فإن العبقرى الصحيح النفس يستطيع أن يتخيل صورة الحياة السلبية مصورًا لها كأحسن ما يكون التصوير بغير أن يكون هو نفسه قد عانى من تلك الجوانب السلبية والقاتمة . فالإنسان يستطيع أن ينقل ما يراه في الآخرين متقمصا ما يقع عليه بصره وما يصل إلى سمعه وكأنه قد عانى بالفعل تلك الحالات وخبرها بنفسه .

لقد ذكرنا أن لويس ماديسون ترمان قد بدأ دراساته الهامة حول الأطفال النابهين فى عام ١٩٢١ واستمر فيها حتى انتهى إلى نتائج هامة ، أهمها أنه إذا ما وضع الطفل الموهوب فى المكان المناسب له وقدمت إليه مجموعة من الاختبارات النفسية والطبية وكتبت عنه التقارير التتبعية من فترة إلى أخرى ، يتضح أنه ينهج نهجا طيبا فى حياته ؛ وأنه يبز أقرانه ويحقق ما ألقى على كاهله من مسئوليات بطريقة فذة .

ولكن ترمان يدعو إلى وضع برنامج خاص لرعاية الموهوبين ، وذلك حتى يتسنى الكشف عن الاستعدادات الخاصة الكامنة فى وقت مبكر ، وبالتالى يمكن رعايتها وتشجيع ظهورها واستثمارها . ففى المناخ المناسب للموهبة الفذة يتسنى توفير أفضل فرص ممكنة بحيث يتسنى الإفادة من العبقرية وعدم اصطدامها بروتين الحياة الذى يبعث على الملل والاكتئاب فى نفس العبقرى [(١)] .

ولعل المبدأ التربوى الذى وضعه ترمان نصب عينيه هو أنه كلما كان الطفل أكثر اهتماما بالموضوع بشكل مسبق ، فإنه يكون أكثر انتباها وتركيزا فيه . ولذا

---

(١) ENCYCLOPEDIA Americana, New York, 1965, Vol, 12. P. 401 .

ينصح علماء النفس والتربية بضرورة توجيه الطفل الموهوب على نحو يسمح بربط كل خبرة جديدة بشيء مما سبق اكتسابه قبلا ، ومن ثم إمكان إيقاظ حب استطلاع الطفل . وبتعبير آخر فإن الشيء الجديد يبدو كما لو أنه إجابة أو جزء من إجابة سؤال يعتمل بالفعل فى عقلية الطفل الموهوب [1] .

ونستطيع القول بأن العبقرى فى طفولته يكون إنسانا سويا فى الغالب ولكن إهماله وعدم اكتشاف مواهبه الفذة فى وقت مبكر هو ما يعمل على تعقيد نفسيته . يقول كروكشانك فى هذا الصدد : « فالطفل الموهوب طفل مرح تستشعر السعادة وأنت قريب منه ، كما أنك تجد المتعة فى مراقبة حركاته وفى الاستماع إلى أسئلته وملاحظة لمعان فكره وحصافته فى التعامل والتصرف . على أن الأطفال الموهوبين شأنهم شأن غيرهم من أطفال قد يصيرون نكبة على أنفسهم وعلى ذويهم إذا ما أسىء توجيههم ولم يتفهم القائمون على أمرهم مراميهم . ولكن الموهوبين فى الأحوال العادية وفى ظل التوجيه السليم يستجيبون الاستجابات السليمة السوية ويبدون ما يبديه غيرهم من أطفال عاديين من صداقة وألفة وود . ومن الملاحظ أن هؤلاء الأطفال الموهوبين يتحدثون عن اهتماماتهم وميولهم ومناشطهم ومطامحهم بكثرة وعلى مستوى الكبار . وأكثر من هذا فإنهم قد ينصتون إلى المدرسين وإلى آبائهم وأمهاتهم بحماس عندما يقومون بمناقشة أمورهم الخاصة إذا ما تحروا الصدق فيما يقولونه والتزموا الجد فى أحاديثهم . ومن العجيب أن الأطفال الموهوبين يكونون فى هذا الحال ناضجين بدرجة تسترعى الانتباه وتثير العجب . فهم يتعلقون بمن يستحقون التقدير من الكبار ويكافئونهم بالإصغاء إليهم وفهم مراميهم واهتماماتهم . وإذا كان المدرسون والآباء والأمهات غير مخلصين وغير صرحاء معهم . فإنهم سرعان ما يقفون على ما فى صدورهم من عدم الإخلاص بالرغم من عدم تعبيرهم عن ذلك فى غالبية الأحيان . فالطفل الموهوب يقوم بعملية تقويم مستمرة لمن يحيطون به من كبار . وكلما أخذ ذلك الطفل فى النمو

(١) JAMES, W., Psychology, A Fawcett Premier Book, 1966 . P. 207 .

زادت قدرته على الاضطلاع بالتقدير الدقيق للناس وبالتفكير النقدى للموقف . وهو عندما يتقبل رأيا أو عندما يقدر شخصًا، فإنه يتقبله ويقدره بغبطة وارتياح [١] » .

ونستطيع القول أن اكتشاف الموهبة الفذة فى وقت مبكر ضمان للمبادرة باكتشاف الصلاحية للتفاعل مع مثيرات معينة ، وبالتالى تمكين الطفل من تحصيل أكبر قدر من الخبرات فى أقل وقت ممكن وبأقل مجهود ممكن ، وإعطاؤه الفرصة السانحة للانتقاء من بين الخبرات الكثيرة التى نوفرها له فى المواقف التعليمية .

وإذا كان الطفل المعوق عقليا يعانى نفسيا وعقليا من الخبرات المقدمة إليه بسبب ارتفاع مستواها عن قدراته الحقيقية ، فإن الطفل الموهوب يعانى بدوره نفسيا وعقليا، إذا ما قدمنا إليه خبرات يحس أنها أقل من مستواه بكثير . ذلك أن الطفل الموهوب يجب أن يضطلع هو باكتشاف الخبرات بنفسه والوقوف على مصادر الخبرة بغير تدخل ممض من جانب الكبار .

بيد أن المسألة ليست مسألة نوعية الخبرات المقدمة ، فلابد من مناسبتها وجاذبيتها نفسيا للطفل الموهوب ، وبحيث نغلف نحن الكبار حياته بالحنان والحدب. يقول كروكشانك فى هذا الصدد « ولكن لابد أن نضع فى اعتبارنا أولا وقبل كل شىء أن الأطفال الموهوبين أطفال قبل كل شىء آخر . فهم إذن فى حاجة إلى حب الآخرين لهم وحدبهم عليهم وإلى حمايتهم ومرافقتهم وإبداء الرضا لهم، كما أنهم فى حاجة إلى توافر الباعث الذى يدفعهم إلى العمل وإلى اعتوار بعض الصعاب لطريقهم بحيث تتحدى أذهانهم ، وإلى فرص يمتحنون فى ضوئها قوتهم ويعبرون من خلالها عن أفكارهم ومشاعرهم ، كما أنهم يحتاجون إلى توجيه وتقدير ، وإلى كل العوامل التى تدفع إلى نموهم بنجاح كسائر الأطفال . والواقع أن الوالدين اللذين يتمكنان من توفير جو عائلى سليم لأطفالهم يقفان فى الغالب على تلك الشروط اللازمة لنمو الطفل الموهوب على نحو مرض . وكذلك إذا تهيأت الفرصة للصغار الذين لهم مشارب واحدة وقدرات واحدة واهتمامات وأمزجة واحدة للاتصال بعضهم ببعض ، فإنهم يكونون سعداء نشيطين ومتكيفين بوجه عام [٢] » .

---

(١) تربية الموهوب والمتخلف – كروكشانك – ترجمة يوسف ميخائيل أسعد وتقديم الدكتور محمد خليفة بركات – مكتبة الأنجلو المصرية – ١٩٧١ – ص ٤٧ – ٤٨ .

(٢) نفس المرجع – ص ٤٨ .

والواقع أن مشكلة الطفل الموهوب - وهى المشكلة التى عانى منها معظم العباقرة - هى أنهم ينخرطون فى ركب الأطفال العاديين بالمدرسة ، ولا يحاول المدرسون توفير تربية تناسبهم ، ولا يحاولون مدهم بالخبرات الغزيرة . ومن ثم فإنهم يحسون بالاحتقار الشديد لمن حولهم ، بل وقد يمتد هذا الاحتقار نفسه إلى المدرسة والمدرسين ، فيهجرون المدرسة أو يهربون منها ، أو يبدأون فى انتهاج سلوك أخلاقى واجتماعى غير سليم . ولقد ينتهى الأمر إلى الإصابة بالأمراض النفسية أو العقلية أو العصبية كنتيجة حتمية لما يعانونه من أزمات نفسية بسبب عدم تحدى ذكائهم ، وإحساسهم بأن الحياة من حولهم رتيبة ممضة . يقول كروكشانك فى هذا المعنى : « ولكن حالما تتسع دائرة الطفل الموهوب وتتعقد الاتصالات الاجتماعية به بتعقد المجتمعات التى يتصل بها ، فإن مدى قدرته على الوقوف على أتراب له فى القدرة العقلية يصبح مشكلة على جانب من الصعوبة؛ وذلك لأن أنشطة الآخرين من الأطفال تبدو على نحو لا يرضيه ، كما أنها لا تكون على نفس مستواه العقلى ، الأمر الذى لا يعمل على إشباعه واجتلاب الرضا إلى نفسه .

ومما يزيد المشكلة تعقيدا أن المدرسة لا تأخذ فى اعتبارها عند تقرير مناهجها إلا الطفل المتوسط أو فوق المتوسط بقليل . أما الطفل الموهوب فإنه لا يخطر على بال واضعى مناهج المدرسة العادية . إذن فليس من المستغرب أن نشاهد بعض الاضطرابات فى طريقة توافق الطفل الموهوب للحياة المدرسية التى تحيط به وعدم أكتراثه بشكل واضح بما يشيع بها من مناشط . وبالتالى فإننا نجد أن الطفل الموهوب مجلبة للتعب فى كثير من الأحيان .لا لأنه شخص متعب فى حد ذاته ، بل لأن القائمين على أمره لم يهيئوا له الظروف المناسبة لإشباع حاجاته العقلية، ولم يخططوا له برنامجا مناسبًا لكفاياته . والواجب أن تؤخذ الفروق الفردية بين القدرات العقلية فى الاعتبار شأنها شأن الفروق الجسمية أو غيرها من فروق » .

« ومن جهة أخرى فإن المجتمع فى حاجة دائمة إلى رعاية أصحاب المواهب الذين سوف يصبحون زعماء وروادًا في المستقبل . فإذا لم نقم برعاية تلك المواهب العقلية الفذة خير رعاية ونهيئ الجو المناسب لظهورها وتبلورها ، فإن الخسارة سوف تقع إذن على كاهل المجتمع نفسه ، وبالتالى تضيع فرصة ارتفاع مستوى الأمة

فى الأجيال القادمة وهو ما يجب أن نسعى إليه فى تربية الجيل الجديد . فليست التربية الحقيقة بالتقدير هى تلك التربية التى تأخذ فى اعتبارها الجيل الناشئ فقط ، بل إنها أيضًا التربية التى تتطلع إلى المستقبل البعيد حيث تقبع الإنسانية فى الأجيال القادمة . على أن التربية المناسبة للموهوبين لا تتأتى بالصدفة ، بل إن تلك التربية لا تقوم إلا على دعائم متينة من التخطيط الدقيق المستنير . إذن فليست تربية الموهوبين من أجل الموهوبين أنفسهم فحسب ، بل لأجل الأجيال المقبلة فى نفس الوقت [1] » .

ونستطيع فى الواقع القول أنه إذا كانت التربية العادية للأطفال العاديين تهتم أكثر ما تهتم بصياغة سلوك الطفل وفق قالب معد من قبل ، فإن تربية الطفل الموهوب يجب أن تسمح له بأن يكتشف نفسه بنفسه ، وأن تسمح له بأن يلعب دورا إيجابيا فعالا في تربية نفسه . ولسنا نبالغ إذا قلنا أن التلقائية يجب أن تجد لها مكانا فى تربية وتنشئة الطفل الموهوب . ذلك أن كثيرا من المناشط التى تبدو عبثا من العبث فى نظر الكبار والتى يبذل فيها العبقرى جل اهتماماته ، إنما تصل به إلى شق طريق جديدة لم يسبقه أحد إليها من قبل . نعم إن الطفل الموهوب لا يستطيع أن يقدم عملا علميا أو عقليا ناضجا فى مستوى أعمال الكبار. ولكن العمل العبقرى لا يتأتى إلا بالتدرج والنمو ولا يحدث طفرة بين ليلة وضحاها . لابد إذن من إعطاء الطفل الموهوب فرصة للعثور على نفسه ، وأن تكفل له أوقات طويلة للتأمل ولما يبدو أنه لا طائل فيه . وذلك كأحلام اليقظة وانتهاج طرائق جديدة فى التعبير أو فى التنظيم ، والتفرد بأشياء خارجة عن نطاق الروتين العام السائد .

وإنك لتلاحظ أن الطفل الموهوب لا يحب أن ينصب فى قوالب سلوكية صارمة. إنه يريد أن يجدد فى أنماط سلوكه ، بل وفى لغة حديثه . إنه سريع التبرم بما صار مألوفا ومما يشيع على الأقلام . وأكثر من هذا فقد يعمد الطفل الموهوب إلى ابتكار الكلمات للتعبير بها عن أفكار معينة . يقول كروكشانك « ويعبر حب الاستطلاع لدى المتفوقين عن رغبة أكيدة للعلم وعن أساس للبحث والإبداع . ويرسم هؤلاء الأطفال الخطط ويبتكرون ويجربون الأشياء ويمتد ابتكارهم إلى كل من العمل المدرسى والملعب ويميلون إلى إعادة تنظيم بيئتهم وفق صيغ جديدة وذلك عن طريق

---

(١) نفس المرجع – ص ٤٨– ٤٩ .

الصور والرسم والألعاب، وهم يجددون فى تخيل أنماط جديدة من الحياة التى يودون لو هيئت لهم وعاشوا كما أنهم فى بعض الأحوال يعيدون تنظيم التاريخ فى تمثيليات تلقائية ويلعبون دورًا فيما يرسمونه من أخيلة ويحيكون الأحاديث والقصص والأشعار . أما مخيلتهم فإنها تقودهم إلى عملية البناء وإلى الاختراع وإلى إجراء التجارب على الأشياء التى تعتبر جديدة عليهم وهم كذلك يتخطون حدود المواد والطرائق كما يتخطون مستوى أعمارهم وحدود خبراتهم ويسبحون بأخيلتهم فيما يتناسب مع أهدافهم البعيدة . ويتمكن كثير من الأطفال النابهين من التعبير عما يساورهم من أخيلة فى نثر أو شعر أو زجل وقصص أو غير ذلك »[1] .

والواقع أن مسئولية الوالدين فى اكتشاف الابن أو البنت الموهوبة فى وقت مبكر لمن أهم العوامل فى حسن توجيهه وحمايته من الانحرافات النفسية والاجتماعية . فلا شك أن هذا الاكتشاف المبكر سوف يسمح للوالدين بتوفير المناخ المناسب لذلك الطفل ، ومده بمصادر الخبرة . وبالكتب والمجلات التى توسع مداركه وتشبع نهمه . ولكن هذا لا يكون بفرض شىء على الطفل الموهوب كما كان يفعل جيمس مل مع ابنه جون ستيوارت مل . فلقد كره جون أباه وكان يفكر فى الانتحار لأن والده كان يجبره على استظهار ودراسة أشياء بعينها ، بغير أن يسمح له باستكشاف الخبرات بنفسه وبغير أن يمنحه الحرية فى العثور على نفسه الحقيقية. لقد يظن والد الطفل الموهوب أو والدته أن واجبه بإزائه هو حشد ذاكرته بالمعلومات التى يريان أنها مفيدة له فى الحاضر والمستقبل ، مع أن هذا الحشد الشديد للمعلومات فى الذاكرة قد يشكل عائقا أمام الموهوب للوقوف على كنه فكره الحقيقى، وبالتالى فإنه يفوت عليه الفرصة لإعمال ذكائه فى الموضوعات التى يعرض لها .

وإذا كانت مسئولية الأسرة كبيرة فى الكشف المبكر عن الموهبة الفذة ، فإن المدرسة بدورها مسئولة عن الاستمرار فى تقديم الخبرات وتوفير فرص الوقوف عليها لجميع الأطفال بعامة ، وإلى الموهوبين منهم خاصة. ذلك أن المبدأ التربوى الحقيق بالاتباع هو الاستمرار بكل طفل فى نموه إلى أقصى درجة تسمح بها

---

(١) نفس المرجع – ص ٥٨ .

إمكانياته واستعداداته دون ما عوائق ودون تكبيله بالواجبات الكثيرة التى تشغل وقته وتلهيه عن اكتشاف ذاتيته أو دون الوقوف على المجالات الجديدة التى يستطيع ارتيادها وسبر أغوارها .

مراعاة الفروق الفردية في تربية الموهوب :

من المعروف أن التربية الحديثة تتجه إلى تحقيق فردية كل تلميذ بأكبر قدر ممكن ، وذلك بعد أن أجلى علم النفس عن أن كل فرد من أفراد البشر يختلف عن غيره من أفراد إلى مدى بعيد أو مدى قريب . وإذا كان هذا يصح بالنسبة للأفراد العاديين ، فإنه يصح بالأولى وبالدرجة الأولى بالنسبة للخارجين عن نطاق السوية ، سواء أولئك الواقعون فى نطاق الضعف العقلى أم أولئك الواقعون فى نطاق العبقرية والنباهة الزائدة عن الحد .

فالواقع أن العباقرة يختلفون الواحد عن الآخر لدرجة أن الواحد منهم يشكل مجموعة قائمة بذاتها تتكون منه وحده دون غيره من أفراد عاديين أو حتى من أفراد عباقرة . المهم أن الواحد من العباقرة ينفرد فى خواصه بحيث يكون بحاجة بالتالى إلى تفرد فى الموضوعات التى تتشكل منها تربيته ، بل وإلى تفرد من حيث الطرائق التربوية التى تتبع معه . وطبيعى أن عدم مراعاة هذا التفرد مراعاة دقيقة ووضع العبقرى فى زمرة غيره من أطفال وإجباره على أن يتلقى من العلم ما يتلقونه واتباع نفس الطرائق التى يتبعها غيره للتحصيل المعرفى ، إنما يضربه باليأس الشديد ويجعل منه شخصية مريضة نفسيا أو عقليا أو سلوكيا . ولعلنا نعود فنؤكد من جديد أن الغالبية العظمى من الأمراض النفسية والعقلية التى يعانى منها العباقرة إنما هى نتاج لازب لذلك التصادم فيما بين مزاج العبقرى ومواهبه ، وبين المعلومات التى أصر الكبار على تقديمها إليه وإجباره على دراستها بغير نظر إلى حالته ومواهبه .

ومن الواجب أن نفسح المجالات المعرفية أمام العبقرى الصغير حتى يستطيع أن يشبع نهمه ، وحتى لا تظل لديه طاقة نفسية وعقلية غير مستثمرة . ذلك أنالموهوب عندما يجد لديه طاقات عقلية ونفسية مختزنة لا سبيل إلى استثمارها، فإنه ما يلبث أن يخرج تلك الطاقات من منافذ أخرى جديدة بعيدة عن السوية مما يمكن وصفه بأنه يقع فى نطاق الأمراض النفسية أو العقلية، أو مما يمكن وصفه

بأنه خروج على الأصول الأخلاقية أو القانون ، أو على الأقل مما يمكن وصفه بأنه شذوذ عن المألوف مما لا يوافق عليه المجتمع .

وإذا لم يراع المربون تخصيب المناهج ، فإن الطفل الموهوب سرعان ما يجد أنه قد تبرم بالمدرسة وما يحتشد فيها من مناهج ، وقد يصل به اليأس إلى درجة أن يهرب من المدرسة ، أو لا يقوم بأداء ما يناط به من واجبات مدرسية ، ومن ثم فإنه يعد من التلاميذ المتخلفين دراسيا ، مع أن الواقع أن المدرسة هى التى تكون قد فشلت فى تربية ذلك الطفل بما تريد حمله عليه من سير وفق المناهج الضحلة التى لا تجابه إمكانياته واستعداداته الخصبة المتنوعة .

يقول كروكشانك فى هذا الصدد « الواقع أن الأطفال الموهوبين بحاجة إلى منهج دراسى خصيب متنوع لأن لديهم اهتمامات وميولا عديدة، كما أن لديهم مستوى عاليا من القدرات وحبا جما للاطلاع ورغبة لا تشبع فى اكتساب المعرفة. ويبدى الأطفال النابهون منذ نعومة أظفارهم ميلا إلى الوقوف على التفاصيل فيما يحيط بهم من الأشياء ، كما أنهم يمطرون الكبار ممن يحيطون بهم بوابل من الأسئلة فيما يعن لهم من استفسارات. ويجيد الأطفال النابهون صياغة الأسئلة وتزداد محبتهم وميلهم إلى الاستفسار كلما شبوا عن الطوق كما تعتمل لديهم خلال الطفولة رغبة ملحة فى أن يعرفوا كل ما يمكن معرفته عن الناس والحيوانات والأشياء ... ».

« وحالما يجتذب واحد من المشروعات انتباه الأطفال الموهوبين ، فإنهم يبرهنون فيه على أصالة فى التفكير والتخطيط ، كما يبرهنون على مواظبتهم عليه وإلحاحهم فى تنفيذه ، ويستطيع هؤلاء الأطفال عمل التعميمات الدقيقة بما اكتسبوه من خبرة، وذلك بفضل ما يحظون به من السرعة فى مشاهدة العلاقات بين الأشياء. وهم يقفون على فردانية الشيء وعلى الحالات المستثناة ويصممون غالبا على تناول ما يكتشفونه بالاختبار والتجريب حتى يتأكدوا من متانة ما يرون أو ما يسمعون . ولكن أصالتهم وإبداعهم لا يقتصران على القراءة والكتابة . فالكتابة والقراءة وحدهما لا يعبران عن العبقرية . فهناك كثير من الأطفال النابهين لا

يتفوقون على المتوسطين كثيرا فيما يتعلق بالتعبير عن أفكارهم ومشاعرهم بالرموز المكتوبة أو المرسومة . أما تفوق الموهوبين فإنه يتجلى أكثر ما يتجلى فى مجال الأفكار والقدرة على تنفيذ تلك الأفكار [1] »

والمهم بالنسبة للمربى الذى يتصدى لرعاية الموهوبين الذين يرجى لهم أن يصيروا عباقرة بعد أن يشبوا عن الطوق ، هو أن يفسح المجالات المعرفية أمامهم . ذلك بأن يوفر حولهم المثيرات المعرفية الخصبة والمتجددة ، ويترك لكل واحد منهم أن يتخير من بينها ما يتلاءم وحالته المزاجية واستعداداته . والواقع أن المربى هنا أشبه ما يكون بالكيميائى الذى يعالج مادة نادرة . إنه يجرب معها الوسائل المتعددة حتى يقف على ما يمكن أن يتفاعل معها من مواد ، وما لا يتفاعل ، ولعله يختلف عن الكيميائى فى أن عملية الاختبار لا تحدث فى كل مرة كالمرات السابقة . ذلك أن الطفل الموهوب سرعان ما يسأم الكتاب الذى اطلع عليه ، ويرغب فى الانطلاق إلى كتب أخرى . وإنك لتجده يتقلب على التجارب المختلفة ، ولا يكاد ينتهى من تجربة حتى يبدأ فى تجربة جديدة مغايرة لما سبق أن أجراه .

بيد أن المربى الحصيف لا يقف من العبقرى موقف المتفرج ، بل إنه يشرف عليه ويوجهه إلى نقاط الضعف فى تمرنه . فلقد يوجه انتباهه إلى ما بكتابته من أخطاء إملائية نتيجة السرعة فى الكتابة ، أو قد ينبهه إلى مراعاة النظام فى الكتابة ، وإلى أن يدرب نفسه على تسجيل مراحل المسألة الحسابية ، ولا يكتفى بالقفز إلى النتيجة النهائية بعد أن يكون قد أجرى المراحل الجزئية فى ذهنه . ولكن يجب أيضًا أن يراعى المربى حالة العبقرى المزاجية ، فلا يلحف عليه بالأوامر والنواهى حتى لا يعلن شق عصا الطاعة عليه ، وحتى لا يبتئس فى تلقى المعرفة . والواقع أن شمول كل طفل بالحب بحيث يحس بأن مدرسه يرعاه لمصلحته ، وأنه حريص على استمرار نموه ، لمن أهم العوامل فى سهولة قيادة الطفل العبقرى ، وعدم خروجه على رغبات وأوامر معلمه .

---

(١) المرجع السابق ص ٥٨ - ٥٩ .

ولكى يتمكن مدرس العبقرى من رعايته الرعاية السديدة ، يجب عليه أن يرفع يده عنه بحيث يسارع إلى فطامه معرفيا فى أول فرصة ممكنة . ذلك أن العبقرى يرغب فى أن يشق طريقه بنفسه ، ولا يحب أن يلقن المعرفة تلقينا ، بل إنه يحب أيضا أن يحصل المعرفة بطريقة خاصة يخطها لنفسه وبنفسه . ذلك أن ابتكار العبقرى لا يقف عند حد اختيار المعلومات والمهارات التى يكتسبها ، وأكثر ما يبغضه العبقرى هو أن تفرض عليه المادة المعرفية ، أو أن تفرض عليه الطريقة التى يحصل بها تلك المادة . ولعل هذا هو السبب الرئيسى فى أن كثيرا من العباقرة لا يبزون المتوسطين فى تحصيل المناهج الدراسية ، بل لعل هذا هو السبب فى فشل الكثير منهم فى متابعة المناهج الدراسية إلى النهاية وتركهم الدراسة المنظمة قبل إتمامها ، وقبل الإفادة منها ، ثم هم يرسمون لأنفسهم ما يدرسون والطريقة التى يدرسون بها، وقد يكون هذا هو ما حدث للعقاد . إنه لم يتم دراسته ولكنه رسم لنفسه وبنفسه ما يدرس ، ثم رسم الطريقة التى يدرس بها، ثم عكف على تحقيق ذاتيته فى المواد التى درسها وفى الطريقة التى كان يحصل بها . ثم حقق تلك الذاتية بأكثر تأكيدا فى هضم ما درسه ، ومن ثم صياغته بالطريقة الفريدة التى ألف بها كتبه ومقالاته . وما يقال عن العقاد يصدق بالطبع على تيمور . فهو أيضا لم يتم تعليمه ، ولكنه رسم لنفسه الطريق وشقه بنفسه .

وطبيعى أن تتمكن التربية النظامية من تحقيق هذا العنصر التلقائى للعباقرة من استمرار مساعدتها لهم . ولكن بالأسف ثمة كثير من المدرسين يبغضون الدراسة للموهوبين ، ويغزفون بهم عن الاستمرار فيها ، وذلك بفرض القيود الفكرية عليهم وعدم إعطائهم الفرصة الكافية للصياغة الجديدة لما حصلوه . فالموهوب لا يرغب فى أن يتلقى العلم كما ورد بأحد الكتب ، بل يرغب فى تحصيل الموضوع الواحد من عدة مصادر ، وأن يتناوله بالطريقة التى يراها أكثر جذبا له . وأخشي ما يخشاه العبقرى أن يلزم بسرد ما يدرسه كما ورد بالكتاب المقرر . إنه يرغب أن يلتهم عدة كتب ، وألا يقف له المدرسون بالمرصاد بحاسبونه على النقط التى وردت بالموضوع الفلانى. إنه يرغب فى أن يتفاعل مع الموضوع ، ولتكن نتيجة التفاعل ما تكون بغير أن يرصد له الكبار من القيود ما يحول دون تحركه الفكرى ودون الامتداد إلى آفاق

جديدة . لقد يجد العبقرى من المدرسين من يقول له « إنك لم تهضم بعد ما ورد بالكتاب المقرر ، فلماذا تطلب كتابا جديدا تقرؤه . يجب عليك أن تستذكر الكتاب المدرسى المقرر أولا وبعد ذلك الجأ إلى الكتاب الخارجى للاطلاع عليه وكيف تبدأ فى سلسلة من التجارب الجديدة مع أنك لم تتقن بعد التجارب المقررة عليك بالمنهج ؟ » لا شك أن كل تلك المعوقات التى تقف فى طريق الطفل الموهوب مما يضربه باليأس والقنوط ، ويحمله على الإحساس بالبغض بتجاه المدرسة والمناهج والمدرسين .

والسبيل فى الواقع إلى مراعاة ما بين العباقرة من فروق شديدة هو أولا العمل على تخصيب المناهج ، بحيث لا يكون هناك قيود تحد من انطلاق العباقرة ، وبحيث لا يحس العبقرى بأنه أسير مناهج رثة هشة عقيمة لا تشبع طموحه ، ولا تسد حاجاته النفسية والوجدانية والعقلية . يجب أن تكون المناهج متسعة رحبة بحيث يجد كل طفل ما يرغب فيه. وبحيث يعمل حسابا لما ينبو عنه أيضا ، وما لا يرغب فى تحصيله . وهنا ينبغى أن نميز فى المناهج بوجه عام خمسة جوانب تربوية نقدمها للأطفال بوجه عام هى : الإفهام والحفظ والتدريب والتجريب والتذوق . وفى جميع هذه الجوانب يجب أن يترك مجال لاختيار الطفل ، بحيث لا يقسر على تلقى معلومات أو على التدريب على أشياء أو تجربة أشياء أو استظهار كلام أو تذوق أشياء جمالية بعينها ، بل تحدد مجالات واسعة يستطيع الطفل أن يتحرك فيها بحرية وبغير أن نقيده فى جانب منها باسم الامتحان .

وحتى بالنسبة للامتحانات والتقويمات بوجه عام ، فيجب أن ينصب التقويم على الطفل وليس على المادة المعرفية أو موضوعات المنهج . ذلك أن تربية العبقرى تختلف عن تربية الشخص العادى فى أن موضوع الامتحان وموضوع التقويم يكون الطفل نفسه وليس ما ورد بالمناهج من أشياء . إن الشىء الذى ينبغى على المربى العكوف على قياسه هو مدى النمو الذى أستطاع العبقرى إحرازه . يجب الا يقيد الموهوب بقيود الامتحانات العادية بما تتضمنه من نهايات صغرى ونهايات عظمى ، بل يجب أن تكون المجالات التقويمية مفتوحة إلى ما لا نهاية . فيقال مثلا إن التلميذ استطاع أن يحل ٥٠٠٠ مسألة حسابية خلال شهر ، وأنه قرأ مائة كتاب خلال

الشهرين موزعة على النحو التالى : كذا وكذا وكذا ... إلخ . أنه عمل تجارب بالمعمل عن كذا وكذا وكذا، وأنه حفظ كذا وكذا وكذا . وهكذا يكون التقويم التتبعى قد أحصى المناشط التى قام بها الطفل العبقرى بغير أن يكون قد حدد حدودا صغرى وحدودا قصوى لما يضطلع به من مناشط ، بل إنه لا يكون قد حدد بنودا للتقويم مسبقة حتى يفسح المجال أمام الطفل العبقرى للتحرك وتحقيق الذات .

بيد أن من الواجب أيضا على المربين أن يخططوا لتعليم الأطفال الموهوبين أكثر من لغة أجنبية واحدة حتى يوفروا لهم بذلك فتح أكثر من منفذ معرفى ينظرون منه إلى حقائق الوجود من حولهم. والاهتمام باللغات لا يكون انغماسا فى فقه كل لغة ونحوها ، بل يجب أن يتم تعلم اللغات الأجنبية بطرق وظيفية سريعة تسمح للعبقرى بأن يحس بوظيفتها فى أسرع وقت ممكن ، وبحيث لا يتسرب الملل إلى نفسية العبقرى بسبب ما تتصف به اللغات من قواعد صارمة يجب على الشخص التمكن منها إذا ما أراد أن يبرع فيها . ولعلنا نعلم أن اللغويين المحدثين قد عكفوا على تبسيط القواعد اللغوية واطراح كثير منها حتى يضمنوا للدارس الإفادة من اللغة فى الحياة بسرعة بحيث يستطيع الاطلاع على المراجع المكتوبة بتلك اللغة فيما يريد معرفته من معلومات .

والواجب على المربى أن يتيح الفرص أمام الموهوبين لتعلم ما يشاءون من لغات أجنبية بقدر ما تسمح به استعداداتهم وميولهم . فالواقع أن اللغات إذا ما قدمت بشكل وظيفى أمام التلاميذ والطلاب الموهوبين ، فإنها سنجد منهم إقبالا شديدا بحيث يتعلم الواحد منهم أكثر من خمس لغات أجنبية ، ولا يقتصر تعلمه على لغتين أجنبيتين فقط شأنه شأن الطالب العادى .

وإذا كان الاهتمام باللغات فى تربية العبقرى مسألة ضرورية ، فإن الاهتمام بالرياضيات أيضا واجب . والرياضيات يمكن أن تعتبر من زاوية معينة لغة عقلية عالمية تنصب أساسا على الرموز بدلا من الكلمات . فالرياضيات لغة رمزية تعبر عن أرقى ما وصل إليه الفكر الإنسانى فى إيجاز وضغط للمعلومات وتحديد دقيق للعلاقات . وهنا أيضا يجب أن تتاح الفرصة أمام الطالب لسبر أغوار الرياضيات بالمدى الذى يرغب فيه بغير فرض للقيود التى تعوق فكره أو تحد من انطلاقه .

وإمعانا فى مراعاة الفروق الفردية بين العباقرة يجب أن تتوافر فرصة النقل من فرقة إلى أخرى أمام العبقرى فى غير المواعيد المقررة للامتحانات ، فقد يتسنى للعبقرى أن ينتهى من المقرر الذي ينتهى منه التلميذ العادى فى سنة فى شهر واحد فقط . وبذا يكون من حقه أن يصعد إلى الفرقة التالية . ولقد ينتهى التلميذ العبقرى من المرحلة الابتدائية فى سنتين بدلا من ست سنوات ، وقد يستطيع أن يلتحق بالمرحلة الثانوية فى سن صغيرة ، وقد يتم تخرجه فى الجامعة بينما يكون أترابه العاديون بالمرحلة الثانوية .

يقول كروكشانك فى هذا الصدد : « يحدث فى بعض الحالات ببعض البلاد أن يقفز التلميذ مرتفع الذكاء من فرقة إلى فرقة أعلى منها . وهو بهذا يوفر من حياته سنة أو سنتين دراسيتين . ومن الناحية النظرية يعمل القفز إلى فرقة أعلى على تقديم فرصة أكبر لتحديد ذكاء الطفل ، وذلك بسبب الصعوبة المتزايدة في الدراسة المدرسية ، ولكن من الناحية العملية ليس من السهل التقدم بطفل نابه بمسافة وسرعة كافيتين لتحقيق هذا الغرض دون خلق فروق عظيمة فى المستوى الاجتماعى والانفعالى والجمعى بين التلميذ المتسابق وبين زملائه الجدد، وهناك خطر فى الواقع فى نظامك القفز من فرقة إلى فرقة أخرى إذ تحذف فى هذه الحالة بعض المواد الأساسية دون أن يحس بحذفها أحد ، مما يضر بمصلحة الطفل وتكوينه الثقافى . وأكثر من هذا فإن إعطاء التلميذ الموهوب دراسات أكثر صعوبة وأكثر استثارة إنما يجعله رغم قدرته على دراستها واستيعابها غير قادر على الوقوف على ما تتضمنه من تطبيقات حية ، فكأنه إذن يدرس هيكلا عظميا خاليا من الأعضاء ، والأجهزة الحية . فهو قد يتعلم الكتابة والتهجى مثلا بإتقان دون أن يحصل بذلك على المهارة التى يعبر بها عن نفسه بطريقة ابتكارية » .

« وقد تكون الفائدة الأساسية من القفز من فرقة إلى فرقة أعلى هو التقليل من الوقت المطلوب للوصول إلى المدرسة الثانوية أو الجامعة حيث يكون المنهج أدعى إلى إشباع ميول الموهوب ومستوى ذكائه . ويفيد كثير من التلاميذ النابهين من القفز من صف إلى صف أعلى أو حتى إلى صفين أعلى بالرغم من أن هذه السنة لا تنتهج بمدارسنا الحكومية . وعلى الرغم من أن هذا النظام لا يجد قبولا لدى الكثير من

المريين ، فإنه يوفر كثيرا من النفقات التى تتحملها خزانة الدولة. ويكون القفز ناجحا إذا كان مشفوعا بتوجيه حصيف، وإذا ما توافرت الفرص للتلميذ النابه لكى يملأ الفجوات التى تتأتى عن اتباع هذه الطريقة [1] ».

توفير فرص النمو والتعبير عن الذات :

على الرغم من أن العبقرى يرغب فى أن يكون كما هو فى حقيقته ، وكما خلقه الله فإنه بحاجة فى نفس الوقت إلى التشجيع ورفع الحالة المعنوية والاعتراف بقيمة ما ينجزه من أعمال وما يصل إليه من اكتشافات . ذلك أن العبقرى إنسان قبل كل شىء . إنه فى طفولته طفل كسائر الأطفال ، وهو في مراهقته مراهق كسائر المراهقين، وهو فى شبابه شاب كسائر الشباب . وهو أيضا فى رجولته أو فى حياته كشخص كبير يشار إليه بالبنان إنسان له عواطفه وله مطامحه وآماله المتعلقة بالتفوق على الآخرين ، وحمل المجتمع على الاعتراف بفضله ، نعم إن العبقرى فى بعض الحالات يتخذ من التصميم والعناد موقفا يهزم به أولئك الذين لا يعترفون بوجوده وعبقريته، ولكنه حتى فى معركته هذه ، وفى عناده هذا يكون بحاجة ماسة إلى بعض القلوب الحانية ، وإلى بعض الكلمات المشجعة تصدر عن أولئك المقربين إليه ، والمؤمنين بقضيته ، والمخلصين بقلوبهم له، والساعين بكل جوارحهم لمساندته ودعم كيانه الاجتماعى . وإذا نحن تصفحنا حياة العباقرة ، فإننا نجد أن الفضل فى تفوقهم كان يرجع - بالإضافة إلى عبقريتهم - إلى عامل التشجيع الذى ساند كيانهم ودعم حالتهم المعنوية .

ولا شك كذلك أن أولئك الخصوم العلنيين والمقنعين إنما يؤدون إلى نشوء توترات نفسية جسمية فى نفسية العبقرى . نعم إن معظم العباقرة جعلوا من ذلك العداء نقطة انطلاق لظهورهم وتفوقهم . ولكن ألا يمكن أن تنشأ العبقرية بغير ذلك العناد ؟ إننا نميل إلى القول بأن العبقرية تفرض نفسها فى جميع الحالات . وأكثر من هذا فإننا نستطيع القول بأن ما ينشأ فى نفسية العبقرى من التواءات

---

(١) نفس المرجع- ص ٦٩ ، ٧٠ .

نفسية توصف بأنها ضروب من الجنون ، إنما يعطل عبقريته بعض التعطيل ، ويفت فى عضده بعض الفت . ولو أن الحياة كانت تسير سهلة أمام العبقرى إذن لكانت عبقريته أكثر إشراقا وأكثر لمعانا وأخصب فكرا وإنتاجا . فعدم الاعتراف بالعبقرى يعمل بلا شك على حرمانه من عامل التشجيع ورفع الهمة . وهو عنصر ومقوم يحتاج إليه جميع الناس ، سواء أكانوا من العاديين أم من العباقرة الأفذاذ .

والواجب على المربين الذين يتصدون لتربية العباقرة أن يفهموا سيكلوجيتهم فهما واضحا كاملا . وذلك حتى يميزوا فيها بين تربية الفرد العادى وتربية العبقرى. فالواقع أننا فى تربية الأشخاص العاديين نكون قد وضعنا نصب أعيننا مثلا عليا نستهدف التوصل إليها ونحاول تحقيقها فى حياة أولئك الأشخاص أو الاقتراب منهم على الأقل . أما بالنسبة لتربية العبقرى ، فالأمر يختلف عن هذا اختلافا بينا واضحا . فالعبقرى يجب أن يكون هو شخصيا المثل الأعلى لنفسه ، أى يكون الحصول على النمو هو المثل الأعلى الذى يستهدفه المربي في تربيته . فالمربى لا يكون بحاجة على الإطلاق إلى أستيراد مثل عليا خارجة عن نطاق العبقرى الذى يقوم بتربيته . المفروض أن يجعل المربى هدفه الأول والأخير فى تربية العبقرى هو إخراج الكنوز المخبوءة فى طياته من حيز الكمون إلى حيز الواقع ، أو كما يقول أرسطو، تحويل الموجود بالقوة إلى موجود بالفعل . ولكن ليس معنى هذا أننا يجب أن نترك الطفل العبقرى يتخبط كيفما يشاء ، بل يجب أن نمده بالإمكانيات التى تسمح له باكتناه ذاته والوقوف على الكنوز المختفية فى باطنه .

وإذا نحن ذكرنا ما سبق من أننا نمد الطفل بخمسة مجالات ثقافية هى الإفهام والتدريب والتجريب والحفظ والتذوق ، فإننا نستطيع أن نقول أن هناك أشياء لا مناص من تمكين العبقرى من إتقانها حتى يستطيع أن يبدأ بعد ذلك فى التعبير عن ذاته ، ونستطيع أن نعبر عن موقف المربى هنا بأنه يوفر أولا القوالب التقليدية بين يدى العبقرى ثم يتركه بعد ذلك يشكل منها ما يشاء من أشكال . فلابد إذن من تهيئة الخامات العقلية ، أو القوالب الفكرية والتعبيرية العامة التى

لا محيص عنها ولا بديل يقوم مقامها، ثم بعد ذلك نتركه يسبر أغوار المعرفة بغير فرض أو قيد ، وبغير أن نقحم أنفسنا عليه وإجباره على أخذ هذا أو ترك ذاك .

ومعنى هذا فى الواقع أننا لا نضع نتائج تربية العبقرى نصب أعيننا مسبقا. ليكن الناتج عن تلك التربية ما يكون . ولعلنا نركز هنا على ما حدث لجولتون ابن عمة تشارلس دارون . لقد حمله أبوه على أن يدرس الطب ويمتهن به . وفعلا بدأ جولتون حياته العملية طبيبا ، ولكنه ما فتئ أن تحول عنه إلى مجالات أخرى كان أهمها دراسة الوراثة وبخاصة ما كان متعلقا بوراثة العبقرية . من هنا يجب علينا فى تربية العباقرة ألا نرسم ما سيكون عليه مستقبل الواحد منهم ، بل يجب أن نربى العبقرى لذاته وألا نتنبأ بما سيكون عليه حاله فى المستقبل . فلتكن النتيجة ما تكون ، ويضع المربى نصب عينيه أنه تابع لعبقرية العبقرى ، بغير أن يقول للعبقرى ذلك ، إنه يجعل من شخص العبقرى فئة قائمة بذاتها مكونة من شخص واحد ، وعليه أن يوائم بين ما يتبعه من طرق وما يقدمه من خبرات وبين مطالب ومطامح تلك الفئة التى هى ذلك الشخص الواحد. ولعلنا نكتشف خطورة عملية تربية العبقرى إذا أدركنا أن العبقرى شخص نادر؛ ولذا فإن الفشل فى تربيته يعد خسارة لاتعوض بمال ، وعلى عكس ذلك فإن النجاح فى تربية عبقرى واحد أفضل من النجاح فى تربية عدة أشخاص مجتمعين . ولا شك أن الأرستقراطية العقلية لا يمكن أن تخضع للعدالة الحسابية وتقسيم الفرص بالتساوى بين الأفراد. ولعل أكثر دول العالم اشتراكية قد اكتشفت هذه الحقيقة ، وعملت على تقديم كامل الامكانيات والفرص للعباقرة حتى يستطيعوا التعبير عن ذواتهم ، والفيض بما تمتلئ به شخصياتهم من قدرات كامنة ، وذلك حتى يتسنى لهم التفاعل بأكبر قدر من المثيرات الخبرية، وبالتالى الخروج إلى العالم بأكبر قدر من الإنتاج فى المجالات التى تخيروها لأنفسهم بغير أن يفرضها أحد عليهم .

والواقع أن العبقرية سيف ذو حدين . فنحن المربين إذا لم نخرج تلك الاستعدادات المطمورة فى نفسية العبقرى من حيز الكمون إلى حيز الواقع . فإنها قد تخرج بغير توجيه إلى الواقع العملى السلوكى فى شكل ردىء لا يقبله المجتمع ،

بل قد يعتبر سلوك العبقرى عندئذ من الجرائم الكبرى . ولعل مشاهير المختلسين والمهرة فى سرقة البنوك هم فى الواقع عباقرة لم يقيض لهم التوجيه السديد من قبل المربين. ونذكر بهذه المناسبة ذلك الانحراف الأخلاقى الذى تعرض له فرنسيس بيكون كما سبق أن ذكرنا ، لولا أنه كرس باقى حياته للفلسفة فأبلى فيها بلاء عظيما .

ومن الجدير بالذكر أن شكليات النظام تعمل فى كثير من الحالات على مضايقة العبقرى ، وتجعله فى جهد دائب للتخلص من تلك القيود التى تفرض عليه باسم النظام ، نعم إن النظام من الوسائل الفعالة فى حياة الإنسان، وهو يعتبر من الوسائل الأساسية التي تؤدى إلى إنتاجية أكبر في وقت قصير وبمجهود قليل . ولكن كثيرا من العباقرة يحبون أن يخلقوا لأنفسهم نوعا من النظام ينفردون به ، ويكون من ابتكارهم شخصيا ، لدرجة أنه قد تحسب النظام الذى يضعونه لأنفسهم نوعا من الفوضى . إنهم مثلا يرتبون المعمل أو المكتبة بطريقة مواتية معينة لا تجد صدى فى قلوب أو نفوس الآخرين . فلربما يكون النظام من وجهة نظرك هو ذلك الذى يتمشى مع الأحجام واتساقها ، أو ذلك الذى يجعل الألوان هى الأساس فى التبويب والتصنيف . ولكن الأمر لا يكون كذلك على طول الخط بالنسبة للعبقرى. فهو قد يجعل النظام لديه متمشيا مع المناشط التى يقوم بها غير عابئ بأى اعتبار آخر يتعلق بالشكليات الخارجية التى تتفق مع الجمال كما يرتسم فى ذهنك أو كما تجد له صدى فى قلبك . ولقد يكون النظام الذى يرتئيه العبقرى منافيا للذوق الشائع ، أو حتى لقد يكون منفرا للذوق العام ، أو غير متمش مع البروتوكول أو مع ماتواضع عليه المجتمع، ولكنه يكون غير ذلك فى نظر العبقرى . وكما سبق أن ذكرنا فإن العبقرى يفرض ذاتيته البحتة على العمل الذى يقوم به ، ولا يأخذ فى اعتباره مبدأ التكيف الاجتماعى كمثل أعلى يستهدفه فى حياته وفى تصرفاته .

والواجب على المربى أن يهتم أكثر ما يهتم بأن الطالب العبقرى باتباع نظام يرتضيه ويميل إليه بغير أن يقيد نفسه باتباع نمط معين من النظام منقول عن الآخرين ، وأكثر من هذا يجب أن نشجع العباقرة على التخطيط لأنماط مختلفة من

الأنظمة التى تتفق وأمزجتهم الخاصة . المهم هو أن نمرن العبقرى على اتباع نوع معين من النظام يكون متفقا مع مزاجه ، سواء كان من خلقه وابتكاره شخصيا ، أم كان من ابتكار غيره من الناس .

وأكثر من هذا فإن العبقرى يجب ألا يقيد بالواجبات الاجتماعية وبالمجاملات اليومية ، ويجب ألا نعتب عليه إذا هو قصر فى أداء الواجبات تجاه الآخرين . ولعلنا نذكر هنا مرة أخرى قصة باستير التى سقناها قبلا ، والتى تشير إلى نسيانه موعد زفافه وانهماكه فى بحوثه بالمعمل . إن العبقرى كالراهب الذى يترك كل شىء خلف ظهره ويهرب إلى صومعته متعبدا مصليا ، وإنك لتجد العبقرى وقد تجرد من مشاغل الحياة الاجتماعية وأخذ يكرس فكره وعواطفه، وجل جهده للبحوث الفكرية، متعبدا فى صومعة الفكر ، لا يلوى على شىء مما يحيط به ، فلا يشغله شاغل، ولا يجذب انتباهه شىء .

وإنك لتجد أقارب العبقرى وجيرانه يتضايقون منه بادئ الأمر ، ويعتبون عليه إهماله لشئونهم ، وعدم مواساتهم فى أحزانهم أو مشاركته أفراحهم ،ولكنهم سرعان ما يصفحون عن التقصيرات التى تبدو منه أو إهماله لمشاعرهم ، وذلك بعد أن تتبلور عبقريته ، ويظهر تفوقه ، ويعترف له المجتمع بالتفوق والبزوغ ، ويعترف لمجهوداته بالبراعة ، ولوقته بالقيمة التى ينبغى ألا يفرط فيها وتبدد فى الشئون العادية التى يلتزم بها الشخص العادى .

والواجب على المربين الذين يتعرضون لرعاية العباقرة أن يجمعوا فى تربيتهم هدفين أساسيين يهتمون بتحقيقهما : الهدف الأول تنمية الشخصية الاجتماعية للعبقرى بحيث يتكيف إلى أكبر حد ممكن للمجتمع ، ثم تنمية الشخصية الفردية وتحقيق النمو الذاتى إلى أقصى حد ممكن ، ولكن يجب مع هذا ترجيح التربية الفردية بالنسبة للعبقرى على التربية الاجتماعية الجمعية ، ذلك أن العبقرى يرى المجتمع في الغالب من خلال ذاته إذا كان من الانطوائيين ، ويطبع الواقع الخارجى بطابعه الشخصى إذا كان من الانبساطيين. المهم أن نحاول تكييف العبقرى لواقعه الاجتماعى ، بحيث لا نجعل منه عبدا للعلاقات الاجتماعية ، وبحيث لا نضيع عليه فرصة التفوق وتكريس الفكر لأهدافه ومثله العليا البعيدة التى تسمو على العلاقات

الاجتماعية اليومية الفجة . وهنا ينبغى أن نميز فى المجتمع طبقات عقلية أو رقائق فكرية على شكل هرمى . فالقاعدة فى ذلك الهرم تشمل الناس جميعا، يعلوها طبقة أصغر ثم طبقة أصغر من تلك التى تحتها إلى أن تصل إلى القمة . وطبيعى أن تكون تلك القمة هى فئة صغيرة للغاية ليس بينها وبين الطبقات التى تحتها قطاع مشترك إلا تلك البقعة الصغيرة التى تحتلها. ولعل العبقرى لا يتكيف إلا لتلك البقعة الصغيرة التى قد لا تشمل سواه . وكما سبق أن قلنا فإن العبقرى قد يشمل فئة مستقلة بذاتها لا تشمل من الأفراد غيره . ومن هنا فإن مبدأ التكيف الاجتماعى يكون صادقا عليه أيضا ، ولو أنه لا يتكيف إلا لنفسه فحسب . ذلك أن الفئةالفريدة التى لا يـ ـملها سواه بالمجتمع كله هى فى الواقع فئة اجتماعية تجاوزًا ويكون التكيف لتلك الفئة ضمن التكيفات الاجتماعية التى يستطيع الشخص من هذه الفئة أن يتكيف لها ، ولسنا بالطبع نطالب جميع أفراد المجتمع أن يتكيفوا لجميع المستويات الاجتماعية ، فلا نستطيع مثلا أن نطالب فئة الأطباء بالتكيف اجتماعيا لفئة مهنية أخرى كفئة المهندسين ، فيما يتعلق بما يتبعونه فى حياتهم المهنية من أساليب . ولعلنا نقول إن هناك من المهن ما يتطلب كثرة الوقوف أو كثرة المشى ، بينما هناك مهن أخرى تتطلب كثرة الجلوس والامتناع عن الحركة. والتكيف الاجتماعى لكل مهنة لا يستلزم التكيف للمهن الأخرى. والعبقرى فى استغراقه الفكرى يتكيف لفئة العباقرة التى قد لا تتوافر فى الجيل الواحد إلا بعدد لا يجاوز الواحد أو الاثنين من الأشخاص .

ومعنى إعطاء الأولوية للناحية الذاتية على الناحية الاجتماعية الواسعة النطاق فى حياة العبقرى ، أننا نرجح الحرية على أى اعتبار آخر بالنسبة للعبقرى . والحرية بالنسبة للعبقرى معناها إعطاؤه الفرصة الكافية للتعبير عن الذات وترك البصمة الذاتية على العمل الذى يضطلع به . فالعبقرى يرغب فى أن تكون حياته ملكا له ، ولا يرغب فى أن يساعده الآخرون على صياغة حياته ، أو على تلوينها بلون معين ، إنه يريد جاهدا أن يكون نسيج وحده كما يقول العرب . وليس من سبيل لكى تتحقق تلك الفردانية إلا إذا سمح له بأن ينهج نهجًا ذاتيا بحتا بغير أن يقسره أحد على طريق بالذات ، أو باتباع طريقة بعينها .

ويتطلب مطلب الحرية الذى ينشده العبقرى أن يعبر عن أفكاره بغير رقيب من جانب الكبار ، أو حتى بغير أن يوجهه الكبار ، ويكثروا من نصحه وإرشاده . إنه قد ينظر إلى تدخل الكبار فى توجيهه بكثرة ، باعتبار أن ذلك مصادرة لحريته وحجر على تحركه الفكرى والعقلى. وحتى بالنسبة للأخطاء التى يقع فيها ، فإنه يفضل أن يكون هو المكتشف لها ، والمخطط لعلاجها بنفسه بغير استعانة من أحد . وإنك لتجد العبقرى شديد الحساسية لأخطائه وعيوبه ، ولذا على مربى العبقرى أن يكون رقيقا فى توجيهه، واضعا نصب عينيه الجوانب النفسية والحساسية التى يتسم بها العبقرى فى الغالب .

وحتى بالنسبة للعباقرة الكبار ، يجب أن تضمن لهم الدولة التفرغ وحرية التحرك العقلى وألا تضغط عليهم بإلحاح مطالبة بتقديم كشف بما أنتجوه. فالعبقرية قد تثمر بسرعة وقد تثمر ببطء .وليس من المعقول أن يقدم العبقرى نتاج عبقريته كما يقدم الصانع القطع التى ينتهى من إنتاجها . ذلك أن العمل العبقرى عمل ابتكارى وخلقى أولا وقبل كل شيء . ومن ثم فإن من غير المعقول المطالبة بالخلق والإبداع خلال وقت محدد ، وبعدد أو بكمية محددة من القطع أو المنجزات . فلينتج العبقرى وقتما يشاء وبالكمية التى يشاؤها بغير تدخل من جانب المسئولين أو حتى من جانب االدولة .

الرعاية النفسية والتوجيه الفردي :

ليس من شك فى أن الطفل الموهوب أو العبقرى - كما قلنا - هو طفل يشترك مع باقى الأطفال فى لعبهم ومرحهم ، وفى حزنهم وفيما يؤلمهم وفيما قد يثبط همتهم وفى كل ما يتعلق بوجداناتهم ، إنه يحب أن ينال التقدير من الكبار ، ويحب أن يجد قلوبا حانية عليه ، وعيونا ترقبه بتقدير واستحسان ، كما أنه يريد أيضا ما يتحدى ذكاءه وما يحمله على بذل الجهد ، كما يريد أن يكون لجهوده التى بذلها نتائج تتبدى للعيان وتبزغ أمام نواظر الجميع ، فيشار إليه بالبنان .

من هنا فإن الطفل العبقرى فى حاجة إلى رعاية نفسية شأنه فى هذا شأن جميع الأطفال . فالطفل العبقرى معرض للانحرافات النفسية والانحرافات

السلوكية كسواه من الأطفال، ولا يحميه ذكاؤه المرتفع من التعرض للانحرافات النفسية والخلقية . ذلك أن الجانب الوجدانى والجانب الأخلاقى لا شأن لهما بالجانب العقلى . فقوة الذاكرة أو القدرة الشديدة على إدراك العلاقات بين العلاقات لا شأن لها بما يحدث في جانب الوجدان من انحرافات ولا بما يحدث فى أخلاقية الشخص من خروج على القيم التى يواظب عليها المجتمع .

" وليس غريبا أن تجد واحدا من العباقرة يشكو من عدم تقدير المحيطين به له ولمواهبه، وليس غريبا أن يحس واحد منهم بأن هناك من يتربصون به الدوائر محاولين الوقيعة به والإضرار بمصالحه . ولقد تجد أحد العباقرة وقد عم الحقد حياته حيث صار يبغض الدنيا ، إنك لتجد بعض الفلاسفة ، وقد صبغ الحقد فلسفتهم ، وذلك لأن نفوسهم كانت معقدة ، وكانوا ينظرون بمنظار أسود إلى العالم من حولهم ، وقد فقدوا الثقة فى جميع الناس ، ولقد يتحول بعض العباقرة من الفلاسفة عن هذا الوجود المحسوس القائم فأخذوا ينكرون وجوده مختلقين وجودا آخر روحيا ينوطون به كل سمات الوجود . ويكون الواعز لهم فى ذلك فشلهم فى واقعهم الاجتماعى وإحساسهم بأنهم منبوذون من سواهم من أشخاص . ولقد تجد عبقريا آخر يضع ملامح فلسفية إلحادية تجلى عن تشككه فى القيم الروحية والأخلاقية ، ولا يكون السبب الحقيقى سببا عقلانيا ، بل سببا نفسيا يحتاج فى إماطة اللثام عنه إلى محلل نفسى حصيف ، وهكذا تجد كثيرا من العباقرة قد صبغوا أعمالهم العبقرية بصبغة غير سوية بسبب ما يعتمل فى أنفسهم من انحرافات نفسية .

ولقد نجد أن بعض العباقرة وقد أصيبوا بجنون العظمة ، فيضعون أنفسهم فى مكان رفيع لا يحتله سواهم من بنى الإنسان ، أو قد يتصورون أنفسهم ضمن الآلهة الذين تجب لهم الطاعة والسجود والعبادة . وقد يستحيل هذا الشعور لديهم إلى مرض عقلى ينتهى بهم إلى إحدى مستشفيات الأمراض العقلية حيث ينتهى بهم المطاف كما حدث للفيلسوف الألمانى نيتشه .

ولقد تستولى الدهشة على بعض الدارسين عندما يكتشفون تلك الاعوجاجات النفسية في نفسية العبقرى أو فى سلوكه الاجتماعى. ولقد ذهب البعض منهم إلى

النفسية في نفسية العبقرى أو فى سلوكه الاجتماعى. ولقد ذهب البعض منهم إلى تفسير العبقرية بأنها ضنو للمرض العقلى ، أو أنها نتيجة للمرض النفسى . ولكن هذا الرأى لا يتفق مع ما نؤمن به من أن العبقرية شىء وما قد يصيب الشخصية من انحرافات نفسية شىء آخر . فالإصابة بالأمراض النفسية والعقلية لا تتصل من قريب ولا من بعيد بالعبقرية . فالعبقرية شىء والحالة النفسية شىء آخر . ولقد نقول أن العبقرى يمكن أن يكون شخصا متمتعا بالسوية النفسية والسوية الأخلاقية، كما يمكن أن يكون شخصا منحرفا من الناحية المزاجية ، أو يكون قد أصيب بمجموعة من العادات الأخلاقية الرديئة .

ولعلنا نلخص أهمية الرعاية النفسية للعبقري فيما يلي :

أولا - تحقيق التكيف النفسى للطفل الموهوب ، وذلك بتحقيق الاتساق بين الأجهزة النفسية المختلفة والحيلولة بين تضاربها بعضها مع بعض . ويتطلب هذا العمل نمو جميع الأجهزة النفسية بعضها مع بعض بغير ضمور فى ناحية وانبعاج فى ناحية أخرى . فالمطلوب فى الواقع أن تنمو جميع الأجهزة النفسية بحد أدنى معين، ثم الاستمرار فى نمو أجهزة معينة منها إلى أكبر حد ممكن . والذى يحدث بالفعل فى حالات بعض العباقرة هو النمو المتفاوت بشكل ملحوظ بين الأجهزة النفسية المختلفة، فقد ينمو الذكاء مثلا إلى أبعد حد ممكن ، بينما يظل التخيل المتعلق بالصور المرئية ضامرا ، أو قد يظل التذوق الجمالى فى طى الضمور .وكأن العبقرى صار عملاقا فى ناحية الذكاء ، بينما ظل طفلا قزما فى تلك النواحى التى لم يتسن لها أن تنمو على الوجه السليم السوى .

ثانيا - تحقيق السعادة النفسية . والواقع أن إحراز السعادة فى الحياة مطلب أساسى لكل إنسان . ولكن إحراز السعادة مسألة صعبة وإن كانت ممكنة . وأهم عامل مساعد على تحقيق سعادة العبقرى أن نكتشف إمكانياته واستعداداته، وأن نعمل على إخراجها إلى حيز الواقع بحيث تلقى تقديرا واستحسانا من الآخرين . ولا شك أن تحقيق الذات عن طريق المناشط المتباينة لما يشيع السعادة فى النفس . فكلما حقق الإنسان ذاته ، واعترف له الآخرون بالوجود والتبريز ، كانت سعادته

أوفر وأعمق . وعلى العكس من ذلك ، فكلما أنكر الناس على العبقرى ما لديه من مواهب ، وضربوا عرض الحائط بما لديه من عبقرية كانت شقوته لا تعادلها شقوة ، وكان فى حياته متبئسا ضائعًا .

ثالثا – مراقبة الانحرافات النفسية قبل استفحالها . ذلك أن الطفل العبقرى شأنه شأن أى طفل آخر فى حاجة إلى رعاية ومراقبة ، وهو- كما سبق أن أشرنا - عرضة للانحرافات النفسية المتباينة . لذا ينبغى ملاحظة حياة الطفل ، وما يمكن أن يعتور سلوكه من انحرافات والتواءات نفسية . وواضح أن الإمساك بأول الخيط ، وعلاج المشكلة النفسية قبل استفحالها لهو أفضل بكثير من ترك المشكلة حتى تستفحل ويكون عندئذ من الصعب الإمساك بأطرافها والعمل على حلها أو حتى التخفيف من حدتها .

رابعا – تحقيق التكيف الاجتماعى مع الزملاء بالمدرسة. فالطفل العبقرى بحاجة أكثر من غيره إلى محاولة دائمة ومتواترة للتكيف لمجتمع الزملاء بحيث لا يبدو شاذا فى تصرفاته وأقواله ، وبحيث يستطيع أن يكون على صلة مستمرة ومتوافقة معهم . ويمكن فى الواقع الجمع بين العبقرية المتميزة بالذكاء الخارق ، وبين الانسجام مع مجتمع الأتراب حتى وإن بدا هذا غير ميسور فى بعض الحالات، ذلك لأن العلاقات الاجتماعية العادية تتسم عادة بالسطحية ، بل والغباء فى بعض الحالات ، وإذا نحن وافقنا بعض علماء الاجتماع على القول بأن المجتمع أو الجمهرة لها عقل ضحل وسطحى ، فإن التكيف لعقلية الجمهرة معناه النزول إلى مستوى عقلى منخفض . ولكن الواقع أن التكيف الوظيفى لعقلية الجمهرة أو عقلية المجتمع يختلف عن التكيف الكيانى الذى يقتضى أن ينزل مستوى التفكير فعلا ووجوديا إلى مستوى أقل من المستوى الأصلى واستمرار الشخص على هذا المستوى المنخفض ، ويمكن تشبيه الموقف التكيفى الوظيفى بما يحدث بالنسبة للمدرس الذى يتحدث مع تلاميذه باللغة العامية ، فقد يكون تحدثه إليهم بالعامية موقفا تكيفيا مؤقتا ومرتبطا بموقف محدد بحيث لا يحول ذلك دون قدرته على التحدث معهم باللغة الفصحى فى موقف أخر ، أما المدرس الذى يعتاد التحدث بالعامية بحيث يصير بمرور الوقت عاجزًا عن استخدام اللغة الفصحى فى التحدث بأى موقف حتى ولو كان المستمعون

إليه مستعدين للاستماع إليه وهو يتحدث بالفصحى ولا يرغبون الاستماع إليه وهو يتحدث بالعامية فإنه يكون قد تكيف تكيفات كيانية مع تلاميذه .

خامسا - تحدى ذكاء العبقرى بما يقدم إليه من خبرات تحتاج منه إلى إعمال التفكير أو بما يقدم إليه من مشكلات تحتاج منه إلى جهد كبير ومتواصل حتى يتسنى له التوصل إزاءها إلى حلول مناسبة ، وأهمية تحدى ذكاء العبقرى هى أن تقديم خبرات يرى أنها تحصيل حاصل بالنسبة إليه أو يحس بأنها تافهة ، إنما ينتهى إلى حدوث توترات نفسية تهدد سعادته وانسجامه فى الحياة المدرسية والعائلية . أما تقديم الخبرات التى يحس نحوها بأنها ذات قيمة كبيرة فإنه يكون من دواعى سروره وسعادته. ومن ثم فإننا نستطيع القول أنه لكى نضمن استمرار الصحة النفسية والعقلية للعبقرى يجب أن نراعى حسن انتقاء الخبرات أو المشكلات التى نقدمها إليه بحيث تكون متناسبة مع مستوى ذكائه الخارق ، وألا نمتهن عقليته بأن نقدم إليه خبرات عادية مما يصلح لغيره من أطفال عاديين .

سادسا - وضع العبقرى فى مجموعة متجانسة مع مواهبه الفذة . ذلك أن البون إذا كان شاسعا بين الطفل العبقرى وبين غيره من أتراب ، فإنه يحس بأنه غريب أو يحس بأنه مع أناس أصغر منه سنا بكثير. مع أن الواقع أنه متقارب معهم من حيث العمر الزمنى . يقول كروكشانك فى هذا الصدد :

« ويتطلب التجانس في تجميع الأطفال تشابها فيما بينهم فى الميول ، وتعتمد الميول- جزئيا على الأقل - على القدرة والمهارة ، وهذا يصدق تماما على جميع أوجه النشاط سواء أكان نشاطا عقليا أم جسميا أم اجتماعيا . فالولد الذي يلعب كرة القدم بمهارة لا يود أن يلعب أمامه شخص ضعيف ، وعلى العكس من ذلك فاللاعب الضعيف لا يجب بوجه عام أن يلعب في فرقة من الأبطال . وفى كلتا الحالتين فإن اللاعب يفضلّ أن يكون فى فريق من مستواه وهذا يصدق على المناشط العقلية، فالطفل المتوسط يستطيع أن يختار الأبطال من ذوى القدرة المشابهة لقدراته ومن لديهم اهتمام وميل مناسبان لاهتمامه وميله . وهذا لا يصعب عليه حيث إن ٥٠٪ من مجموع الأطفال يقعون فى مجموعة المتوسطين . أما بالنسبة للمتفوقين والموهوبين جدا ، فإن المجال أمامهم يتحدد وينحصر فيما بين ١٠٪ و ١٪ أو أقل من زملائهم ممن تكون لديهم قدرات متكافئة وميول متجانسة مع ميولهم . والواقع أن عدم توافر

الزملاء وليس الاختلاف فى درجة الذكاء هو الذى يجعل التوافق الاجتماعى بالنسبة لبعض الأطفال النابهين أمرا صعبا » .

« ويتوق الأطفال الموهوبون شأنهم شأن جميع الأطفال إلى الوقوف على زمالات كثيرة . فهم يحبون إقامة الاتصالات المفعمة بالأخذ والعطاء مع الأولاد والبنات الذين يقعون فى نفس سنهم ومن نفس قدرتهم؛ وذلك لأنهم يرتاحون إليهم . ولكن عندما لا يتوافر لهم أتراب من نفس سنهم ، فإنهم يعمدون إلى مصاحبة من هم أكبر منهم سنا ممن هم فى مستوى عمرهم العقلى . وهذا يعمل على حل المشكلة نوعا ما . فطفل العاشرة الذى لديه معدل ذكاء قدره ١٤٠ (أى عمر عقلى قدره ١٤ سنة) يستمتع بمصاحبة تلميذ عمره ١٢ سنة، وبمعدل ذكاء قدره ١٤٠ (عمر عقلى قدره ١٤) وينسجم معه بوجه عام »[1] .

سابعا – علاج ما قد يصيب العبقرى من أمراض تؤثر على نفسيته وفى حياته . ذلك أن العبقرى شأنه شأن أى إنسان آخر يتأثر نفسيا بما يصيب جسمه من أمراض . وإنك لترى اليوم أن علماء الصحة لا يضعون خطا فاصلا بين الصحة الجسمية والصحة النفسية ، وحتى التقسيم إلى صحة جسمية وصحة نفسية إنما هو من قبيل التقسيم المنهجى لسهولة الدراسة فحسب . والنظرة الحديثة إلى الشخصية الإنسانية هى نظرة تكاملية؛ إذ ينظر إلى الإنسان ككل وليس كأجزاء ، فلا يفصل فى شخصيته بين جانب وآخر ، بل يُدرس جانب معين بأكثر تخصيص دون فقدان النظرة الشاملة التكاملية. وإذا كانت النظرة التكاملية تنسحب على الأشخاص العاديين ، فإنها تنسحب بنفس القدر علي العبقرى. وأكثر من هذا فإن كثيرا من الأطفال الموهوبين الذين يبشر ذكاؤهم الخارق بالعبقرية يكونون ضعافا فى بعض الجوانب الجسمية ، أو تكون لديهم بعض الحساسيات الجسمية أو القابلية للإصابة ببعض الأمراض ، الأمر الذى يجعل القيام برعايتهم ووقايتهم من الأمراض ضرورة لازمة ضمانا لاستمرار حيويتهم واستمرار حياتهم ونموهم ، ويجب فى نفس الوقت أن نذكر أن شدة التوتر النفسى تؤثر تأثيرا كبيرا لا يمكن الإغضاء عنه فى الصحة الجسمية . ولعل استمرار النشاط الذهنى المتوهج لدى العبقرى ذو أثر سيئ فى النشاط الجسمى لديه ، وطبيعى أن استمرار الشخص فى حالة من التأمل يكون

(١) تربية الموهوب والمتخلف – كروكشانك – ترجمة يوسف ميخائيل اسعد – ص ٦٢ – ٦٣ .

مصحوبا غالبا بحالة من التوقف عن الحركة والنشاط الجسمى . وهذا بدوره مدعاة إلى توقف بعض الوظائف الجسمية عن مجراها الطبيعى أو عن نموها فى المسار الذى كانت تتحيه لو أن الحياة الفكرية لدى الشخص كانت حياة عادية . وإنك لتجد أن كثيرا من العباقرة يعزفون عن ممارسة الألعاب الرياضية وينصرفون إلى الحياة التأملية البعيدة عن الصخب والبعيدة فى نفس الوقت عن حياة الجماعات الرياضية . وهذا ينتهى بالعبقرى إلى حياة جسمية هشة خاوية من الرصيد الحيوى اللازم لاستمرار النشاط الجسمى ، وبالتالى الإصابة بمجموعة من التوترات النفسية بل والإصابة ببعض الأمراض النفسية ، لذا كان من الضرورى التدخل فى حياة العبقرى وحضه على اتباع نظام يحميه من التبلد الجسمى أو من التعرض للخمول العضلى . وطبيعى أن هذا لا يتعارض مع استمرار العبقرى فى النمو العقلى، ومع إظهار ما لديه من مواهب نادرة. وأكثر من هذا فإن هذا مدعاة إلى استمرار تمتعه بحياته واستمراره زاخرًا بالإنتاج العقلى وبالقدرة على الاستمرار فى حالة من التفوق والتدفق النفسى والعطاء الفكرى .

ثامنا – من الواجب اتباع نظام الرعاية الفردية فى الحالات التى تشتد فيها الحساسية الزائدة فى العلاقات الاجتماعية . فمن الأطفال الموهوبين من لديهم شبه عجز عن مسايرة زملائهم فى مناشطهم الاجتماعية المتباينة . ولقد يكون عزل الطفل فى بعض الحالات عن المجموعات العمرية القرينة من عمره هو الحل الوحيد، إذ يكون شديد العدوانية أو شديد الحياء أو فاقدًا الثقة بالنفس إلى درجة خطيرة مع أنه خارق الذكاء . والجدير بالمربين فى جميع الحالات مراعاة حالة الطفل والبدء برعايته من حيث هو ومن حيث حالته، وليس مما هو شائع أو مما هو عادى ومعتاد. فإذا كان الطفل العبقرى بحاجة ماسة إلى رعايته فرديا وإلى عزله عن باقى الأطفال لبعض الوقت أو لكل الوقت ، فيجب أن نعزله إلى أن يتم درجه مع إخوانه وتكييفه لمقتضيات العلاقات الاجتماعية السوية بالتدرج .

تاسعا – فى حالات العاهات المصحوبة بالموهبة الخارقة يجب مراعاة ما يصاحب تلك العاهات من حالات نفسية تتطلب الرعاية والحماية من العقد النفسية.

واجبات الأسرة والمدرسة :

مما لا شك فيه أن إحساس الطفل الموهوب بالطمأنينة ، لمن أهم العوامل فى تكوين شخصيته وبلورتها ، وفى تقدمه حثيثا إلى الأمام فى معارج حياته العقلية والنفسية . ولا شك أيضا أن الأسرة والمدرسة مجتمعين هما من أهم المجتمعات التي ينخرط فيها الطفل ، وبالتالى فإن على عاتقهما تقع مسئولية حماية الطفل وتوفير الجو أو المناخ الاجتماعى الذى يضمن له الترعرع والتمتع بالحرية والطمأنينة والاستقرار النفسى .

والواقع أن الطفل الموهوب يحس فى باطنه بمواهبه الفياضة ، ومن ثم فإنه يكون بحاجة إلى الإحساس بأن الذين يحيطون به والمسئولين عن تربيته هم أحرص الناس على الحفاظ على تلك الكنوز المخبوءة فى طياته، ولعله يحس بفقدان كل الطمأنينة إذا وجد أن من حوله سالون عنه ، أو غير مكترثين بمواهبه ، أو يشكلون عاملا من عوامل تبديدها، ومن ثم فإنه يتعمد مقاومتهم واتخاذهم كأعداء ينبغى الانتصار عليهم وقهرهم . ومن هنا فإن بعض الدارسين يعزون عبقرية الموهوب إلى تلك المقاومة التى يبديها لمن حوله ، مع أن الواقع أن مقاومة العبقرى لعوامل الضياع تأتى كعامل ثانوى أو كعامل مصاحب ، وليست المقاومة شرطًا ضروريا للعبقرية . وبتعبير آخر فإن وجد المناخ الصالح لنموه وترعرعه ، فإنه لا يقاوم من حوله ، بل ينسجم معهم ما دام أنه يحس بأنهم ليسوا عوامل تدمير لحياته ، أو أسبابا غير مباشرة أو أسبابا مباشرة لضياع كنوز مواهبه .

ولكى تكون الأسرة والمدرسة من العوامل الإيجابية فى حياة الطفل العبقرى وصونا له من الانحرافات النفسية ، يجب عليهما أن يقدما إليه كل عوامل التشجيع، وذلك بالمكافآت والامتيازات فى كل موقف يتفوق فيه . وأهم من هذا فى الواقع احترام عقلية الطفل الموهوب مع عدم إعطائه الفرصة للإصابة بداء

الغرور الذى قد يشكل عائقا بينه وبين قدراته ، وليس المقصود بالتشجيع أن نكيل المديح للطفل ونتعته بالذكاء والتفوق على إخوانه فى كل مناسبة ، بل معناه أن نعترف له بكل تقدم يحرزه ، مع التأكيد له بأن كل جهد يبذله فى سبيل النمو والنضج مأخوذ فى الحسبان ، وأننا نعترف له بالتقدم في كل خطوة يخطوها إلى الأمام ، ولدى بذل أى جهد فى سبر أغوار الحقيقة ، أو لاكتشاف الحقائق المستخفية .

ومن أهم الواجبات المنوطة بالأسرة والمدرسة تجاه الطفل العبقرى ترفير مصادر الخبرة أمامه حتى يتسنى له الإفادة منها ، والنهل من مناهلها بغير أن يجدها وقد نضبت فيحس عندئذ بأنه فى سجن لا يسمح بالاستمرار فى الانطلاق بحرية إلى الآفاق المعرفية الرحبة التى يحلم بالانطلاق إليها .

وليس بخاف أن المكتبة - سواء بالأسرة أم بالمدرسة - لمن أهم العوامل المساعدة على تقديم الخبرات المتجددة للطفل . بيد أن هناك شروطا يجب أن تتوافر بمكتبة الأسرة ومكتبة المدرسة نعرضها فيما يلى :

أولا - أن تكون مكتبة الأسرة ومكتبة المدرسة زاخرتين بالكتب المتنوعة، وألا يطغى عليها نوع معين من الكتب على الأنواع الأخرى .

ثانيا - أن تتضمن المكتبة كثيرا من المجالات العلمية والأدبية والفنية التى تتناسب مع مستوى الأطفال وأمزجتهم .

ثالثا - أن تكون المكتبة متجددة فتضم الجديد الذى يظهر بالمجالات المختلفة.

رابعا - أن تكون الكتب المعروضة بالمكتبة مما يثير- بجمال المظهر والصور الرائعة والمعبرة - خيال الطفل وإحساسه بالرضا .

خامسا - أن يشترك الطفل نفسه فى تنظيم الكتب وفق طريقة معينة .

سادسا - أن يشترك الطفل فى اختيار الكتب الجديدة، وأن يشارك فى شرائها بنفسه ويضمها إلى المكتبة .

سابعا - أن تترك للطفل حرية القراءة بالمكتبة وألا تتخذ المكتبة فى البيت أو المدرسة كمظهر جمالى أجوف يحرم على الطفل استخدامه حتى لا يفسد جماله.

ثامنا - أن نساعد الطفل على البحث وأن نبصره بطرق الاطلاع ، وبوسائل جمع المعلومات المطلوبة وتصنيفها للرجوع إليها وقت الحاجة .

تاسعا - أن يبدى الكبار - الوالدان بالبيت أو المدرسون بالمدرسة - اهتمامهم بالمكتبة، وأن يقضوا وقتا طويلا بها يطلعون خلاله ، فيضربون بذلك للطفل مثالا بأنفسهم .

عاشرا - أن تترك مسئولية الإشراف على المكتبة للأطفال - ولو جزئيا - وأن يخصص للطفل جزء كملك خاص له فى مكتبة الأسرة .

والواقع أن الأسرة التى تنجب طفلا عبقريا مسئولة أكثر من أية أسرة أخرى عن حسن رعاية ذلك الطفل وتوفير مصادر الخبرة أمامه حتى لا يحس بالافتقار إلى مناهل جديدة لا سبيل إلى العثور عليها . ويجب أيضا أن تتكامل وظيفتا الأسرة والمدرسة بإزاء الطفل بحيث لا يحس بأن هناك تعارضا بين سياسة الأسرة، معه وبين سياسة المدرسة، بل يتأكد من تكامل السياستين معا وانسجامهما .

ولا يخلو الأمر من أن يحس الطفل فى موقف أو آخر بالتعارض الشديد فيما بين ما يصبو إليه وبين ما يصبو إليه أهله ، أو مدرسوه . ولقد يحس الوالدان بأهمية شىء ما للطفل بينما هو لا يحس بأية قيمة فى ذلك الشىء . ومن ثم فإنه لا يبذل فى سبيل الحصول عليه أو إحرازه أى جهد ، بل يسلو عنه ويصرف نظره بإزائه . وهنا ينبغى أن نحذر من غض النظر عن أحوال الطفل النفسية ، وما قد يدور بخلده من أفكار ، وما يعتور وجدانه من أحاسيس . والمهم هو أن يحاول الكبار المسئولون عن تربية الطفل الموهوب أن يوفقوا بين ما يرون أنه ذو قيمة عالية، وبين

ما يراه هو كبير القيمة . ومن العبث بالطبع أن نفرض أنفسنا نحن الكبار على الطفل، وبخاصة الطفل الذى وهب ذكاء مرتفعًا . فلابد من الاستعانة بالإقناع ، ومحاولة التوفيق بين تقويم الطفل للأشياء وبين تقويم الكبار لها .

وليس معنى أن الكبار يجب أن يطأطئوا رءوسهم لكل ما يعن للطفل العبقرى وكأنه القائد الوحيد لحياته والمسير لشئونها والعالم بما يقبل وما يدع . الواقع أن الكبار مسئولون أيضا عن تسيير حياة الطفل الموهوب ، بل عليهم أن يتدخلوا عندما يدق ناقوس الخطر ، وعندما يصر الطفل على رفض الأساسيات التى لا يستطيع بغيرها أن يواصل تعلمه . خذ مثالا لذلك الطفل الموهوب الذى يهمل فى الخط والهجاء ، ولا يحب أن يكتب أو أن يحضر حصة الإملاء ، ويفضل عليها أن يعكف على كتاب يقرؤه . فهل يتركه المدرس لهواه ؟ وهل يسكت الوالدان على هذا ظنا منهما أن الواجب عليهما السير وفق ما يرتئيه الطفل ؟ هذا غير مقبول على الإطلاق ، والواجب فى مثل هذه الأحوال أن يتدخل الوالدان والمدرسون ويقنعوا الطفل بالمنطق والحزم بأن مسلكه هذا لا يبشر بخير ، وأن السبيل إلى الثقافة هو التمكن من الكتابة خطا وهجاء وتعبيرا ، وأن القراءة وحدها مهما كانت كثيرة ومستمرة لا توصل بغير التمرن على الكتابة إلى شىء من الثقافة الحقيقية .

ولكن المهم بالنسبة للمسئولين عن تربية الطفل الموهوب ألا يشتدوا فى تعنيفه ، وألا يجعلوا من عثراته وانحرافاته منطلقا للحط من كرامته أو النيل من مكانته بين زملائه . فالتشجيع فى جميع الحالات ضرورة لاستمرار تقدم الطفل وتفتيق مواهبه وإمكانياته واستعداداته . وحتى إذا ظهرت بعض الثورات النفسية فالواجب التقاطها منذ بواكيرها والعمل على التخلص منها ، لأن التوتر النفسى يتزايد تعقيدا كلما مر وقت طويل عليه بغير معالجة . أما أن يلاحظه الكبار وهو فى أول مراحله، فإن الوصول إلى حل بإزائه يكون سهلا ميسورًا .

والأسرة الحصيفة والمدرسة الواعية برسالتها تعملان على إبراز شخصيات أبنائهما وتوفير الأدوار الإيجابية التى يلعبونها فى نطاق كل من الأسرة والمدرسة على السواء، وطبيعى أن الدور الإيجابى الذى يلعبه الطفل فى المجتمع الذى ينخرط

فيه ، يسمح له بالتعبير عن ذاتيته الحقيقية . وهنا يقول لنا علماء النفس: إن الإنسان السعيد حقا هو ذلك الذى يتسنى له اكتشاف ذاته ، وهو االذى يستطيع أن يحقق تلك الذات فى مواقف عملية فى الحياة . ولعل كثيرًا من الأشخاص الذين يحتلون مناصب هامة بالصدفة لا يحسون باللذة فى شغل تلك المناصب ، بل إنهم يحتقرونها ، أو يحتقرون أنفسهم لأنهم يعملون فيها . والسبب الرئيسى فى هذا الشعور الممض هو أنهم لا يجدون أو يكتشفون أنفسهم فى تلك الوظائف التي يحتلونها . أما أولئك الذين يرون أنفسهم من خلال ما يوكل إليهم من أعمال وما يناط بهم من مسئوليات ، فإنهم حقا أشخاص سعداء . ولقد توفر تلك السعادة عاملا على التفوق وعلى إبراز ما لديهم من استعداد يتجلى فيما يعملون .

من هنا فإن التربية الحقة التى يجب أن تتوافر للموهوب هى تلك التربية التى تسمح له بتحقيق ذاتيته سواء فى دراسته ، أم فى المناشط الاجتماعية التى يشارك فيها . وهنا ينبغى أن نذكر القارئ بأننا لم نحصر نطاق العبقرية فى مجال واحد هو المجال المعرفى، بل اتسعنا بمعنى العبقرية إلى مجالات كثيرة قد تضم من بينها مجالات لا تعتمد على الكتب بالدرجة الأولى ، بل تعتمد بالدرجة الأولى على القدرة على إقامة علاقات معينة بين الناس . وبهذا المعنى يكون القائد العسكرى من أمثال نابليون وهتلر من العباقرة ، كما قد تتمثل العبقرية فى الحصافة السياسة ، وبهذا المعنى نقول إن تشرشل وتاليران يقعان ضمن العباقرة السياسيين . وهكذا دواليك بالنسبة لجميع المجالات المتباينة كالتربية والفن والرياضة البدنية ... إلخ .
المهم فى جميع الحالات أن يكتشف الشخص ذاته منذ الطفولة أو المراهقة على الأكثر ، ويبدأ فى توجيه دفة حياته وفق ما يكتشف لديه من استعدادات . فإذا كانت تلك الاستعدادات خارقة للعادة ، إذن لتمكن من أن يكون عبقريا . وواضح أن الأسرة والمدرسة مسئولتان كشريكتين عن تمكين الطفل من معرفة ذاته ومن الخطو نحو المجالات التى تبشر إنجازاته بأنه سيتفوق فيها .

والجدير بالذكر أن معرفة الطفل ذاته واكتشافه لمواهبه يجب أن يكون متبوعا

باحتكاك متواصل بالواقع حتى تشحذ تلك المواهب المكتشفة . والتجريب في حياة الطفل العبقرى إنما هو كصهر المعادن وهى في طور الخامة حتى تضحى فى حالة النقاء، والتجريب المطلوب يتضمن فيما يتضمن نوعا من المحاولة والخطأ .

ولقد يظن البعض أن الاقتصاد فى جهود الطفل وعدم تعريضه للمحاولة والخطأ بوقفه على ما ينبغى اتباعه ، هو الطريق السليم والوحيد لتقدم الموهوب بسرعة . والواقع النفسى والتربوى مخالف لهذا الظن الفاسد على طول الخط ، ذلك أن أستكشاف الحياة لأول مرة من جانب الطفل يعطى للشىء المكتشف رونقا وبهاء . أما تقديم الحياة « مقشرة » ومهضومة ولقمة سائغة ومطحونة ، فإنه يفقدها كل احترام وتقدير فى نظر الطفل والإنسان بعامة .

ولعلنا بهذه المناسبة نقول إن كثيرا من جهود المدرسين لا تأتى بما قصدوا إليه. فبينما يقصدون إلى عدم تشتيت جهود الطفل فإنهم يجعلون من الدروس التى يقدمونها إليه شيئا رخيصا مبتذلا لا رونق له ولا طعم ولا نكهة فى متابعته .

المهم أن يجد الطفل نفسه وقد تحسس طريقه فى الحياة بنفسه . وحتى بالنسبة للقوانين التى سبق أن اكتشفت يمكن توفير الفرص المناسبة أمامه لإعادة اكتشافها . ذلك أن الطفل إذا ما اكتشف الحياة من حوله ، فإنه يجد المتعة كل المتعة فى مواصلة الاكتشاف . وعلى العكس من ذلك ، فإذا وجد الكبار من حوله والأجيال التى سبقت قد اكتشفت كل ما يمكن أن يصل إلى علمه ، فإنه يرى الحياة أمامه ضيقة ، ويجد أن جهوده المبذولة فى الاستيعاب سخيفة، أو أن حياته هى تحصيل حاصل فلا هو اكتشف شيئا ، ولا هو يجد المتعة فيما سبق أن اكتشفه غيره .

وإذا صدق هذا القول على الطفل العادى ، فإنه يصدق بالأولى على الطفل العبقرى ، فالطفل العبقرى يحب الجديد ويحب الاكتشافات ويحب التجريب ، ولا يريد أن تكون حياته نسخة مكررة من كثير غيره من الأطفال . إنه يرغب فى أن يكون نسيج وحده ، وأن يكون متميزا من أقرانه ، بل ومتميزا من جميع الناس .

ولنضف إلى هذا أن الطفل العبقرى سريع الملل ، بل هو سريع فى كل شىء ، إنه يحب الانتقال السريع من موضوع لآخر ، ويحب أن يستوعب الأشياء بسرعة .

وهذا الملل السريع الذى يتسرب إلى نفسيته يجب أن يقابل من جانب الآباء والمدرسة بخصوبة فى الحياة من حوله وعدم تذليل الصعوبات من طريقه ، بل بإتاحة الفرصة الوافرة أمامه لتحدى تلك الصعاب وتذليلها بقدرته ومهارته وذكائه الخارق .

ويجب ألا ننسى ما على الأسرة والمدرسة من مسئولية كبيرة نحو رعاية الطفل الموهوب من الناحية الصحية . ذلك أن الموهوب بطبعه مغال فى كل شىء . إنه قد يستمر في القراءة بغير أن يلقى بالا إلى أن الإضاءة غير كافية ، أو أن النهار قد بدأ فى الخفوت وأنه لابد من إضاءة المصباح الكهربائى . ولقد يهمل الموهوب بعض العادات الصحية كالجلسة الصحية ، أو قد ينصرف عن تناول الطعام لانشغاله بكتاب يريد إتمام قراءته .

من هنا فالواجب على الأسرة والمدرسة أن تلقى بالا إلى ما قد يتعرض له الطفل الموهوب من مخاطر صحية ، وأن تخضعه للشروط الصحية الواجب توافرها حتى يشب سليم البدن قوى البنية سعيدا بصحته .

ولا يعزب عن بالنا أن الصحة الجسمية مرتبطة ارتباطا مكينا بالصحة النفسية والعقلية . فمن الواجب أن يكون جو الأسرة وجو المدرسة بحيث يتسنى للطفل أن يحس بالسعادة والاستقرار . ولا شك أن نوعية المعاملة والجو العام السائد بالأسرة والمدرسة لمن أهم العوامل التى يترتب عليها مدى تمتع الطفل بالصحة الجسمية والصحة العقلية والنفسية على السواء .

وليس من تعارض على الإطلاق بين أن تبزغ المواهب الخارقة فى حياة الطفل الموهوب وبين أن يكون عضوا اجتماعيا حيا متوافقا مع مجتمعه بالأسرة والمدرسة والمجتمع الخارجى . فكل ما يقال عن شذوذ العباقرة إن هو إلا سوء توجيه للإمكانيات الخارقة لديهم .

التفرغ للأهم وللجديد :

من العوامل الفعالة فى تعجيل ظهور الأعراض العصابية وفى استحثاثها لدى العبقرى إجباره على الاضطلاع بأعمال روتينية لا تساعد على شحذ ذكائه وتحدى قدراته العقلية وقدراته الابتكارية . فما لم يحس العبقرى بأنه يوجه طاقاته العقلية الوجهات المناسبة لها ، فإنه يحس بالضيق يعمل على خنقه وعلى ضياع كل كيانه

الذى يجب الحفاظ عليه ، وأنه عرضة للهلاك ، بل ويحس بالإخفاق يلم بجماع حياته وبأنه لم يعد يستحق الحياة ، أو أن الحياة لم تعد شيئا يستحق البقاء من أجله.

والواقع أن الحياة العقلية محفوفة غالبا بجانب من العمل الروتينى بحيث لا نستطيع تصور حياة أحد الأشخاص بغير أن يناط بها شىء من المسئوليات الروتينية. وحتى بالنسبة لأرقى المناصب السياسية أو الثقافية أو الدينية ، فلابد للشخص الذى يشغل أحدها أن ينهض ببعض الأعمال التى تتسم بالرتابة والروتين . ولا يمكن تخليص أية مهنة أو أية وظيفة من بعض الجوانب الروتينية المرتبطة بها .

بيد أن العبقرى لا يطيق السير وفق ما تمليه الحياة العادية . إنه كائن شاذ بطبيعة تكوينه . والشذوذ لا ينصب على الجانب المنحط من الحياة وحده ، بل ينصب على الجانب المتفوق أيضا . والعباقرة شذاذ بهذا المعنى الأخير . وشذوذ العبقرى يتمثل فى أنه لا يحيا حياة عادية ، ولا يستطيع أن يكيف نفسه بسهولة لمتطلبات الحياة العادية المتسمة بالروتين والرتابة فى بعض جوانبها . إنه يريد الحرية المطلقة والانفكاك التام من قيود الرتابة والروتين ، والتشوف إلى الابتكار والجديد بصفة دائمة .

ولقد يقال إن التربية قادرة على تكييف العبقرى لنمط الحياة القائم ، وأن عليها أن تدربه على السير وفق خطوطها الموجودة بالفعل وعدم طأطأة رأسها لرغباته . والواقع أن التربية وإن كانت تستطيع أن تفعل الكثير بالنسبة لجميع الأطفال بما فى ذلك الأطفال الموهوبون أيضا ، فإن لها حدودًا لا تستطيع تخطيها ، ومن ثم قيود تكبل تحركاتها لا تستطيع الفكاك منها أو التخلص من وطأتها .

فالتربية تستطيع أن تطوع طبيعة العبقرى ، ولكن هذا التطويع لا يسير إلى آخر الشوط ، بل إنها تقف عند نقطة معينة وهى مكتوفة اليدين لا تستطيع أن تبعد عنها إلى نقطة تالية . وهذا إن صدق على بعض الجوانب من شخصية العبقرى ، فإنه يصدق بالدرجة الأولى على الجانب العقلى لديه ، فالتربية لا تستطيع أن تكبل ذلك الفوران العقلى المحتدم فى شخصية العبقرى . ذلك أنه يكون مسوقا بفكره أكثر

من انسياقه بأى عامل آخر محرك للسلوك . ولكن العنصر العقلى فى تفكيره يكون مرتبطا ارتباطا مكينا بالجانب الوجدانى . فهو ينكب بكليته على فكره ، ولا يكون وجوده متخلصا من العوامل الانفعالية ، ولا يكون موضوعيا بمعنى اللامبالاة والهدوء النفسى حتى وإن بدا نتاج تفكيره بعيدا عن العناصر الوجدانية ومتخلصا من كل العوامل والعناصر الانفعالية . وهنا ينبغى علينا أن نميز بين العملية الفكرية وبين نتاج تلك العملية . فلقد يكون نتاج واحد من أمثال فيثاغورس أو إقليدس أو إينشتين من النوع المتخلص والمتجرد تماما عن المقومات الوجدانية والانفعالية ، ولكن إذا أنت وقفت على العمليات الذهنية التى انخرط فيها كل منهم ، إذن لوجدتها عمليات مركبة ومعقدة أشد التعقيد ، إنها مركب على جانب كبير من الدقة والتعقيد من عناصر عقلية ووجدانية . فالواحد منهم فى أثناء تفكيره فى المتجردات لم يكن هو شخصيا متجردا عن العاطفة والوجدان ، بل كان غارقا إلى أذنيه فى عشق ما يفكر فيه .

من هنا فإنك لا تستطيع أن تعالج بالتربية حال العبقرى كما تفعل مع الأشخاص العاديين ، بل عليك أن تعالج التربية ذاتها ، بل وأن تعالج كل المسئوليات التى ستنوطها به . فلا يصح لك أن تقدم إليه إلا الأهم دائما ، ولا يصح لك أن توكل إليه أعمالا يحس بتفاهتها ، وإلا فإنك تثقل كاهله ، ومن ثم فإنك تضيف إلى أزماته النفسية أزمة جديدة نتيجة مضايقتك له باحتقارك لمواهبه وتقديم معلومات لا يحترمها تريده على هضمها أو استظهارها ، أو إنك تريده على تحمل مسئوليات لا يجد أنها جديرة به أو أنها مسئوليات لا ترقى إلى مستوى طموحه أو مقدرته .

إن العباقرة يحسون باستمرار بأنهم مقبلون على اكتشاف مجهول على جانب كبير من الخطورة . بيد أنهم لا يستطيعون الوقوف بوضوح على كنه ذلك المجهول ، ولا يستطيعون استشفاف قسماته وملامحه بدقة . وتوقعهم هذا بمثابة إحساس فردى وليس انعكاسا لأوامر تصدر إليهم من غيرهم ، وليس إيحاء يستشفونه من

سواهم من الكبار . إن الإحساس بالمجهول لديهم فى الواقع بمثابة رؤية داخلية غير مكتملة ، أو هو استشفاف للمستقبل الذى يمكنهم الوصول إليه وتحقيقه وإخراجه من حيز القوة إلى حيز الفعل .

من هنا فإن أى تدخل من جانب الكبار فى تشكيل ملامح ذلك المجهول وتحديد ملامحه ، إنما يؤدى إلى تشويه وإلى إبطال قدرة العبقرى على تصور ذلك المجهول الذى ينبغى الوصول إلى تحقيقه فى الواقع . ذلك أن العبقرى يتخذ من التلقائية والعفوية منطلقا له يبدأ منه متجها إلى تحقيق ذلك المجهول .

ولقد يبدو ما ينتهى إليه العبقرى شيئا تافها لا يستحق التقدير فى الحاضر ، أو لا يستحق التقدير إذا ما قيس بمقاييس المنفعة والاقتصاد ، فكثير جدا من الحقائق العلمية والنظريات الرياضية لم تكن عند بزوغها على أيدى العباقرة الذين توصلوا إليها ذات بال أو مفيدة من الناحية العملية المباشرة . ولقد ينظر إليها أصحاب المصالح الاقتصادية باعتبار أنها كلام تجريدى أجوف لا جدوى من ورائه . ولكن بعض ما توصل إليه أولئك العباقرة أمكن الإفادة منه وتحويله إلى تطبيقات عملية مفيدة من الناحية التطبيقية .

ولكن ليس معنى هذا أن كل ما يتوصل إليه العباقرة يمكن أن يستحيل إلى وسائط عملية مفيدة . فلقد تنصب عبقرية العبقرى على نواح جميلة وغير مفيدة. فلوحات بيكاسو وأشعار شكسبير وموليير ليست مفيدة من الناحية الاقتصادية ، ولكنها جميلة وتتجلى قيمتها فيما تدخله على النفس من إحساس بالجمال .

وبوجه عام فإننا نستطيع القول بأن العبقرية إما أن تتجه إلى أشياء مفيدة من الناحية العملية ، وأما إلى أشياء جميلة ، وإما إلى أشياء عقلية مجردة تتصل بالحقيقة ، وإما إلى قيم أخلاقية أو روحية أو سياسية تتصل بالإنسان الفرد والإنسان المجتمع .

والواجب على المجتمع أن يوفر كل الوقت للعبقرى ، حتى يتسنى له أن «يخمر» عبقريته ، وأن يخرج من جعبته ما يتسنى له . وحذار من ملاحقته بالمطالبة بالإنتاج

كما قلنا . ذلك أن مطالبة العبقرى بأن ينتج خلال وقت معين أو خلال فترة معينة ، إنما يعمل على ضربه بالجمود والتبلد ، أو بالافتعال والسطحية .

والواجب علينا ألا نظن أن العبقرية كالآلة التى تجبر على الإنتاج. إن العبقرى إمكانية غامضة لا يمكن أن نتنبأ بما ستنتجه. لذا يجب إطلاق العنان للعبقرى وتوفير مطالبه المتباينة وعدم إلزامه بالإنتاج . وحتى إذا لم ينتج بعض العباقرة شيئا، وأنتج بعضهم الآخر ، فإن سياسة الانطلاق والتحرر هى السياسة الوحيدة المضمونة التى يمكن بواسطتها الإفادة من العباقرة . فالسياسة الوحيدة للإفادة من العباقرة هى ألا ترسم لهم سياسة ، وألا يفرض عليهم شىء أو خط يسيرون وفقه .

نعم إن سياسة الانطلاقية وعدم التدخل فى شئون العبقرى - إلا بتوفير حاجاته وإمكانيات النشاط والرخاء له - قد تغرى بعض العباقرة بالعبث ، ولكن إلى جانب هذا فإن هذه السياسة تفضى بلا شك إلى نتائج مذهلة مع البعض الآخر منهم .

وبمناسبة الإمكانيات ، فالواجب أن تتوافر للعباقرة بشىء من الوفرة بحيث لا ينصرفون إلى الاستزداة من الثروة بالانشغال فى أمور تبدو فى الظاهر أنها خدمات ثقافية ، وهى فى حقيقة الأمر استهلاك واستنزاف لطاقاتهم . فكثير من أساتذة الجامعات يستهلكون طاقاتهم الثقافية فى المحاضرات الإضافية التى تخرج عن نصابهم القانونى وقد استهوتهم المكافآت السخية التى ينالونها مقابل تلك المحاضرات . والواقع أن العباقرة من أولئك الأساتذة يستنزفون عبقريتهم في تلك المحاضرات . وبدل أن تبدو عبقريتهم فى مكتشفات أو نتاجات جديدة أصيلة ، فإنهم يصرفون جهدهم فى تأليف الكتاب الجامعى المناسب للطالب والذى يضمنون بيعه بسرعة ، وبالتالى يضمنون منه دخلا مباشرا وسريعا ومجزيا . أما البحوث الأصيلة التى تضيف إلى العلم جديدا فنادرا ما تشغل بال الأستاذ لأنه يعلم مسبقا أن أحدا من الطلبة سوف لا يهتم باقتنائه .

ومن الممكن تقرير نظام التفرغ بالنسبة للعباقرة بحيث يتسنى للعبقرى الإفادة من إبراز عبقريته وتوجيهها الوجهة الجديرة بها . والتفرغ لا يعنى مجرد صرف

مرتب للمتفرغ ، بل معناه أيضا الرعاية التامة للمتفرغ وتلبية جميع طلباته مهما بدت سخيفة أو غير معقولة. وإذا كان الهدف الأصلى من المراكز الثقافية هو توفير الإمكانيات الثقافية للباحثين فالخطر أن تنصرف عن أهدافها الأصلية بأن تتحول إلى أدوات لتحقيق خطط رسمت لها من قبل .

فمن الخطأ أن توضع خطة للعبقرى لكى ينفذها . والواجب أن تكون الخطة القمينة بالاتباع هى الخطة التى تنبع منه هو ، وأن تسود التلقائية والعفوية جو المركز القومى الثقافى . أما أن توضع الخطط ، وتحدد المشروعات ، وتعين الأهداف، فمعناه أن العبقرى يوضع فى إطار خارجى مفروض عليه من خارج نطاقه، ومعنى هذا بالتالى أن العبقرية تقيد بقيود معينة تكبل انطلاق العبقرية إلى آفاق المجهول الذى يحسه العبقرى بدخيلته دون أن يتسنى له تحديد قسماته وملامحه .

وباختصار فإن الأهم والجديد بالنسبة للعبقرى هو ذلك المجهول المعتمل بدخيلته والذى يجب توفير الوقت والجهد له وعدم تكبيله بتكبيل العبقرى بقيود من الخارج .

إعداد معلم العباقرة :

لا يختلف اثنان على أن هناك حاجة ملحة إلى إعداد جيل جديد من المدرسين المتخصصين في رعاية الموهوبين . ذلك أن الفارق بين الطفل الموهوب وبين أى طفل آخر ليس مجرد فارق كمى فى درجة الذكاء ، بل هناك - كما سبق أن اتضح لنا - فوارق كيفية تتعلق بطبيعة الطفل الموهوب الذى يضحى شخصا عبقريا .

وليس من المعقول أن نزعم بأن مدرس العباقرة ينبغى أن يكون هو نفسه عبقريا ولكن ما نزعمه هو فهم وتدريب الراغب فى أن يكون معلما للعباقرة على ما يتصفون به من خصائص وما يجب أن يطبق عليهم من وسائل تربوية . نعم إن مدرس العباقرة يجب أن يكون حائزًا على مستوى عال من الذكاء ، حتى يتسنى له أن يستحوذ على وجدان الأطفال الموهوبين ، وحتى لا يحتقروا ما يقدمه إليهم من خبرات ، وحتى يستطيع أن يتحدى ذكاءهم الخارق ، وحتى لا تكون دروسه بالنسبة

لهم أقل من المستوى الذى ينشدونه، والذى يجب أن يملأ وجدانهم ويهيمن على أمزجتهم ويأخذ بألبابهم .

بيد أن الذكاء لا يكفى وحده كخامة يمكن تشكيل مدرس الموهوبين منها. فلابد من وجود عناصر أخرى للشخص قبل البدء فى إعداده لتربية الموهوبين . فيجب أن يكون مدرس الأطفال الموهوبين شخصا مرنا بحيث يسمح للأطفال بالوقت الذى يمكنهم من خلاله الوقوف على المكتشفات الجديدة ، وأن يوفر لهم الحرية حتى يحاولوا تجربة ما لديهم من إمكانيات .

وعلى مدرس الموهوبين أن يحفز تلاميذه وأن يشجعهم ويمنحهم الفرص لامتحان إمكانياتهم فيعمدون إلى الاكتشاف والاختراع ، ولابد فى هذه التربية من السماح للتلاميذ بعدم التزام التطابق فى تنفيذ الأفكار وإلا كان معنى هذا إخماد روح الابتكار لديهم . ويحتاج هؤلاء الأطفال إلى توجيه وهداية رشيدة ، بحيث لا يكون هذا على حساب ما لديهم من تلقائية ومواهب أصيلة .

ويعتبر توجيه الأطفال الموهوبين نحو الحياة والتعلم الناجحين مسئولية هامة وصعبة ملقاة على عاتق المدرس . فلابد أن يكون مدرس الموهوبين قادرًا على إشباع اهتمامات الطفل الموهوب الحاضرة وشحذ مواهبه . ولكن عليه فى نفس الوقت أن يساعده على توسيع اهتماماته بحيث تتضمن تلك الاهتمامات الجوانب غير المألوفة. ويجب على المدرس أن يوجه الطفل الموهوب إلى كثير من المصادر التى تمكنه من تحصيل المعلومات بنفسه . ويجب عليه أيضا مساعدته على أن يسأل وأن يطابق الإجابات التى يتلقاها على ما يستطيع مشاهدته أو سماعه فى الواقع . ولكنه فى حاجة أيضًا إلى أن يتعلم كيف يلجأ إلى تلقى العون عندما يكون فى حاجة إلى ذلك. ويجب أن يواجه فى بعض الحالات بالوقائع المتضاربة التى قد تثير الشك، وعلى المدرس أيضًا أن يعلم الأطفال الموهوبين البحث عن مصادر تعليمية متنوعة . وبهذه الطريقة يتعلم الطفل أن يتوقع التغير وأن يكون مرنا بحيث يكون مستعدا لتحقيق التوافق مع التغير الجديد .

وعلى المدرس أن يوجه التلميذ الموهوب إلى تقبل المقترحات المعقولة وإا ى

الالتزام بالأهداف الواقعية . ويجب على المدرس أيضا أن يوجه طفله النابه إلى تحديد نطاق مناشطه فى ضوء ما يقدمه المدرس من خبرات وفى ضوء ما يحس به الطفل من قصور فى تلك الخبرات . ولسوف يساعد المدرس الواثق من توجيهاته الطفل الموهوب على تحقيق ضرورة التخطيط للمستقبل، كما سوف يعمد إلى حمل الطفل على التفكير بعناية مستعينا بالنقد الذاتى، كما سوف يعلمه مطابقة المعلومات والخبرات التى سبق له أن حصلها مع ما يستجد فى المواقف الجديدة .

ولسوف يجد المدرس نفسه فى حاجة إلى توجيه الأطفال الموهوبين إلى الاعتماد على النفس باستمرار وتدرج ، كما يوجههم إلى تحرى الأصالة وإلى الاستعانة بخبرات الآخرين وإلى الإبداع . ويستطيع المدرس كذلك أن يوجه مناشط التلاميذ الموهوبين إلى التخطيط التعاونى، وإلى بذل الجهود الصادقة للإسهام فى الارتفاع بمصالح الجماعة وتحقيق سعادة الآخرين .

وتعتبر الأهداف التى سبق أن ذكرناها وكذا الطرائق والأصول والاتجاهات التربوية السليمة ضرورية للمدرس حتى يستطيع التوصل إلى النجاح فى تربية الموهوبين، على أن الأمثلة التى ذكرناها لا تستوعب جميع الأهداف التى يمكن رسمها أمام المدرس . ذلك أن المدرس الماهر يستطيع أن يضيف إلى تلك الأهداف أهدافا أخرى مناسبة للمقام ولاستعداد كل تلميذ ولإمكانيات المدرسة ، كما يستطيع أن يضيف كثيرا من الاتجاهات وطرائق التعليم الناجعة [1] .

ولعلنا نتساءل في نهاية المطاف : ألا يجدر بالمهتمين بإعداد المعلمين أن يخصصوا أقساما بكليات التربية ومعاهد إعداد المعلمين لإعداد مدرسين للموهوبين؟ إننا نتقدم بهذا الاقتراح ، آملين أن يقع موقع الرضا والترحيب لدى أولئك المهتمين بإعداد المعلم فى مصر والوطن العربى، حتى تكتمل صورة التربية السليمة للموهوب ، وحتى يمكن تجنب ما يمكن أن يرزح تحته من أمراض نفسية تجعل منه طامة على نفسه وعلى مجتمعه بدل أن يكون عامل نهضة وتقدم وسعادة له ولغيره .



(١) انظر كتاب : تربية الموهوب والمتخلف - كروكشانك - ترجمة المؤلف ومراجعة الدكتور محمد خليفة بركات - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٧١ ص ٧٧ وما بعدها .

المراجع العربية

١- أحمد أمين - فيض الخاطر - الجزء الرابع - مكتبة نهضة مصر - ١٩٥٦

٢- الجاحظ - البيان والتبيين لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - الجزء الأول - القاهرة - ١٣٣٢ هـ .

٣- ديوان بشار بن برد - الجزء الأول - تقديم محمد الطاهر بن عاشور - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر - القاهرة - ١٩٦٧ .

٤- سمير شيخانى - مع الخالدين - دار المعارف بلبنان - ١٩٥٩ .

٥- عباس محمود العقاد - عبقرية خالد - الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٧٢ .

٦- عثمان أمين - ديكارت - مكتبة الحلبى - الطبعة الثانية - ١٩٤٦ .

٧- القرآن الكريم - سورة الأعراف .

٨- الكتاب المقدس - العهد القديم - سفر الخروج .

٩- لسان العرب - لابن منظور الأفريقى المصرى - المجلد الرابع والمجلد الثالث عشر - دار صادر بيروت ١٩٥٦ .

١٠- مصطفى سويف - الأسس النفسية للإبداع الفنى فى الشعر خاصة - دار المعارف ١٩٥١ .

١١- مصطفى سويف - العبقرية فى الفن - المكتبة الثقافية .

١٢- المنجد فى الأعلام - دار الشرق (المطبعة الكاثوليكية) بيروت - لبنان - الطبعة الثانية - ١٩٦٩ .

١٣- يوسف كرم - تاريخ الفلسفة اليونانية - لجنة التأليف والترجمة والنشر - ١٩٣٦.

١٤- يوسف مراد - شفاء النفس - دار المعارف بمصر - سلسلة اقرأ .

١٥- يوسف ميخائيل أسعد - تربية الذوق الفنى - هربرت ريد - دار النهضة العربية ١٩٧٧ .

١٦- يوسف ميخائيل أسعد - تربية الموهوب والمتخلف - تأليف ف ج كروكشانك - تقديم دكتور محمد خليفة بركات - مكتبة الأنجلو المصرية - ١٩٧١.

١٧- يوسف ميخائيل أسعد - كيف تتعامل مع غيرك ؟ - مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٢ .

REFERENCES

1. ABRAM KARDINER and EDWARD PREBLE : They Studied Man Secker and Warburg, London, 1961 .

2. ANATOLY PORTNOV and DMITRY FEDOTOV: psychia - try, trans by Yuri Shirokov, Mir Publishers. MOSCOW,1969.

3. DAVID STAFFORD- CLARK : Psychiatry to-day, A Pelican Book, reprinted,1954 .

4. DREVER, JAMES : A Dictionary of Psychology, Penguin Refer- ence Books, 1958.

5. Encyclopedia Americana, New York, Vol. 12 and vol. 16 1965.

6. Encyclopaedia Britanica, Vol. 10, 1972 .

7. Encyclopedia International, New York, 1970 .

8. FLUGEL, J.C., : A Hundred Years of Psychology, Duckworth, 1948.

9. GERTH, HANS and MILLS, C. WRIGHT: Character and Social Structure, Routledge and Kegan Paul LID, London, 1969.

10. HORTON COOLEY, CHARLES, : Social Processes, Southern Illinois Illinois University Press, 1966.

11. JAMES, WILLIAM, : Psychology, A. Fawcett Premier Book, 1966.

12. JEKELS, L., The Turning Point in the life of NAPOLEON I, IMAGO, 1941.

13. KLINEBERG, OTTO, Social Psychology, New York, Holt, Rinehart and Winston, 1954.

14. Larousse Du XXe Siècle, Paris, Tome Troisième, 1930.

15. McDOUGALL, W., : Psychology, The Study of Behavior, Oxford University Pres, London. 1947.

16. MILLER, GEORGE A., : Psychology, the science of metal life, Penguin Book, London, 1962.

17. MOROZOV, G., And ROMASENKO, V., : Neuropa tholo - gy and Pychiatry, Peace Publishers, Moscow,1968

18. O' CONNER, WILLIAM A.,: Psychology Without tears, Rider and Company, 1953 .

19.PADOVER, SAUL K., : The Genius of America, McGraw- Hill Company, INC., New York, 1958.

20 . READ, HERBERT, : Education Through Art, Faber and Faber, London, 1936 .

أنظر الترجمة العربية للمؤلف :

21. RICHARD T. LAPIERE and PAUL R. FARNSWORTH: Social Psychology, McGraw- Hill Book Comp ., INC New York, 1949.

22. PICKMAN, JOHN, Edt., : A General Selection from the Works of SIGMUND, FREUD The Garden City Press, Letch-Worth, Hert ford-Shire, 1937.

23. ROBERTSON, J. G., The life and Work of GOETHE (1749 - 1832), London, George Routledge and Sons LTD, 1932.

24 . ROUSSEAU, The Confessions, Penguin Clasics , translated by J.M. COHEN, 1954.

25. RUSELL, BERTRAND, : Freedom and Organization, George Allen and Unwin, London, 5 th Imp., 1952.

26. RUSSELL, BERTRAND,: History of Western Philosophy, George Allen and Unwin, London, 3rd IMP., 1948.

27. RUSSELL, BERTRAND, : The Scientific OutLook, George Allen and Unwin, London, 2nd IMP., 1934.

28. SPERBER, A., DANTE'S : Unconscious Soul-Life, IMAGO, 1914.

29. The American Peoples Encyclopdia, New York, 1919, Vol. 8.

30 . WEXBERG, W.B., Individual Psychology, 1929.

31. YOUNG KIMBALL,: Personality and Problems of Adjustment, Appleton- Century-Croft, New York, 2nd edition, 1952.

32. ZELLER, EDUARD,: Outlines of the History of Greek Philoso - phy, Kegan Paul, London, 1931.

فهرس الكتاب

الموضوع الصفحة

الموضوع | الصفحة

كتب للمؤلف
بدار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

١ - الانتماء وتكامل الشخصية
٢ - الحب والكراهية
٣ - الحرية النفسية
٤ - رعاية المراهقين
٥ - رعاية الشيخوخة
٦ - المراهقة وكيفية التعامل معها
٧ - سيكولوجية الشك
٨ - الشباب والتوتر النفسى
٩ - الشخصية القوية.
١٠ - العبقرية والجنون
١١ - قوة الإرادة
١٢ - استثمر وقت فراغك
١٣ - بالعزيمة تتحقق آمالك
١٤ - تعلم فن التفكير والكلام
١٥ - الحب من أول نظرة : دراسة سيكولوجية
١٦ - صحتك النفسية فى الميزان
١٧ - الصداقة والحب
١٨ - الغيرة والحسد
١٩ - كن شجاعًا ولا تخف
٢٠ - كيف تربى أولادك ؟
٢١ - كيف تصلح سلوكك ؟
٢٢ - تذوق الجمال لتعيش سعيدًا
٢٣ - ماذا تعرف عن اللاشعور
٢٤ - تعلم فن التفاوض
٢٥ - قاموس علم النفس
٢٦ - المشاكل الزوجية
٢٧ - الزوجة الناجحة
٢٨ - كيف تعاملين زوجك
٢٩ - كيف تعامل زوجتك
٣٠ - الكذب وأثره فى الإنسان
٣١ - الغرور وأثره فى الإنسان
٣٢ - الضمير وأثره فى الإنسان
٣٣ - الصراحة : ما لها وما عليها
٣٤ - عاداتك عنوان شخصيتك
٣٥ - الأثر النفسى للقرارات الإدارية
٣٦ - سيكولوچية الجرائم الجنسية
٣٧ - سيكولوچية الخبرة
٣٨ - فن المقابلات
٣٩ - السلوك الإرادى
٤٠ - أنت تربى نفسك
٤١ - سيكلوچية الإلهام



دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلي) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين ت : ٧٩٤٢٠٧٩



هذا الكتاب

محاولة جادة لدراسة موضوع العبقرية فى صلتها بالجنون ، فيتساءل المؤلف عما إذا كان هناك ارتباط حتمى بين العبقرية والجنون أم أن ما قد يظهر فى سلوك العبقرى من انحراف إنما هو نتاج سوء التربية وقصور فى التوجيه .

والكتاب فى منهجه التزم بالأسلوب العلمى فى مناقشة هذه المشكلة ، فرجع المؤلف إلى أمهات المراجع التى عرضت لهذا الموضوع ، وكان كلفه بالتراث العربى ككلفه بالتراث الغربى . وحاول أن يقلب الموضوع على جميع أوجهه التى يحتملها ، فجاء الكتاب مزيجًا من الأدب وعلم النفس وعلم التربية وعلم الاجتماع والتاريخ . بيد أن هذا المزج لم يفقد الموضوع وحدته واتساقه ، بل على العكس ضمن له وحدته وحيوية بنيانه . ولسوف يكتشف القارئ بنفسه أن دراسة هذا الموضوع على هذا النحو ضمان أكيد لكفالة الأصالة والاستجابة لميول القراء على اختلاف اتجاهاتهم ... إنه كتاب يجمع بين العلم والمتعة .

هانى أحمد غريب